المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية



البحوث والدراسات

المقدمة للمؤتمر

الجزء الرابع

عني بطبعه ومراجعته
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
☎ ٢٣٧٥٤٥ - بيروت ص.ب ٨٣٥٥
☎ ٧٢١٦١٢ - صيدا ص.ب ٢٢١

الطّبعة الأولى
١٤٠١ هـ ١٩٨١ م


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ


البحوث والدراسات
المقدمة للمؤتمر


بسم الله الرحمن الرحيم

فن الذكر والدعاء

عند خاتم الأنبياء

لفضيلة الشيخ محمد الغزالي

« مصر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف عرّفنا محمد بالله

أنا أحد الألوف المؤلفة التي تؤمن بالله العظيم، وتسبح بحمده، وتقر بجلاله ومجده، وتنتعش بنعمته ورفده.

ولقد عرفت هذا الاله الكبير عن طريق النبي العربي المحمد، قرأت كتابه ثم درست سيرته، فتجاوبت فطرتي مع رسالتـه، واستراح فكري وقلبي الى دعوته، وأصبحت واحدا من جماهير ضخمة رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد - عليه الصلاة والسلام - نبيا ورسولا..

كان في الناس من لا يعرف الله أصلا، فأنار محمد بصيرته، وقاده من ضميره الى مولاه.

وكان هناك من يعرفه معرفة فاسدة، يظن له ولدا يشفع، أو شريكا ينفع، فجاء محمد - عليه الصلاة والسلام - يقرر عقيدة الوحدانية المطلقة، وينفي أن يكون لله ابن أو ابنة، أو ند أو ضد، أو شبيه في العظمة أو معقب في الحكم «أم اتخذوا من دونه أولياء؟ فالله هو الولي، وهو يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير. وما

اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله، ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب. فاطر السموات والأرض، جعل لكم من أنفسكم أزواجا، ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شيء عليم »[1].

ومعرفة محمد بالله لا تسبقها معرفة في الأولين والآخرين، لأنها معرفة تنبع من شهود لا يخبو سناه، ولا يغيم ضحاه.

والمسلم المتأسي برسوله يحس أن لهذه المعرفة سمات خاصة تبدو في حديثه - عليه الصلاة والسلام - فهي واضحة صادقة حارة نفاذة، نعم لا غموض ولا افتعال، في حديث هذا النبي عن الله، وفي ربط الناس به.

وللكلام الانساني درجة حرارة معينة يموت دونها فلا يترك أثرا، ولا يبلغ هدفا، وعندما يذكر محمد ربَّهُ راغبا أو راهبا يشتد النبض في الكلمات المنسابة، وتحتد العاطفة في المشاعر الحارة فلا يملك قارىء أو سامع الا أن يخشع ويستكين لله رب العالمين...

---

(١) سورة الشورى: ٩ - ١٢

كنت أتابع يوما درسا في عالم الأفلاك حيث تقفز الأعداد الى شطحات تسبق الخيال، وتقاس المسافات بأرقام تنقضي قبل احصائها الآجال..

وتضاءلت في نفسي ثم عدت الى مواقع الأقدام من أرضي. ونظرت الى ما تحت الثرى، وعلمت أني لا أدري ولا أرى.

ترى ما هناك في أعماق هذه الكرة حتى النقطة المكشوفة من سطحها في الجانب الآخر؟ أشياء كثيرة نجهلها كل الجهل، قلت: لكن الله وصف نفسه فقال: (الرحمن على العرش استوى، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى، الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى):[1] ان اللمعة المضيئة عند سدرة المنتهى كالحبة المستخفية في ظلمات الأرض، سواء في علمه - تبارك اسمه -، وهو علم مسطور في سجل بيّن دقيق..!!

وملأت أقطار نفسي عاطفة إعجاب بهذا الخالق الأعلى، بيد أن الكلمات المعبرة تقاصرت ثم احتسبت، وشاء ربي أن يلهمني

---

(١) سورة طه: (٤ - ٥)

ترديد كلمات تُنفس عما بي، فاذا الكلمات المعبرة في حديث رواه علي بن أبي طالب يصف صلاة النبي الكريم جاء فيه « .. واذا ركع يقول في ركوعه: اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي[١] واذا رفع رأسه من الركوع يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد،[٢] واذا سجد يقول في سجوده: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق فيه سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »[٣].

في هذه المناجاة ترى الألوهية الكاملة والعبودية الكاملة..

بين يدي بديع السماوات والأرض يجثو عابد ملهم، فيهمس في ركوعه وسجوده بكلمات تصور ما ينبغي أن ينطق به كل فم تحية لذي الأسماء الحسنى..!!

ان المسلم الأول - وهذا ترتيب محمد بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - له فن في الذكر والشكر

(١، ٢، ٣) رواه احمد ومسلم وابو داود والترمذي.

والانابة والدعاء لم يحفظ مثله لبشر، وسنلقي نظرة على ما أثر عنه - عليه الصلاة والسلام - لنجلو هذه الحقيقة..

رجعت البصر في كتب مقدسة لأديان أخرى، فوجدتها كلها دون ما حوى القرآن الكريم من اعظام لله، وتفصيل لأمجاده ومحامده، لقد ذكر القرآن أسماء الله الحسنى مئات المرات في تضاعيف قصصه وتشريعه ووصفه لمشاهد الكون، ومشاهد البعث، ورفض أن يكون الثناء على الله نظريا لا يتحرك به فؤاد ولا يرقى به سلوك. ثم ترجم النبي العابد محمد عليه الصلاة والسلام هذا المنهج في نواحي حياته كلها فصار انسانا ربانيا ترنو بصيرته الى الله ويباشر كل شيء في الدنيا باسمه، كأنه منه على مرأى ومسمع.

ان الغني بالله لا تدنيه مشاعر الرغبة والرهبة، والقوي بالله لا تقلقه أعداد القلة والكثرة، والمراقب لله تستوي عنده الخلوة والجلوة، وطالب الآخرة لا تستخفه مآرب الحياة الدنيا.

وقد كان محمد - عليه الصلاة والسلام - عامر القلب بربه، عميق الحس بعظمته، وكان ذلك أساس علاقته بالعباد ورب العباد.

واسمع اليه في هذا الدعاء الجامع: « اللهم بعلمك الغيب،

وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي،
وتوفني اذا علمت الوفاة خيرا لي.

الله اني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك
كلمة الحق في الرضا والغضب. وأسألك القصد في الفقر
والغنى. وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع.
وأسألك الرضا بعد القضاء. وأسألك برد العيش بعد الموت.
وأسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك، في غير
ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين.. »

ومن مجون الناس أن يقول فريق منهم: كان محمد مدعيا
للنبوة.. ويحكم.. فأين الصدق اذن؟

إن فم بشر من أزل الدنيا الى أبدها لم يناج الله بأشرف
من هذا الكلم، ولم يتوجه اليه بأحر من هذه الضراعة، من
يكون صادقا ان كان محمد مزورا؟

الواقع أن المكذبين لمحمد في درك من العجز الفكري
والروحي يعيي الحلماء، ان تحديثهم عن محمد كتحديث الهوام
عن الكواكب السيارة. « والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر
وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد »[1]

---

(١) فصلت: ٤٤

الحب أساسه والشوق مركبه...

محنة البشر أنهم مكلفون بالارتقاء الى الملأ الأعلى على حين أنهم خلقوا من حمأ مسنون. وهم ليسو مكلفين أن يكونوا ملائكة، فهيهات هيهات ما داموا محكومين بأجهزة هذا الجسد ومطالبه المتجددة.

هم مكلفون أن يقاوموا الاسفاف بالتسامي، والنسيان بالذكر، والأثرة بالاخوة.

هم مكلفون - بعدما وهبوا الحياة - أن يجعلوها لله، فلا تكون أنفسهم شغلهم الشاغل، بل يكون واهب الحياة أملهم الماثل، وما فرضه هو مصدر نشاطهم، وأساس حراكهم وحماسهم..!!

وفي هذا الكلام اجمال يحتاج الى ايضاح، ان الملائكة لا تأكل، ولا تتكلف زرعا ولا حصادا والبشر الذين يأكلون يضاهئون الملائكة تماما لو أنهم زرعوا وحصدوا وأكلوا باسم الله.

ووقتهم المبذول في ذلك كله يساوي وقت الملائكة المبذول في التسبيح والتحميد اذا هم لحظوا قدرة الله في الاثبات والانضاج، وفضله في الاطعام والكسوة والمأوى..

وقد بعث الله رسله من بدء الخليقة ليسيروا بالأمم على هذا الدرب، لم يبعثهم ملائكة لأنه لا علاقة للملائكة بهذا النوع من التكاليف.

وقد عجب الجاهليون من ذلك وقالوا: «أبعث الله بشرا رسولا؟ قل: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا. قل: كفى بالله شهيدا بيني وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيراً».[1]

والنبي العربي الخاتم ضرب من نفسه المثل في امكان أن يعيش البشر على مستوى الملائكة ذكراً لله وشكرا، والأفق الذي رفع الناس اليه لا تلمح فيه الا صفوف المصلين المسبحين بحمد ربهم، أو صفوف المجاهدين الذين بذلوا في ذات الله أنفسهم وأموالهم...

نعم ان محمدا أنشأ جيلا من الناس يباهي الله بهم ملائكته، لأنهم قطعوا كل الجواذب الأرضية وكل اغراءات هذه الدار العاجلة، ومشوا وراء نبيهم المتفاني في مرضاة ربه، الناشد لوجهه وحده، المرتبط بهذه الكلمات النقية «(قل ان صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»).[2]

لا يعرف محمدا صلى الله عليه وسلم من احتبس في سجن الدنايا أو قعد عن نصرة الحق والخير.

---

(١) الاسراء: ٩٤ - ٩٦

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣

وينابيع الحياة العاطفية والفكرية في نفس الرسول الكريم « محمد » بن عبد الله تجيء من معرفته الساطعة بالله، وذكره الدائم له. وأخذه بنصيبه الضخم من معاني الكمال في أسمائه الحسنى.

ذلك أن الله خلق آدم على صورته، واستخلفه في هذه الأرض ليكون نائبا عنه، ومكنه، بل كلفه، أن ينشط في استغلال خيرها وامتلاك أمرها، وأوصاه أن يحترم أصله الالهي العريق، فلا يتدلى عنه الى نزعات الطين، ووساوس الشياطين.

يجب أن يكون عالما ماجدا، قادرا كريما، رحيما منعما، وهابا، الى آخر ما ترمز اليه أسماء الله الحسنى من صفات الكمال، وشارات العظمة والجمال.

والعالم - من أزله الى أبده - لا يعرف انسانا استغرق في التأمل العالي ومشى على الأرض وقلبه في السماء، كما يعرف في سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

انه خير من حقق في نفسه. وفي الذين حوله حياة الانسان الكامل.

الانسان الرباني المستخلف في ملكوت الله، لينقل اليه

أطرافا من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة.

وفي المواريث العقلية والعاطفية التي تركها هذا النبي الكريم، ترى كل العناصر التي يستطيع بها أي انسان أن يقوم بوظيفته الصحيحه في الحياة..

انظر الى قوة العاطفة ودفقها في هذه المناجاة الحارة.

روى الامام أحمد وأبو داود والنسائي عن «زيد بن أرقم» أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول دبر صلاته:

«اللهم ربنا ورب كل شيء».

«أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك»

«اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك».

«اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة».

«اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصا لك وأهلي، في كل ساعة من الدنيا والآخرة».

«يا ذا الجلال والاكرام، اسمع واستجب».

«الله الأكبر الأكبر، نور السموات والأرض».

«الله الأكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل».

«الله الأكبر الأكبر».

ان ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحقة هذا الجيشان المنساب في كل دعوة، تجعل الرسول المنيب المتعبد يلجأ الى التكرار في العبارة الواحدة لينفس عما استكن في صدره من روعة ومحبة واجلال.

انه في ظاهره ترداد للفظ واحد وهو في باطنه تعبير عن معان متجددة من الولاء والهيام.

ويستوقفك في هذا الدعاء أن تتوسط شهادة النبي لشخصه بالرسالة، بين توحيد الله والاقرار بأن العباد كلهم اخوة.

ما معنى أن يقول محمد لربه: «أشهد أن محمدا عبدك ورسولك»؟

ذلك ضرب من الاصرار على تحمل الأمانة وابلاغ الرسالة للناس كافة، مهما كذبوا بها وتنكروا لصاحبها.

أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة:

لنتأمل في هذه الصورة، صورة يوم واحد من حياة نبي الاسلام.

لقد صحا من نومه قبل الفجر بيقين، وظلمة الليل لا تزال مخيمة على كل شيء، انه يتحرك مع طلائع الصبح

المقبل قائلا: «الحمد لله الذي رد الى روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره».

انظر كيف يستقبل الحياة بترحاب وتفاؤل «الحمد لله الذي رد اليَّ روحي»

ان العمر الذي ملكناه نعمة نحمد الله عليها، وينبغي أن نحسن استغلالها، ان الحياة فرصة النجاح لمن أراد النجاح، ولذلك امتن الله بالشروق والغروب على عباده («الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا، ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون»).[1]

وعظمة الحياة في العافية. ما أجمل أن يكون المرء سليم البدن، تنهض أجهزته وعضلاته بوظائفها كلها دون اعياء أو ملال، ان المسلم عندئذ ينطلق في كل أفق ليؤدي واجباته باقتدار ورغبة. وذلك سر حمد الله على العافية المتاحة..

ونقف طويلا عند قول الرسول: «وأذن لي بذكره». أرأيت أدب العبودية في شمائل العابد الرقيق؟ ان منحه

---

(١) سورة غافر - ٦١

يوما جديدا ايذان له باستئناف العبادة من مطلع الفجر .

ويبدأ العبد الشكور بذكر ربه بكلمات يقطر اليقين والحب من كل حرف فيها ، يقولها في الصباح والمساء على سواء : « اللهم اني أسألك العافية في الدنيا والآخرة. اللهم أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي : اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي. اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي ».

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي : قل اذا أصبحت واذا أمسيت : اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد ألا اله الا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وفي رواية ، وأن اقترف على نفسي سوءاً أو أجره الى مسلم ».

مع طلائع اليوم المقبل يقول الرسول هو وأصحابه : أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ، وعلى ملة ابينا ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ».

واقرار الأصحاب والأتباع أنهم على دين نبيهم محمد ظاهر، فما معنى أن يقول ذلك النبي نفسه؟ لقد تكرر في أدعية كثيرة أن يشهد الرسول لنفسه بالنبوة، أو بأن محمدا حق.

وأرى أن ذلك لمقاصد حسنة منها أنه أول ملتزم بتنفيذ ما جاء به، فكثير من أهل الدين ورؤسائه يحسبون الدين بلاغا للآخرين وتكليفا.. أما هم ففوق المساءلة به..

ومنها مراغمة الكفار والمنكرين الشانئين، وجعل ذلك حقيقة لا تنال منها الشبهات والأوهام..

ومنها استشعار نعمة الله على صاحب الرسالة، وابراز الرضا والسعادة بها شكرا لله الذي اصطفى.

وقد كان القلب الشريف يجيش بمشاعر التقدير والاعظام لفضل الله منذ يصبح، ويترجم عن ذلك بكلمات رائقة.

« اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقلك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر ».

« اللهم اني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر، فأتم نعمتك علي وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة ».

وروى أبو هريرة أن رسول الله قال: ما من رجل ينتبه من نومه فيقول: الحمد لله الذي خلق النوم واليقظة، الحمد لله الذي بعثني سالما سويا، أشهد أن الله يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.. الا قال الله تعالى: صدق عبدي..

وجميل أن يثني المرء على مالك الملك، فيستمع الله الى الثناء المهدي، ويقبله بالتصديق، ونسبة القائل الى عبادته، يقول عنه: صدق عبدي..

وعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين، اللهم أني أسألك خير هذا اليوم، فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده. ثم اذا أمسى فليقل مثل ذلك ».

ان الناس يعيشون داخل كهف مغتم من همومهم الحقيقية أو المتخيلة.

وانه لحزن أن عقولا ذكية لا ترى أبعد من جدران هذا الكهف، وأن قلوبا فياضة بالأسى لا تحس الا ظلمته وضيقه.

ان الرسول العارف بربه يستنكر هذا الانقطاع المخزي فيقول: «ما من صباح يصبح العباد الا مناد ينادي، سبحان الملك القدوس - وفي رواية - الاصرخ صارخ أيها الخلائق سبحوا الملك القدوس».

أكاد أقول: أن فؤاد محمد وحده هو الذي أصاخ الى صوت الصارخ المهيب بالبشر أن يمزقوا حجب الغفلة، وأن يثوبوا الى الملك القدوس..

وافتنانه صلى الله عليه وسلم في التذكير هو أثر استغراقه في الذكر، ورؤيته لذي الجلال.

وجمهور الفقهاء لا يلزم الأمة بترديد الأذكار والأدعية التي نقلناها وننقلها هنا، ان ترديدها مستحب وحسب وهذا صحيح.

بيد أني أرى طول التأمل في هذه الأذكار والضراعات لا بد منه حين يعتل القلب وتضعف بالله علاقته، فان أثرها قوي في تعريف المرء بربه وتبصيره بمعاني الأسماء الحسنى.

ان الايمان الغامض قليل الجدوى، والايمان الفاتر أعجز أن يهيمن على السلوك أو يكبح الهوى.

والواقع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحتلوا في الايمان مكان القمة، ولم يغيروا التاريخ الانساني، ويقيموا حكما مكان حكم، وأخلاقا مكان أخلاق، الا لقربهم من حياة الرسول، واقتباسهم من سناه، وسريان الاخلاص من قلبه الى قلوبهم، وحب الله من فؤاده الى أفئدتهم..

هذه طباع الناس، ربما هاج أشواقهم الهامدة شوق حار على ما قيل.

وذو الشوق القديم وان تسلَّى
مشوق حين يلقى العاشقينا

وأرى أن الاستماع الى النبي وهو يدعو، واستبطان عواطفه وهو يناجي، يشعل البصائر المنطفئة، ويدفعها دفعا الى الاقبال على الله..!!

وليكن هذا اللون من الأدعية نافلة، فهناك قدر مفروض من الاتصال بالله يتصل بالمسجد، والصلوات المكتوبات على كل مسلم.

انه خلال أربع وعشرين ساعة لا بد من الوقوف بين يدي الله خمس مرات، وقد تفترض الجماعة أو تكون سنة مؤكدة، ومكانة المسجد في المجتمع الاسلامي رفيعة، وسوف يستغرب الحديث عنها أناس أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات..

مع التباس الخيط الأبيض والأسود من الفجر يبدأ الخطو الى المسجد واغراء ذلك يقول الرسول الكريم: « بشر المشائين الى المساجد في ظلم الليل بالنور التام يوم القيامة » « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا »..

وفي المشي الى المساجد لحضور الجماعات، صح قول الرسول أنه ما يرفع الانسان قدما ويضع أخرى، الا كتبت له حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة.

وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج الى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول: « اللهم اجعل في قلبي نورا وفي لساني نورا واجعل في سمعي نورا واجعل في بصري نورا، واجعل من خلفي نورا ومن أمامي نورا، اللهم اعطني نورا ».

وقد أعطاه الله ما سأل، فكان « داعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وليت شعري ما تكون الانسانية لو خلت من محمد؟ ومن سريرته النقية وبصيرته الوضاءة؟ ومن رسالته التي غسلت غسلا ما علق بعقيدة التوحيد من لوثات الأفاكين والمخرفين..

لقد ارتبط بالمسجد، وجعل تعلق القلوب به أملا حلوا، وأحيى بسيرته دعاء أبيه ابراهيم لما قال: «رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربّنا وتقبل دعاء».

لقد تحولت الصلاة في سيرته من تكليف تصحبه المعاناة الى سعادة تستريح اليها النفس وهو القائل «وقرة عيني في الصلاة».

وفي رواية كان اذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم» قال: فاذا قال - المسلم - ذلك قال الشيطان: حفظ مني سائر اليوم»

وفي رواية. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد حمد الله تعالى وسمى وقال: اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك، واذا خرج قال مثل ذلك، وقال: اللهم افتح لي أبواب فضلك».

ما كان أشد حبه للصلاة. كان اذا سمع المؤذن يقول: قد قامت الصلاة - يقول: أقامها الله وأدامها.

ونحن مأمورون ان نردد كلمات الأذان ثم ندعو للرسول، وهنا لطيفة يحسن اثباتها، اننا نقول: اللهم رب هذه الدعوة

التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته.

ربما تساءل سائل: لماذا لم تتجانس الكلمات في التعريف، فيقال: ابعثه المقام المحمود الذي وعدته؟ والجواب أن النبي فرح بالكلمة التي ذكرها القرآن الكريم وهو يبشر العابد المتهجد بالجائزة التي تنتظره «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا».

لقد تشبث بالكلمة المنبئة عن مكانته في الآخرة، وطلب من أمته أن تدعو الرحمن بسوق الجائزة وانجاز الوعد، ومكافأة قوّام الليل الذي تورمت قدماه من طول المناجة والتلاوة، والركوع والسجود.

ان محبة الله في قلب هذا الانسان المتبتل مكانة لا يزحمها شيء أبدا.

ولقد ربى - عن طريق المحراب - الرجال الذين قادوا الانسانية بعده ثقافيا وسياسيا فما رأت الدنيا حضارة أشرف ولا أتقى مما صنع هؤلاء الربانيون من رجال محمد..

رباهم بوحي قريب العهد بربه، فاذا الصحراء الغفل تتحول

الى معهد يخرج أعرف الناس بالقيم والشرائع، وأحق الناس بالامانة والسياسة.

كانت القلوب - وهو يقرأ القرآن - تكاد تطير من الروعة والخشوع، وكان الأصحاب يرمقونه وهو يربيهم فما يملأ أحد عينه منه مهابة واعزازاً.

ولقد شعر الرسول الخاتم انه أدى رسالته عندما نظر في مرض الموت - الى المصلين في مسجد، فرآهم مقبلين على الله، خالصين للحق، فاستنار وجهه كأنه صفحة مذهبة.

ذاك كل ما يريد!! ما يبغي الا أن يلقى الله بهذا الثمر الحي لجهاده الدءوب.

ترى هل تعود المساجد يوما مصانع للرجال كما كانت قديما؟ ان الأماكن متشابهة ولكن السكان.. غير ما نهوى...

كأن مجنون ليلى كان يصف مشاعرنا عندما قال:

أمـــا الخيـــام فانهـــا كخيامهم
وأرى نساء الحي غـــــير نسائهـــا

أرق الدعوات بعد الطعام والشراب

والمرسلون بشر لا بد لهم من تغذية رتيبة، ودعك من تساؤل المشركين:

«ما لهـذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق»؟ انه

تساؤل غبي فالأكل لا يستغني عنه جسد، والا فكيف يحيا؟

المهم أن نعرف ماذا يأكل؟ وكيف؟

ان الذين يعيشون لغرض ضخم يطوون رغباتهم المادية طيا في سبيل ما يبتغون، وتنشأ لديهم مآرب أخرى قد تذهلهم عن أشهى المتاع.

اننا في عصر تظله حضارة مادية بادية اللهفة على اللـذات العاجلـة، وقد يقبل الشرفاء فيها أن يقوموا بتضحية ما لقاء أمر عظيم، بيد أنهم لا يرون ذلك الغاية التي يسعون لها.

أما محمد والجيل الذي استمع اليه فنسق آخر من الفكر العالي.

واسمع الى هذا الخبر. رأى النبي عمر بن الخطاب وعليه ثوب بدا وكأنه جميل، فقال له: أجديد هذا أم غسيل؟ فقال: بل غسيل، فقال له الرسول داعيا: «البس جديداً، وعش حميدا، ومت شهيدا».

القتل في سبيل الله أحد شارات السعادة التي طلبت لعمر مع العيش الحميد والثوب الجديد..

هكـذا اختلطـت لـذات الدنيا والآخرة في وعيهم

وأملهم، افترى أولئك الرجال يعيشون لاقامة المآدب الدسمة؟

اننا لا نحقر طلب الطعام، فتلك طبيعة البشر كما أَبَنّا، ومن حق الناس أن ينعموا بضرورات مكفولة ومرفهات كذلك لطيفة، على أن ذلك لا يعني الشره، وإلف التنعم، والجزع من تحمل متاعب الجهاد والحصار.

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم ذا قدرة مستغربة على العيش الغليظ، والمقادير التافهة من الأغذية، ولم يؤثر عنه اكتراث بأطايب الطعام وغاليه، ومع ذلك فما أمر بشظف ولا حث على زهد، ولا حرم حلالا...!

وكان حفيا بنعمة الله يعظمها ويشكرها ويغالي بها، ويقول: «اذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى في أوله، فاذا نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: باسم الله أوله وآخره».

وكان اذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين» ويقول: «ان الله تعالى ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»

ان هناك أناسا يملأون أجوافهم بالطعام والشراب، ثم يمضون لشأنهم ما يدرون أن لله عليه حقا، انهم كأي دابة دست فمها في مزودها حتى شبعت.. وحسب..!!

هذا السلوك الحقير لا يليق بمؤمن. وقد كان امام النبيين - كدأبه أبداً - يفتن في حمد الله بعد الطعام - فمما روي عنه قوله: اللهم أطعمت وسقيت، وأغنيت، وأقنيت، وهديت، وأحييت، فلك الحمد على ما أعطيت.

وقوله «الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة»

وفي رواية كان رسول الله اذا أكل أو شرب - قال: «الحمد لله الذي أطعم وسقى، وسوغه وجعل له مخرجا».

أو «الحمد لله الذي من علينا، وهدانا، والذي أشبعنا وأروانا، وكل الاحسان آتانا».

ان هذه البشاشة في استقبال النعمة، وشكر مسديها الأعلى، لها دلالة يجب ابرازها، فقد كان النبي الخاتم انسانا بعيدا عن العلل والآفات بل كان جلدا يهزم المصارعين، وفارس معارك يهرع للقاء المغيرين.

والبسطة في الجسد حين تسد كل ثغرة، وتلبي كل واجب تعد خيرا عظيما.

وصاحب العافية يطل على الدنيا من أرحب آفاقها، ومن حقه أن يتزود من الطعام بما يعين عليها.. ولم يحرم الله مأكلا يمد الجسد بالطاقة أو يبني ما تهدم من الخلايا في كدح الحياة الطويل.

ومن زعم ذلك فهو يفتري على دين الله، انما كره الاسلام السرف المتلف، والتشبع المورث للبطنة والبدانة وسائر الأمراض.

ولا يختلف الدين والطب في هذه الأمور، وقد حسب النبي عليه الصلاة والسلام عدد المشركين في بدر بين ألف وتسع مائة عندما علم أنهم يذبحون يوما تسعا، ويوما عشرا من الابل.

وعندما يطعم مائة من الرجال جملا فان نصيب كل واحد من اللحم يكفيه ويغنيه.

على أن النبي صلى الله عليه وسلم في أحيان كثيرة كان يكتفي بلقيمات، وتمرات، وعندما لم يكن في البيت الا الخل، قال: نعم الأدم الخل، وهذه هي الرجولة المرضية القوية التي لا تستذلها أزمة عارضة، ولا تفقد تماسكها عندما تفقد بعض ما ألفت من زاد أو متاع.

والبشر أجمعون لا بد لهم من نفض فضلاتهم بعيدا عن العيون، وقد شرع الاسلام تعاليم من الانقاء والتطهر تليق بما ينبغي للبشر من وضاءة وجمال ومرءة.

وقد كان النبي اذا خرج من الخلاء يقول: غفرانك. الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني.

ومن ألطف وأجمل ما روى عنه في ذلك «الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه»

والضمير في الجمل الثلاث يعود الى الطعام.

لكأن هذه الكلمات وضعها نفر من علماء الطب والاخلاق والبلاغة.. فانها ذكرت فضل الله فيما يسر من طعام شهي، وفيما ادخره البدن من أسباب حياته ونمائه.. ثم فيما استبعده هذا البدن من نفايات تضر ولا تسر..

أرأيت أجمل من هذا الحمد، وأرق من هذا السرد؟ ان النبي الانسان دائم الاستحضار لآلاء الله، مسارع الى شكرها ما استطاع.

مجالس النبوة:

قد يحتاج المرء الى العزلة كي يحتفظ بقلبه مشرقا وفكره ثاقبا، وعلماء النفس يقولون ان مستوى التفكير

العالي يهبط عندما يخالط الانسان الجموع.

وهذا صحيح بالنسبة الى عظماء البشر العاديين، أما رسل الله فانهم يرتفعون بالجماهير ولا تهبط بهم الجماهير.

وقد كان من الأصحاب من يشكو أن يقظته العقلية في مجلس الرسول تخبو عندما يعود الى بيته.

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام لفرط شهوده وقوة علاقته بربه يحول الأرض سماء، والبشر ملائك، فأصحابه من حوله يذكرون الله ويوقرونه، ويتواصون بعبادته، وأداء حقوقه..!!

وكان رسول الله يمقت مجالس الغافلين، ويشمئز من كل تجمع خلا من ذكر الله، وفي ذلك يقول: « ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه، الا قاموا عن مثل جيفة حمار. وكان لهم حسرة »!!

ان المجالس التي ينسى فيها الله، وتنفض عن لغط طويل حول مطالب العيش، وشهوات الخلق هي مجالس نتنة، وماذا فيها يستحق الخلود؟ ما يستحق الخلود الا ما اتصل بالباقي تبارك اسمه...!!

واذا ضم الناس مجلس يخلط بين الدنيا والآخرة

فينبغي أن يستبقى خيره ويستبعد شره بهذا الاستغفار.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا اله الا أنت، استغفرك وأتوب اليك، إلاّ كفر الله له ما كان فى مجلسه ذلك».

وفي حديث آخر «أنه اذا كان في مجلس خير كان كالطابع له، وان كان مجلس تخليط كان كفارة له».

ان الاختلاط بالناس ربما أثار التنافس على الدنيا، ربما أثار حب الظهور، والاستطالة، ربما شغل الأذهان بقضايا تافهة، ربما قطع ما أمر الله به أن يوصل، من أجل ذلك كله جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا.

واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا،

ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ومبلغ علمنا، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا ».

كذلك كان النبي يختم مجالسه، فما ينفض الناس عنه قافلين الى بيوتهم الا وهم يخوضون في الرحمة خوضا.

ليل أبيض:

وينتهي سبح النهار الطويل، وتنقضي الصلوات المكتوبات، ويخلص كل امرىء بنفسه، قافلا الى بيته ليستجم ويستريح، فهل ذلك ما يستقبل به محمد الليل الوافد؟ لو أن الفلاسفة الالّهيين يصنعون في نهارهم بعض ما يصنعه محمد في ليلة لكفاهم، ولحسب لهم كدْحاً حسنا..

ان النبي العابد يبدأ بالليل مرحلة جديدة من مراحل الاقبال على الله!

وما أكثر ما رواه المحدثون عن أذكاره وأدعيته، فعن حذيفة وأبي ذر أن رسول الله كان اذا أوى الى فراشه قال: « باسمك اللهم أحيا وأموت ».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا أوى أحدكم الى فراشه فليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، ان أمسكت نفسي فارحمها وان أرسلتها

فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ».

وهذا الحديث شرح للآية الكريمة « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ».

والمؤمن في تدبره للآية والحديث معا يشعر أن روحه في يد الله، وأنه يستمد محياه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين.

قد يضع جنبه فلا ينهض الا يوم النشور، فان كان ذلك فهو يرجو الرحمة.

وان قام ليبدأ نهارا آخر فهو يرجو أن يحيا في ضمان الله وحفظه.

أترى في ذلك المنهج أثارة من اعتداد وغرور؟؟

وعن البراء بن عازب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي اليك، وفوضت أمري اليك، وألجأت ظهري اليك، رغبة ورهبة اليك، لا ملجأ ولا منجا الا اليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت.. فان مت مت على الفطرة ».

عندما يغمض المرء جفنه ويتهيأ للكرى يترك ارادته

جانبا ويستعد لغيبوبة تطول أو تقصر.

كثيرون يستسلمون للمجهول، أما المؤمن فيسلم نفسه لربه.. يفوض اليه أمره، ويلجىء اليه ظهره..!

انه وحده الحافظ، من غيره يؤمل؟ في دفع ضر، أو جلب خير.

وقد يفكر المرء وهو يستعد لمنامه في مراجعة ما أصابه طول يومه من ربح أو خسارة، وما عرض له من خطأ أو صواب..

والواقع أن الدعوات التي علمنا اياها الرسول الكريم تريح الأعصاب من هذا العناء، وتصل بمشاعر الرغبة والرهبة الى مستقرها في جنب الله، وتجعل المرء قبل هجوعه يؤكد أمرا واحدا يناجي به ربه «آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت»، تلك هي الفطرة التي يستريح المسلم في مهادها الوثير.

وجاء في رواية أخرى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول اذا أوى الى فراشه: «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والانجيل والقرآن.. أعوذ بك

من شر كل ذي شر.. أنت آخذ بناصيته.

أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء.. اقض عنا الدَّين واغننا من الفقر».

وفي رواية أخرى، عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند مضجعه: «اللهم اني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم.. اللهم لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانك اللهم وبحمدك.

وفي رواية أخرى كان يقول: «باسم الله وضعت جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، وأخسىء شيطاني، وفك رهاني، واجعلني في الندى الأعلى».

ونلحظ في هذه الأدعية كلها أن النبي الانسان لهج بتمجيد الله والتحدث عن عظمته.

وقد قال - وهو يتأهب للنوم - كلاما لا يستطيعه غيره مع حدة الانتباه وتألق الذهن، صور به الألوهية في

كمالها المطلق، وغناها الذي يرنو اليه سائر الخلق..

وهو بعد هذا الثناء الحار يستجمع ذل العباد كلهم فيطلب حصنا من الفقر، والدين والاثم، ووساوس الشيطان..

ويطلب المغفرة، والفكاك من كل قيد أرضي يشده الى هذه الدنيا..

لأنه ينشد الانضمام الى النادي الأعلى، الى الرفيق الأعلى، الى من في السماء..!!

انه ما يقي في الأرض، أي ما بقي بين الناس لا يريد أن تشينه آفات الحياة، لا يريد أن يسوءه أحد، ومن ثم فهو يكره الفاقة والرذيلة، ويود من الدنيا ما يرشحه لآخرة رفيعة القدر..

ولا تحسبن أنه - عليه الصلاة والسلام - يأخذه النعاس العميق بعد هذه الضراعات التي ناجى بها ربه، لا.. ما هي الا ساعة ثم يستيقظ ليلبي أمر الله باستئناف التسبيح والتحميد، في جنح الليل كما كان يصنع آناء النهار.

ألم يقل الله له: « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ».

ان قيام الليل فرض عليه وحده.. لينم من ينام، أما هو فقد قيل له: «قم الليل الا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا»..

والمأثور من سيرته الشريفة أنه كان يقوم بالقرآن أوقاتا متطاولة..

وحدث وهو في أخريات الحلقة السادسة من عمره أن قام يصلي - وكان في البيت عبد الله بن عباس وهو شاب في أوائل الصبا - رأى أن يأتم بالرسول العابد. وشرع الرسول يقرأ ويقرأ والشاب القوي يكابد طول القيام ويرقب انتهاء الصلاة.. لكن روح العابد المتبتل قهر الشيخوخة ومضى يختم سورة ويبدأ أخرى.. قال ابن عباس: لقد هممت أن أتركه يصلي وحده، وأنصرف..

لقد تورمت أقدامه من طول الانتصاب الخاشع بين يدي رب العالمين، لكن الفؤاد العامر بالحب أرهق الجسد الزاحف الى الستين فهو لا يحس وخز الألم قدر ما يحس سعادة الاستغراق، وحلاوة العبادة، وكما قيل:

واذا كانت النفوس كبارا

تعبت في مرادها الأجسام

وقد يستيقظ من الليل ويرمي ببصره الى الأفق، ويشعر بأن هذا السكون السائد له ما بعده.

ان الناس سوف يصحون بين باك وضاحك، وحي وهالك، ومهتد وضال، وواجد وفاقد..!!

ان الأقدار تعد لهم مع الغد المنتظر أشياء كثيرة، ترى ما الموقف منها؟.

انه يقول: «سبحان الله ماذا أنزل من الفتن؟ وماذا فتح من الخزائن، أيقظوا صواحب الحجر - يعني نساءه - يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة».

انه يستعد لليوم الجديد قبل أن يجيء بخيره وشره يستعد له بعبادة يحشد لها أهل بيته، ينبغي أن يقمن الليل معه، وأن يتهيأن لليوم الآخر.

انه يوم يقلب الأوضاع المألوفة في عالمنا هذا، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة، ورب صعلوك هنا يكون ملكا هناك.

ان الآخرة هي دار الحق، ولها يجب الاستعداد.

وقد ينام بعد ذلك ولكن القلب المفعم بالتقوى يقظان، فاذا تقلب في فراشه، أو تهيّأ لقيام ليلة قال: اللهم لك الحمد

أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق ولقاؤك حق، والجنة حق والنار حق والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت. أنت الهي لا اله الا أنت».

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب أمته في استقبال الليل بكيان نقي نظيف فيقول: «طهروا هذه الأجساد طهركم الله تعالى فإنه لا يبيت أحد طاهرا الا بات في شعاره ملك يقول: اللهم اغفر له فانه بات طاهرا..»

وطهارة البدن لا تغني عن زكاة الروح، والمرء يعان على ليل طيب اذا دلف الى فراشه، وقلبه مع ربه، وذكره على لسانه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له ولفاطمة رضي الله عنها: «اذا أويتما الى فراشكما، أو اذا أخذتما مضاجعكما فكبرا ثلاثة وثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وفي

رواية التسبيح أربعا وثلاثين » قال علي فما تركته منذ سمعته من رسول الله، قيل له: ولا ليلة صِفِّين؟ قال: ولا ليلة صفين.

لقد بقي على هذا الأدب مع الله ورسوله نيفا وثلاثين سنة حتى ليلة المعركة الرهيبة بينه وبين خصمه.

وكان علي كثير الهموم، بعدت عنه الراحة في هذه الدنيا، فلم يشعر يطعمها الا يوم ذهب الى ربه، وقد علقت عائشة على موته المؤلم بهذا البيت:

فألقت عصاها، واستقر بها النوى

كما قر عينا بالاياب المسافر

لكن الهموم لم تذهله عن ذكر الله قبل كل منام، بل لعله كان يهزمها ويفل حدها بهذا الذكر الموصول..

وفي ترغيب الأمة كلها في طهارة البدن والروح لاستقبال الليل جاء عن أبي امامة رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من أوى الى فراشه طاهرا، وذكر الله عز وجل حتى يدركه النعاس، يتقلب ساعة من الليل يسأل الله عز وجل فيها خيرا من خير الدنيا والآخرة الا أعطاه اياه».

وعن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوى الى فراشه قال: اللهم أمتعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، وانصرني على عدوي، وأرني منه ثأري، اللهم اني أعوذ بك من غلبة الدين، ومن الجوع فانه بئس الضجيع».

في هذا الحديث يرجو الرسول ربه أن يبقيه سليم الحواس طول عمره، وأن يمتعه بسمعه وبصره الى أن يموت، كما يدعوه النجاة من غلبة الديون وسطوة الجوع.

ان هذا النبي الانسان ينشد الحياة القوية العزيزة البعيدة عن متاعب البأساء والضراء، وهذا حق كل انسان صحيح الفطرة، ودعك من كذبة المتدينين الذين يرحبون بالآلام كأنها غاية تقصد لذاتها، أو كأن الدين حرب على السلامة والكرامة..

وفي هذه الكلمات دعوة نريد تفسيرها وتحديد معناها، ونسأل قبل ذلك هل بين الرسول وبين أحد من الناس عداوة شخصية؟ كلا، فقد كان أسمح الناس بحقه الخاص، وما كان يهيجه الا أن تستباح حقوق الله، فينتصب حينئذ للدفاع عنها كأنه أسد غضوب..

وهو عندما يسأل الله أن ينصره على عدوه فإنما يشرح

بهذا السؤال قوله تعالى: « واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ».

ان الكافرين يتركون في أفئدة المؤمنين جراحا دامية، خصوصا المؤمنين الضعاف الذين اجتاحهم جبروت القوة فمزق شملهم، وأذل جانبهم، وضيق عليهم الدنيا الواسعة فهي في أعينهم كسم الخياط..!!

من حق هؤلاء المؤمنين المقهورين أن يروا ثأرهم من عدوهم، وأن يروا كبرياء الكفر ممرغة في التراب...!

وذاك سر الأمر بقتالهم الى أن تذهب دولتهم « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم ».

ان للفطرة الانسانية معالم ثابتة لا يسوغ محوها ولا جهلها.

وهناك تدين مخبول، يؤخر العقل، ويجور على الطباع السليمة، ويتجاوز منطقها، وهذا التدين يرفضه الاسلام..

ولعل من احترام الفطرة وتلبية أشواقها ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله – منذ صحبته حتى فارق الدنيا – ينام حتى يتعوذ من الجبن والكسل، والسآمة، والبخل، وسوء الكبر، وسوء المنظر في

الأهل والمال، وعذاب القبر، ومن الشيطان وشركه».

وينام الرسول في هذا الليل الحي بالطهر والذكر، وما هي الا ساعة حتى يصحو لصلاة الفجر، ويستعد لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى.

يستقبلها بهذا الدعاء «أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا اله الا هو واليه النشور»..

في خضم الحياة:

محمد - عليه الصلاة والسلام - يعرف الله، ويعرّف الناس به، يذكره ويشكره، ويحدو قوافل الذاكرين والشاكرين، فيلهب حماسهم اذا فتروا، ويقيمهم على النهج اذا انحرفوا.

بل لقد أنشأهم انشاء من جاهلية طامسة، فعلموا من ربهم؟ وكيف يحيون له على ظهر الأرض؛ وبم يعودون اليه يوم تفتح لهم أبواب السماء.

وليست العلاقة بالله ساعة مناجاة في الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها في أرجاء الدنيا يفعل ما يريد. كلا، هذا تدين مغشوش.

الدين الحق أن يرقب المرء ربه حيثما كان، وأن يقيد

مسالكه بأوامره ونواهيه، وأن يشعر بضعفه البشري فيستعين بربه في كل ما يعتريه.

وقد كانت سيرة الرسول نسقا واضحا في عمق الصلة بالله وشمولها، فما يمكن أن يغفل عن الله في فعل أو ترك..

ومن هنا وجدنا دعواته تتناول شئون الحياة المختلفة، ولهجه بذكر الله يخالط كل ما يضع فيه يده.

كانت العاطفة المشبوبة تجعله يتعرض للمطر أول ما ينزل، يقول: هذا مطر حديث عهد بربه.

وكان الناس اذا رأوا أول الثمر جاءوا به اليه، فاذا أخذه الرسول قال: « اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا » ثم يعطيه أصغر الحاضرين من الولدان..

وكان اذا عصفت الريح قال: « اللهم اني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به ».

بهذا الشعور الغامر المستوعب يلقى كل شيء، ويواجه بتعاليم السماء كما أنزلت اليه.

فلننظر في جنبات المجتمع الانساني لنرى كيف يبنيه محمد باسم الله وعلى بركته.

بناء البيت المسلم..

قد تكون الغريزة الجنسية باب شر كبير عندما تستبد بها النزوات العارضة والشهوات الثائرة، وعندما تتعدى حدود الله وحقوق الناس، عندئذ تعرض صاحبها للعار والنار..!

وكل الغرائز التي لا تقفها حدود الشرع والأدب لا بد منتهية بأصحابها الى بلاء غليظ، وقد قال شاعر عربي:

اذا أنت لم تترك طعاما تحبه
ولا مجلسا تدعي اليه الولائد
تجللت عارا لا يزال يشبه
سباب الرجال نثرهم والقصائد

ولم يخلق الله الغرائز للسطو والختل، ولا خلقها ليتعبد بعض الناس بقتلها والفراغ منها..

وقد جعل الله للغريزة الجنسية متنفسا سمحا هو الزواج،وأسال منها نبع الود والرحمة الذي يلطف جو البيت.

وأهاب بالصالحين من عباده أن يقدروا هذه السعادة، ويمرحوا في بحبوحتها، ولا يمدوا أعينهم الى ما وراءها، وأن

يوجهوا همهم بعد الزواج الى تربية الأولاد وكفالة حاضرهم ومستقبلهم، وتكوين جيل صالح مهذب منهم. قال تعالى: «والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين وأجعلنا للمتقين اماما ».

والمسلم الحق يهمه مسلك بنيه نحو ربهم واخوانهم، وليست وظيفته أن يرجم المجتمع بأولاد، حبلهم على غاربهم.

وتدبر دعوة ابراهيم: «رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ».

ان الظفر بأولاد يقومون بحقوق الله ربح عظيم، ومن عظمة الايمان في قلب الخليل أن تكون أمنيته ذرية صالحة.

ان غيره يطلب لذريته الغنى أو الرياسة أو ما شاء من متاع الحياة الدنيا.

أما ما وراء ذلك فلا اكتراث به.. لكن أنبياء الله لهم شأن أعلى، انهم مهمومون بأمر العقيدة «أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ».

ويبدأ بناء البيت المسلم باختيار الزوجة الصالحة. وليستعن بالله في ذلك.

وجاء أنه في أول لقاء بينه وبين عروسه يستحب أن يسمي الله تعالى ويأخذ بناصيتها ويقول: بارك الله لكل واحد منا في صاحبه ثم يدعو الله قائلا: «اللهم اني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه. وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه».

وما منا أحد الا وفي طباعه هنات تتطلب الستر والغفران.

ومن زعم أنه رزق الكمال في شمائله جميعا، ومن زعمت أنها تمت فلا يعيبها ظاهر ولا باطن، فكلاهما موغل في الوهم.

ولو كان الزوجان صديقين فلا بد لدوام الود من غض الطرف وسؤال الله الحفظ.

ومن ميزات الاسلام أنه يجعل المطالب الطبيعية للانسان محفوفة بذكر الله، فهو يطعم من جوع ويروي من عطش باسم الله.

وهو يمس امرأته كذلك قارنا رغبته باسم ربه، قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: «لو أن أحدكم اذا أتى أهله قال: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يضره شيطان أبدا».

والمرأة تتعرض بداهة للولادة، وهكذا متع الدنيا يعقبها ما يشوبها..

الأب يتعرض للكدح على أولاده، والأم تتعرض لآلام الحمل والوضع والرضاع وكثيرا ما تتعسر الولادة وتتحمل الأم عناء بالغا.

ومن الخير التوجه الى الله بما يرفع الكرب، ويزيل الضر مثل: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني الى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا اله الا أنت».

ومثل «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»

و «لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين».

وكم لرسول الله من دعوات حافلة بحب الله، وانتظار فرجه...!!!

والعلاقة بين الذكورة والانوثة تحتاج الى فضل بيان، فان النصرانية ترى من حقيقة التقوى حسم هذه العلاقة وتطلب من الصالحين والصالحات أن يصموا آذانهم عن نداء الغريزة المكظومة.

وقد قام نظام الرهبانية على هذا الأساس، ولا يزال..

وعندما نتأمل في هذه القضية نرى أن البعض ضعيف الغريزة فلا يبالي بالحرمان، وأن البعض الآخر شديد النزوع، فهو اما يتخذ وسائل خفية لاشباع نهمته، أو يشتبك في حرب قاسية مع نفسه لا يخرج منها سليم الأعصاب رضي الحكم على الأمور..

والحكم بأن المرء بلغ حقيقة التقوى في هذه الحالات كلها مرفوض..

أما الاسلام فقد أباح الزواج، ويسره، وجعله من القربات الى الله.

وعندما يطمئن الى الضمانات الخلقية عند الرجل يبيح له التعدد..وإلا منعه.

والغريب أن العالم الغربي - متأثرا بالنصرانية - أثار دخانا كثيفا حول تعاليم الاسلام، وأطلق عليها ألسنة الشغب من كل ناحية.

والأغرب أن هذا العالم الغربي بنى علاقاته الجنسية على فوضى رهيبة، فالأولاد الذين يولدون على فراش المعصية تتفاحش نسبتهم حتى كادوا في بعض الأقطار يقاربون نسبة الأولاد العاديين.

وبالنسبة الى التعدد، فان تنقل الرجل بين لفيف من النساء أمر مفهوم، وقد ذكرت امرأة كندي - رئيس أمريكا الأسبق - أنه كان لزوجها بين ٢٠٠ و٣٠٠ صديقة.

والصعاليك في العالم الغربي لا الملوك يستطيعون السطو على مئات الأعراض.

والذي يستحق الدهشة أن يدور الرجل بين جيش من العشيقات دون حرج، فاذا دار بين بضع زوجات داخل سياج من الأخلاق المحكمة وضع في قفص الاتهام..

لقد ارتفع نبي الاسلام بمعنى الزواج ارتفاعا يستحق التنويه، فهو ليس سطوة رجل قوي على أنثى ضعيفة انه عقد حر، بدأ وتم باذن الله وفي ضمانه، وعندما خطب رسول الله الناس في حجة الوداع قال: «اتقوا الله في النساء فانكم أخذتموهن بأمانات الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

ولهذا العقد طبيعة مادية وروحية، أرضية وسماوية، والبيت القائم عليه عامر بالسكينة والمودة والتراحم..

ولهذا العقد كذلك طبيعة اجتماعية تتيح للنماء البشري أن يمتد فيه زاكيا مهديا..

وقد سمى القرآن هذه الطبائع العتيدة « حدود الله » لأن الله يريد من أركان البيت أن تكون أركانا للبر والتقوى، والتعاون المشترك على أعباء الحياة كلها،

ونحن نثبت خطبة يبدأ بها الزواج، ثم نعقب بذكر دعاء يلازمه عند بدو آثاره، واطراد سيره مع الزمن، ليعلم الناس أن الزواج في دين الله ليس تلاقيا حيوانيا، ولا يفهمه كذلك الا قطعان الرعاع..

قال العلماء: يستحب أن يخطب بين عقد الزواج خطبة رقيقة مناسبة، وأفضل ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: علمنا رسول الله خطبة الحاجة، « الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة.

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فانه لا يضر الا نفسه ولا يضر الله شيئا..

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله

الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا ».

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ».

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ».

ثم - بعدهذا الخطاب - يعقد الزواج مذكرا الزوج بتقوى الله، واحسان العشرة، واقامة حدود الله.

والمتدبر في الآيات المختارة يرى أنها تمهد لذلك، وتوجه لتأسيس أسرة يقوى بها الاسلام وتدعم بها الأمة، فالزواج عقد خطير الآثار.

وتمضي السنون، ويتحول الزوجان الى والدين، ويضحى كل منهما معلق القلب بنشىء وافد يعده امتداد حياته، وتنمو الأسرة فتصير أربعا وثمانيا وعشرا.

وحين يمتد الزمن بالأبوين يكبر الصغار ويسيرون في ذات الطريق الذي سلكه من قبلهما، ترى ما مسلك هذه الأجيال الجديدة بالنسبة الى من مضى؟

يقول عز وجل: « ووصينا الانسان بوالديه احسانا

حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا، حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه، واصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين».

ان الجيل الحاضر يحيي الخالق الأعلى، ويذكر آلاءه على الجيل الماضي، ويستنزل فضله على الجيل اللاحق، تلك هي وظيفة البيت المؤمن، ربط الناس بربهم وحراسة تقاليد العبادة والشرف التي وضعها لهم.

فلا عجب اذا كانت حملة العرش تدعو لأهل هذه البيوت المحافظة «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم».

وسنرى أن البيت الأول في الجماعة الاسلامية، أعني بيت النبي صلى الله عليه وسلم ومن فيه من أمهات المؤمنين كان الاسوة الحسنة في طلب الآخرة، وصدق الاقبال على الله.

كان البيت النبوي بيت ترفع على الرفاهة والترف، وادمان للذكر والتلاوة، وقيام لليل يملأ آناءه بالتهجد والثناء على الله.

والحق أن الأسرة الاسلامية أعلى عناصر التربية والتوجيه، والحفاظ عليها ضمان للاستقامة، وسناء الخلق، وسلامة الوجهة..

وسنرى بعد قليل كيف كان البيت النبوي منارة اليقين والتقوى في حياة الأمة الاسلامية كلها...!!

معركة الخبز:

يخرج المسلم من بيته ليباشر العمل الذي يؤديه، ان كان موظفا فالى مكتبه، وان كان عاملا فالى مصنعه، وان كان تاجرا فالى دكانه، وان كان فلاحا فالى حقله.

والناس يغدون الى أعمالهم وشئون الرزق مستولية على أعصابهم مستحوذة على أفكارهم، انهم يريدون الكثير لأنفسهم وأهليهم، المقل يريد سعة، والموسع يريد مزيدا، ومآرب الحياة لا تقف عند حد، والقوى المبذولة وراءها تستنفد الطاقة.

ترى كم تستهلكه هذه الساحة من جهود البشر؟ كأن

صاحب الرسالة الخاتمة كان يستحضر هذه المشاعر، وهو يناجي ربه عندما يخرج من بيته يقول: «باسم الله، توكلت على الله، اللهم اني أعوذ بك من أن أَزلَّ أَوْ أُزَل، أَوْ أَضِل أَوْ أُضَلّ، أَوْ أَظلم أَوْ أُظْلم أَوْ أَجْهَل أَوْ يُجْهل علي...»

انه لا يريد غلبا على أحد، انه يريد النجاة من الزلل يقع فيه أو يوقع أحدا فيه، إنه يبغي الهدى لنفسه ولغيره، أنه يستعيذ بالله أن يجهل على أحد أو يجهل عليه طاغ مفتون، انه يكره الظلم في صوره كلها..!!!

بذلك يدعو ربه، ويستمد منه العون، وقد طلب الرسول من كل مسلم عندما يغدو من بيته لما يهمه من شأنه أن يوثق رباطه بربه، فعن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال - يعني اذا خرج من بيته - بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة الا بالله، يقال له: هديت، وكفيت ووقيت..»

ان مخالطة الناس تعرض المرء لمشكلات جمة، وقد يتولد من الاحتكاك شر حارق.

واليقظة العقلية مهما كانت حادة لا تغني عن حماية الله، وهو سبحانه يقي من اعتمد عليه ولاذ به.

بل ينبغي للمسلم أن يتهم قواه الذاتية، وأن يرمق باستعطاف العون الأعلى، قائلا .. كما علمه نبيه : « اللهم لا سهل الا ما جعلته سهلا، وأنت اذا شئت تجعل الحزن - الصعب - سهلا ».

وعندما تضطرب أحوال العيش، وتبرز صعوبات مقلقة، يزداد تشبثه بربه، فعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: « ما يمنع أحدكم، اذ عسر عليه أمر معيشته، أن يقول - اذا خرج من بيته -

« بسم الله على نفسي ومالي وديني، اللهم رضني بقضائك، وبارك فيما قدر لي، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت »..

سبحان الله، أي علم بالنفس البشرية ومتاعبها كان عند هذا الرسول؟ وأي خزائن ملأى باليقين كان يمنح منها هذا وذاك ليستبقي العلاقة بالله ثابتة هادئة؟

عن البراء بن عازب أتى رسول الله رجل يشكو اليه الوحشة.. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكثر من أن تقول: « سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح، جللت السموات والأرض بالعزة والجبروت « فقالها الرجل فذهبت عنه الوحشة ».

هذا رجل من أولى الحساسية الذين يجنحون الى العزلة، ويتطيرون من الخلائق، لعله من النوع الذي يقول:

وان امرأً يمسي ويصبح سالما
من الناس- الا ما جنى- لسعيد

لكن الحياة لا تتطامن لهؤلاء وترضيهم، فهم منها على وجل، وما تنقضي حاجتهم اليها، وقد ذهب يشكو الى الرسول هذا الاستيحاش المعنت، فنصحه بذلك الدعاء، الذي يدفعه دفعا الى الأنس بالله.

على أن النبي عليه الصلاة والسلام يكره تحول الوحشة الى عجز، أو أن يكون ذكر الله ستارا لهزيمة نفسية لا تليق، عن عوف بن مالك، قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل.. فقال رسول الله: ان الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس - بالعقل والعزم والمثابرة - فاذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل».

ان البصر الثاقب لم تفته حالة الرجل المحكوم عليه، لقد ملكه الفشل فولى يستر ضعفه واستسلامه بهذه الكلمة: حسبي الله ونعم الوكيل، انها هنا كلمة حق أريد بها باطل.

عندما قال هذه الكلمة الذين هزموا بالأمس في أحد ثم أصبحوا يتحاملون على جراحهم، ويحشدون آخر ما لديهم من وسع ليثأروا من مشركي مكة لم يضعفوا، نعم لما قيل لهم: ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل».. قالوها ليبارك الله في عزمهم وبذلهم واستئنافهم لجهاد المبطلين..

للكلمة هنا معناها المحبوب المقبول..

وما يجوز أن تقال الكلمة تسليما بالأمر الواقع، وتقاعسا عن تغييره، وانتظارا من السماء أن تدافع عمن لا يدافع عن نفسه.

لا بد لضمان السماء من سعي، لا بد للأمل من عمل.. من أجل ذلك قال عمر: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ثم يقول: اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة..

على أن الحياة المعاصرة لا تشكو من متوكلين لا يعملون، وانما تشكو من عاملين لا يتوكلون، فان الصبغة المادية سادت القارات المعمورة.

والناس يغدون من بيوتهم وهم متلهفون على صيد ثمين

يقضون عليه.. واذا أمكنتهم الفرص من مأرب سال لعابهم لآخره، انهم يأكلون ولا يشبعون، ويشربون ولا يرتوون..

وفي هذه الحمى لا تعلق للقلب الا بالمزيد من الحطام..

فاذا حدث أن استعصى رجل على هذا المنحدر، وتراجعت الى فؤاده خصائصه العليا، واستبان وجه ربه وسط ركام من ضباب الاهواء، فذكر اسمه، ووحيه، وتشبث بآياته وتوجيهاته، فأي ثواب يكون له؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دخل السوق فقال: لا اله الا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة.»

ان هذا الأجر الجزل ليس لألفاظ تمرق من الشفاه، انها لحال من الثقة في الوجود الأعلى، والفضل الأعلى، تجعل الرجل يركن الى من بيده الخير، فلا يحتال ولا يغتال..

وقد أكد الأئمة ان هذه الأجور الكبيرة لا توضع بازاء الأعمال الصغيرة، ولا الهمم الصغيرة..!!

وفي ميدان الارتزاق والكدح للنفس والولدان، قد

يختلط الطيب والخبيث والنقي والمغشوش، والمسلم يعلم أنه لا يدخل الجنة لحم نبت على سُحْتٍ، وان الله طيب لا يقبل الا طيبا ،ومن ثم وجب على المؤمن أن يتحرى، وقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك».

اللهم اني أسألك علما نافعا، ورزقا طيبا، وعملا متقبلا»

وفي زحام الدنيا ربما تعرض المرء لما يسؤوه، وربما استنفره السفهاء ليجهل عليهم، أو ليثأر لنفسه منهم، وخير له اذا خرج من بيته أن يضمر التجاوز والسماحة. روى أنس بن مالك أن رسول الله قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ قالوا: ومن أبو ضمضم يا رسول الله؟ قال: كان اذا أصبح قال: اللهم اني قد وهبت نفسي وعرضي لك، فلا يشتم من شتمه، ولا يظلم من ظلمه، ولا يضرب من ضربه»!!

• وزحام الدنيا غاص بالمثيرات النفسية والاجتماعية، والاقبال عليها ناشب بأعماق النفس، والأمر يحتاج الى أن نشرح موقف الأنبياء منها، تمهيدا لايضاح موقف النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام.

الأنبياء بشر أمثالنا، ومناصبهم العالية لا تسقط عنهم مشاق التكاليف ولا تريحهم من أعباء الواجبات المفروضة، بل الصحيح أنهم أشد بلاء، وأكثر عناء، وذاك معنى قول العلماء: العصمة لا تمنع المحنة، أي لا تمنع الاختبار وضروب التمحيص.

كان يوسف بشراً يضيق بالسجن ويتشوق للحرية، يوم قال للسجين الذي يتوقع الافراج عنه: اذكرني عند ربك.. ولم لا يذكره وهو بريء مظلوم؟ وهذا السجين الخارج يعرف عن يوسف أنه من الصالحين المحسنين.. فليحدث عنه الملك الذي سيعمل معه..

وشاء الله أن ينسى السجين الخارج، وأن يبقي يوسف بضع سنين..

حتى جاء اليوم المقدور، وأرسل الملك الى يوسف يستقدمه. ولكن يوسف كان قد بلغ حدا من الاكتمال والتأبي جعله يتريث في الاستجابة ويقول: أولا اعرفوا موقفي من القضية التي اتهمت فيها..!!

ثم خرج يوسف ليتولى شئون المال في مصر..

وكان موسى بشرا يحس لذع الغربة في أرض مدين.. فلما

سقى للفتاتين أوى الى الظل وناجى ربه: رب اني لما أنزلت إليَّ من خير فقير.

وجاءه الغوث اذ وجد المأمن المنشود، عند سيد مدين الذي قال له: «نجوت من القوم الظالمين» ثم تزوج ابنته، وعاش في صحبته، وتهيأ للرسالة الضخمة.

وكان لوط بشرا عندما داخله الحرج الشديد، لما رأى المجرمين من قومه ينظرون بخسة وشره الى وفد الملائكة عنده.

لقد تمنى لو كان ذا عصبية يؤدب بها السفلة، حتى طمأنته الملائكة أن مصير القوم يقترب..

«ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر، فذوقوا عذابي ونذر»

ان تعليق النبي الخاتم على بعض ما سقنا من قصص ينبيء عن جانب من أخلاقه.

يقول عن لوط: «رحم الله لوطا، كان يأوي الى ركن شديد».. يعني أن الله ما كان ليتركه، وما كان له أن يأسى على عصبية مفقودة..

والواقع ان احساس محمد بالله وتأييده، لا نظير له، ولقد

سمي « المتوكل » لهذه الخلة البارزة.

ان هذا الاعتماد الفذ على الله هو الذي أمده بالقوة على نشر عقيدته، وتبليغ رسالته في عالم كل شبر منه يتنكر له، وأول من صرخ في وجهه يتهدده عمه أبو لهب.. ما كانت توجد ذرة من أمل في نجاح هذه الدعوة لولا أن صاحبها استند الى الله، ومضى الى غايته لا يثنيه شيء..

وتعليقه على كلمة لوط الذي يوحي بالقوة والثقة غير تعليقه على كلمة يوسف الذي يوحي بالتواضع وهضم النفس انه يقول: لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي..

أي لاستعجلت الفرج، وتركت السجن، غير منتظر سؤال النسوة وجوابهن المعروف.

انه هنا - مع تواضعه البادي - يقرر الطبيعة الانسانية في التلهف على الحرية، وكره عالم السدود والقيود..

والذي نخلص منه بعد هذا التقديم أن الأنبياء تهزهم المشاعر الفطرية التي تهز جمهرة البشر، وأنهم عندما يقدمون في مواطن الوغى لا يأخذون أمانا من الموت، وعندما يبذلون المال لا يأخذون ضمانا من الفقر.

ان أخلاقهم العليا تكلفهم كل مغارم العظمة التي يدفعها الآخرون.

ويبقى بعد ذلك تفرد المرسلين بأن أوجهم الذي يعيشون فيه لا يسمح لهم أبدا بالتدلي، فهم أزكى مكانا وأسنى منالا.

ونتساءل بعدئذ عن علاقة محمد صلى الله عليه وسلم بالدنيا؟ أكان يحبها أم كان يعافها؟

ونجيب: انه كان يعرف الدنيا معرفة الخبير، ويتذوقها تذوق المعافى السليم، بيد أنه كان مشغولا عنها بما هو أعظم وأشرف.

ان المجد الالهي استغرقه، فجعل في الصلاة قرة عينه، وفي الصيام مسرح روحه، وفيما عند الله شغلا عن كل جاه يسعى اليه طلاب الجاه..

وقد فرض هذا النمط من الحياة على زوجاته، وأفهمهن أن طالبات الدنيا لا مكان لهن عنده «ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا».

ولكنهن شغلن بما عناه، واجتهدن أن يرتفعن الى

مستواه، من الذكر والعبادة وطول الاقبال على الله «عن جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي خرج من عندها بكرة، حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة فيه.

فقال: ما زلت اليوم على الحالة التي فارقتك عليها - من اعتكاف وتعبد؟ قالت: نعم..

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته».

وعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا اله الا الله، والله أكبر، أحب الي مما طلعت عليه الشمس».

ان سعادته وهو يردد هذه الكلمات، ويستجلي معانيها، أشهى لديه من امتلاك كل ما أضاءه النهار في دنيا الناس..

وهب أنه ملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ما عساه يفعل بها؟ لقد قال: انه لو كان لديه مثل جبل أحد ذهبا ما مرت عليه ثلاث ليال وعنده شيء منه.. كان سيفرقه في حاجات الفقراء، ولو بقي شيء لرصده لعوارض

المسغبة والبأساء التي تطرأ على الناس..

ولقد كان يملك الوادي من الشاء والنعم فلا تغيب الشمس الا وهو في أيدي العفاة..

ان حبه لشيء كان آخر ،لله ، لكتابه ، لمناجاته ، لمرضاته..

واسمع اليه يشرح مشاعره نحو القرآن العظيم « اللهم أنا عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمَتك ، وفي قبضتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمتك ، عدل في قضاؤك ؛ أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في مكنون الغيب عندك ، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي ، وضياء بصري ، وذهاب حزني ، وجلاء همي وغمي ».

ان الوحي أساسه فكيف لا يكون أنيسه الدائم؟ كان في سفره يقطع المفاوز وهو به يصلي ، وفي اقامته كان وعيه نسيجا من معانيه.

وجاء أنه طلب من الصحابى الكبير عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن..! فقال ابن مسعود أأقْرأُ عليك وعليك أنزل؟

فقال صلى الله عليه وسلم:

اني أحب أن أسمعه من غيري.. ويقرأ عبد الله من أول

سورة النساء حتى يصل الى قوله سبحانه: « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا »؟ والتفت الى الرسول صلى الله عليه وسلم فاذا عيناه تذرفان.. قال له حسبك..

ويواصل الصيام، فلا يفطر مع الغروب، ويحاول بعض صحبه أن يقلده ،فيقول لهم الرسول مانعا: « انكم لستم كهيئتي اني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني ».

ان تبتله الى الله أحدث تغييرا عضويا في كيانه البشري، وجعله يتقلل تقللا خطيرا من الطعام والشراب لأنه يحيا في ملكوت آخر..

ومع هذا البعد الروحاني الساحق فقد كان يعيش بين الناس خبيرا بطباعهم، شاعرا بقضاياهم، يبت فيها باسم الله، فما ينحرف قيد أنملة عن الصراط المستقيم..

هل يمكن أن يكون موقفنا نحن من الدنيا على هذا الغرار؟ لا، ما نستطيع ولا كلفنا..

ان بعض الفقراء والزهاد والمتصوفة حاول أن يخاصِم الدنيا، ويعيش على هامشها، وأن يتشبه برسل الله في سيرتهم المترفعة وهيهات..

ان حمرة الخجل لا تصنعها بعض المساحيق المجلوبة،

والأزهار الصناعية قد يكون بها شبه من الأزهار الطبيعية، بل لعلها أبقى على الأيام.. لكن أين عصارة الحياة، ونعومة الملمس، ونفح الرائحة الذاتية؟

ربما نام ناس على الحصير فانطبعت عيدانه في جلودهم.. هل يمنحهم ذلك شبها بالرسول الذي رمق الدنيا بنظرة غائبة لأن فؤاده حاضر مع ربه، يقظان في حضرته، مستغرق في شهوده؟ ان الرجل لا يكون قائدا لأنه عثر على بدلة قائد فلبسها..

ان لجمهور الناس موقفا من الدنيا شرحه الرسول لهم، نحب أن يعرفوه، وحسبهم شرفا أن يلتزموه..

كان لقارون دنيا عريضة وثراء يشد اليه العيون، وكان عشاق الحياة ينظرون اليه ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون..

ولم يطلب الله من قارون تطليق هذه الدنيا، لقد طلب اليه أمورا تعد على الأصابع..

من مَوَّلك وكان يمكن أن تحيا صعلوكا؟.

إنه الله؛ إذن انظر الى مالك وقل: ما شاء الله، لا قوة الا بالله.

بيد أن المغرور قال: عبقريتي هي سر غناي... ولو فرضنا جدلا أن هذا القول صحيح فمن الذي منحك الذكاء والمضاء؟

انه الله، ولكن الغافل لا يحس..

ان الله عندما يعطي يطلب الاعتراف بعطائه فهل هذا تكليف صعب؟

وهو يطلب من آخذ فضله أن يرحم ولا يقسو، وأن يعتدل ولا يطغى، وأن يصلح ولا يفسد، وقد قال لقارون «وابتغ فيما آتك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من: الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض».

ولكن المؤسف أن ناسا كثيرين يمنحهم الله الدنيا فيذكرون أنفسهم ولا يكترثون بغيرهم، ويضاعفون متعهم على حساب الجياع، ويعصف بأحلامهم الغرور فينظرون الى الناس من فوق.

وقد حذر الله عباده المؤمنين من هذا الطيش، وقال لهم: «يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا مما رزقناكم

من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول: رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأَصَّدَّقَ وأكن من الصالحين ».

وفي السيرة الشريفة حث موصول على الصدقة، وزجر شديد عن الشح، وقد ثبت أن الفلسفات الكافرة التي أغوت الجماهير ما نبتت ولا نمت الا في بيئات الكزازة والقسوة والأثرة العمياء..

ومع مطلع كل صبح، ومع انطلاق الأحياء في فجاج الأرض يحصلون ويؤثلون يذكر النبي للناس هذه الحقائق. عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما من يوم يصبح فيه العباد الا وملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم اعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكا تلفا ».

وفي حديث قدسي: « عبدي أنفق، انفقْ عليك، يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فانه لم يغض ما في يده... ».

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن النفقة لا تقبل الا اذا كانت من كسب طيب، وأن الله كلف الرسل خاصة، والناس عامة أن يتحروا في معايشهم الحلال وحده، فقال

للأولين: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا». وقال للآخرين: «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون».

ونشا عن هذه التعاليم مجتمع يحنو أغنياؤه على ضعفائه، ويبرءون من عبادة المال، ويرفضون مصادره المريبة..

وكانت سيرة الرسول أمامهم شعاعا هاديا فان الرسول بازاء الدنيا والمال كان يجمع بين منقبتي الغني الشاكر والفقير الصابر..

نعم فقد كان ذا مال «ووجدك عائلا فأغنى»، وكان غناه من تجارته الرابحة في مال زوجه خديجة أيام شبابه. ثم كانت أنصبته من الخمس والفيء شيئا طائلا.

لكنه لم يستحوذ على شيء من هذا كله، بل كان يبعثره في حاجات الفقراء، وربما ظل يعطي وظل أهل بيته كذلك حتى يستنفد العطاء كل ما لديهم فيمسون وليس لديهم ما يغني من جوع..

والمعروف في سيرته عليه الصلاة والسلام أنه - وهو في مرض الموت - أهمته ذهبية كانت عنده فما استراح حتى وزعت على الفقراء، وتساءل: كيف يلقى الله وهي عنده؟

والمعروف كذلك أن أملاكه ليست ميراثا لأهله وأقاربه، لقد وزعت هي الأخرى في سبيل الله..

لقد كان يدعو: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا - كفافا -، فلما آثر الرفيق الأعلى، كان قبل أن يصل الى السماء أشبه بسكان السماء، ترفعا عن مطالب الأرض، وزينات الدنيا..

في السفر والعودة:

ما أكثر ما يسافر الناس لشئون مادية وأدبية، وللسفر مشقاته التي بذلت جهود كبيرة لتذليلها.

ومع ذلك فان فراق المرء لبيته وأحبائه، وتعرضه لتخلف عاداته في يقظته ومنامه وشرابه وطعامه، وانطلاقه مع الأقدار الى موعد مجهول، لا يدري بدقة كيف ينتهي؟ ولا ما يتكشف عنه المستقبل..؟ كل ذلك يجعل السفر عملا ذا بال في حياة أي انسان..

وقد سافر النبي عليه الصلاة والسلام مرات في شبابه الباكر، وأيام عمله مع خديجة، وبعد البعثة.

وهو يصف مشاعر المسافر ورغباته بصدق، وينتهز حاجته الى الأنيس والمعين فيصله بربه بأشرف الذكر وألطف الدعاء..

يقول: من أراد أن يسافر فليقل لمن يخلف: استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه..

ويشرح ذلك في حديث آخر: «ان الله اذا استودع شيئا حفظه».

المهم أنك وأنت راحل عن بيتك تذكر أن هناك من لا يغيب عن البيت أبدا اذا غبت أنت عنه، وهو الله، وأنك اذا رجوته الحفاظ على ولدك وأهلك وجعلتهم وديعة لديه، عدت وهما على خير حال..

والسفر غالبا يعري الانسان من أقنعة تحجب طبيعته، ويجرده من أسانيد كانت له ظهيرا ابان اقامته، ومن ثم فانه في فترة ارتحاله يشتد حسه بما يجد وبما يفقد.

وأدعية الرسول صلى الله عليه وسلم تتواءم مع هذه الأحوال تواؤما مثيرا. جاء رجل الى النبي يقول له: اني أريد سفرا، فزودني، فقال: زودك الله التقوى.. قال: زدني. قال: وغفر ذنبك، قال: زدني قال: ويسر لك الخير حيثما كنت»..

وعن أبي هريرة أن رجلا قال: يا رسول الله اني أريد أن أسافر فأوصني.. قال: عليك بتقوى الله والتكبير على كل

شرف - مرتفع - فلما ولى الرجل قال: اللهم اطو له البعد، وهون عليه السفر..

ان السفر الآن غيره في أيام مضت، لقد مهدت الطرق، وجرت عليها المركبات الآلية، وجلس الناس فيها مستريحين تحملهم الأدوات المبدعة على ظهر الأرض ان شاءوا، وفوق السحب ان رغبوا.

وتقاصرت الأزمنة فما كان يتم في شهور بشق الأنفس، أضحى يتم في ساعات بجهود محدودة..

ومع هذه الراحات الميسرة فإن الأخطار المبثوثة في البر والبحر والجو لم تنعدم وإن تك قلت..!

وما بقيت نسبة ما من المخاطر فإن دخول المرء في هذه النسبة جائز جداً، والحديث عما يفجأ المسافرين من عطب وتلف لا ينقطع، ومن هنا فاستغناء الانسان عن حماية الله جنون.

إن حوادث الطرق في العالم أجمع لا تزال أفدح من شتى الأوبئة والحميات السيئة..

والمنايا رصد للفتى حيث سلك..!

كـــل شيء قاتـــل حـــين تلقـــى أجلـك!

وأدب النبوة في الأسفار يوجه إلى الاحتماء بالله، وارتقاب لطفه. كان عبد الله بن عمر يقول للرجل إذا أراد سفراً: أُدن مني أودعك كما كان رسول الله يودعنا، فيقول: استودع الله دينك، وأمانتك، وخواتم عملك..

قال ابن عمر: وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ودع رجلاً أخذه بيده، فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع يد النبي عليه الصلاة والسلام..

إننا بإزاء عاطفة جياشة غامرة فالرسول يستبقي يد المسافر في يده، لا يزهد فيه ولا يتعجله، ويرسلها عندما يشاء المسافر الانطلاق لشأنه، ويدعو الله له بثلاثة أمور، أن يصون دينه، وأن يعينه على النهوض بمسئولياته التي يرتبط بها، وأن يجعل ختام أعماله حسناً، فقد يخطىء أو يعثر، لكنه ينهض ويصلح أمره كله ويتمه على خير..

ما يحتاج المسافر إلى أكثر من ذلك.. اللهم إلا الشعور المتجدد بما يسوق الله من نعم حيناً بعد حين وذاك ما أبانه حديث آخر. قال علي بن ربيعة: شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله. فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله ثم

قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين- مخضعين- وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم قال: الحمد لله- ثلاثاً- ثم قال: الله أكبر ثلاثاً. ثم قال سبحانك اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

ثم ضحك علي بن أبي طالب: فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: إني رأيت النبي فعل مثل ما فعلت ثم ضحك. فقلت يا رسول الله: من أي شيء ضحكت؟ قال: إن ربك سبحانه وتعالى يعجب من عبده، إذا قال رب اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري».

عندما يذنب العبد فهو يرتكب عملاً فيه قبح ودمامة، وهذا العمل بالإضافة إلى الله فيه معصية وجراءة. فهل يليق بالإنسان أن يسيء إلى نفسه وربه على هذا النحو؟

انه يفعل مهزوماً أمام شهوة غالبة أو منساقاً مع فكرة غبية، فحتى متى تصرعه أهواؤه، ويقوده غباؤه؟؟..

إن الله عز وجل ينتظر أَوْبة التائه، وهو يفرح بتوبة عبده، ويقدر الخطوات التي ترده إلى سيده.

حسن أن يعرف العبد غلطه، وأن يحس قباحته، وأن يتراجع خجلان إلى ولي أمره وولي نعمته..

البعض يبقى مكانه تحيط به خطيئته، كجيش انهزم، وحصره عدوه، يريد الإجهاز عليه...!!

وآخرون يصحون قبل فوات الأوان ويجيئون إلى مولاهم يقولون: «ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار».

لقد ذكر الغافل، وآب الشارد، وعلم أن له رباً يؤاخذ ويعفو، ويعاقب ويثيب.

ما كان أنساه وأطغاه.. وها هو ذا قد شعر بعجزه وذله، وشعر بأن الله وحده هو الذي يمسح عاره ويداوي جراحه..ليكن: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون».

إن هؤلاء العائدين أرشد سيرة من مذنبين مصرين، أو مذنبين يلتمسون العفو من أناس مثلهم..

وهنا قد نسأل: لماذا يستفتح السفر بهذا الدعاء؟ الحقيقة أن السفر الطويل يحدث هزة نفسية شديدة، خصوصاً إذا ترك المرء بعضه، وانطلق في فجاج الدنيا لا يعرف متى يعود؟ إن هذه الحال تدنيه من ربه وتقرره بما

أسلف من ذنبه، وتطلق فمه بطلب الرحمة والغفران..

وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر، يقول بعد التكبير: اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى.. اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وسوء المنقلب، وكآبة المنظر في الأهل والمال.

وإذا رجع -من السفر- قالهن، وزاد فيهن: «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون».

وجاء أن الرسول وأصحابه خلال السفر- كانوا إذا علوا الثنايا كبروا، وإذا هبطوا سبحوا.

كأن القافلة المسافرة كلها في صلاة، فهي مع الهبوط في الأدوية تسبح ساجدة، ومع الارتفاع على الربى تهتف مكبرة.

أي حياة هذه تجعل من تمجيد الله شغلها، ومن ذكره والثناء عليه الغناء الذي يريح الأعصاب، ويختصر الزمن..

إن محمداً حول وجه الأرض إلى ساحة من السماء مشحونة بملائكة لا ببشر..!!

كنت في سفر مع ثلّة من الطلاب العرب، وكانت الطائرة التي تحملنا قد شرعت في الهبوط بعاصمة عربية كبيرة وأحسست قلقاً على مستقبل أولئك الشباب بعد نزولهم، قلت: ترى أين يسكنون؟ ومن سيعاشرون؟ ومن من شياطين الانس يتربص الآن بمقدمهم؟

وبينما أنا في هواجسي، إذ سمعت أصوات نفر منهم يناجون الله بالدعاء المأثور في هذه الحالات.. فقلت في نفسي: لن يضيعوا إن شاء الله.

أما هذا الدعاء فقد جاء أن النبي عليه الصلاة والسلام لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، أسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها..

وفي رواية أخرى: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أشرف على أرض يريد دخولها قال: اللهم إني أسألك من

خير هذه، وخير ما جمعت فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما جمعت فيها، اللهم ارزقني حياها، وأعذنا من وباها، وحببنا إلى أهلها، وحبب صالحي أهلها إلينا..

لقد استوعبت هذه الدعوات آمال الغريب النازل ببلد لا يعرفه، وجعلته يتحرك وهو آوٍ إلى ربه، مفوض إليه أمره، مستريح إلى كفالته حيثما توجه...!!

والتوجه إلى الله بطلب الأنس والحماية لم يكن يفارق الرسول في أي محط ينزل به ويستجم قليلاً ثم يستأنف الترحال، والفقر إلى الله صفة ملازمة لكل مؤمن وهو بهذا الوصف يستغنى عن الناس، ويتحصن من متاعبهم، عن خولة بنت حكيم سمعت رسول الله يقول: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك».

وكلمات الله التامات، ما يكمل الله به فضله على خلقه، من خزائن رحمته، فلا يحتاجون بعدها إلى غيره، تدبر قوله تعالى: «وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا» وقوله: «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته» والكلمات المعنية تكوينية لا تكليفية، يأذن الله فيها بجاه وغناه لمن دعاه ورجاه.!!

وعن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض، ربي وربك الله، وأعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك.

أعوذ بك من أسد وأسود- وحش وإنسان- ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد».

الوالد والولد قيل هما ابليس وذريته «أفتتَّخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو»؟ ويجوز الأراذل من أبناء آدم، فأذاهم محذور، والاستعاذة منهم واردة..

والأرض الفضاء- خصوصاً الصحراء- تكثر فيها الهوام الطائرة والزاحفة، ويتقى ما يختبىء فيها وما يبدو عليها..

وعندما يرجع المسافر إلى وطنه وتقر عينه برؤية أحبته ينبغي أن يشكر ربه فيقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وهي كلمة تقال في كل ما يسر.

وينبغي أن يقول له أهل بيته: الحمد لله الذي جمع الشمل بك، أو الحمد لله الذي سلمك..

وجاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل من غزو فلما دخل استقبلته عائشة رضي الله عنها فأخذت بيده، وقالت: الحمد لله الذي نصرك وأعزك وأكرمك..!!!

لقد كان الناس يحسون أن رسول الله أعبد الخلق لربه، وأرجاهم لرحمته وأكثرهم لهجاً بذكره، ومدحه، فلا عجب إذا نابتهم نائبة أن يجيئوا إليه ينشدون دعاءه، ويرقبون الخير معه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: شكا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، فخرج رسول الله حين بدا حاجب الشمس، وقعد على المنبر، فكبر وحمد الله عز وجل ثم قال: انكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر أبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله سبحانه أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد. اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء. أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين. ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبْطَيْه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب، أو حول ردائه، وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين فأنشأ الله عز وجل سحابة فرعدت وبرقت، ثم أمطرت باذن الله تعالى، فلم يأت

مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه فقال: أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله ».

حدث أن سألني شاب مغرور: أتعرف الله بدليل عقلي؟ فقلت له وأنا أتضاحك: أعرفه عن خبرة حسية..

قال: ما معنى خبرة حسية؟ قلت: أن اللقيط قد يعرف بالدليل العقلي أن له أباً، وإن كان لم يره.. لكن الابن الشرعي لا يحتاج إلى هذا الاستدلال، لأنه مغمور بحنان أبيه وإحسانه يحسها صباح مساء، انه يعرف أباه عن خبرة حِسِّيَّةٍ كما عَبَّرت لك..

انني سألت الله أموراً لا يقدر عليها إلا هو، وأجابني تبارك اسمه إلى ما طلبت، فكيف لا أعرفه بعد؟.

إن الجميل يثمر في الكلب العقور أفلا يثمر في انسان عاقل؟

أترى هؤلاء الأصحاب الذين ابتلوا بالجفاف، وهددهم الجدب بهلاك الحرث والنسل؟ لقد مشوا إلى محمد كيما يدعو ربه وكيما تجمعهم وإياه ساحة ضراعة ورجاء.

وأَمَّهُمْ كما رأينا في صلاة استسقاء ما كادت تنتهي حتى

استهل المطر يهمي، ويبشر بربيع نضير.

بم تصف إيمان هؤلاء بعد ذلك؟ لقد تجاوزوا مرحلة الإيمان النظري إلى مرحلة أزكى وأرقى، إن كل ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد نزول الغيث: أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله، والشهادة هنا منزلة فوق اليقين المجرد..

قال لي الشاب المسكين: لقد تعلمنا أن المادة لا تفنى ولا تستحدث وهو كلام يزلزل الإيمان لولا حرارة ما أسمع..

قلت: يا بني إن الذين كتبوا هذا الكلام ذكروا نصف المعرفة بعد ما حرفوه عن موضعه.

إن رب المادة هو الذي لا يفنى ولا يستحدث، أما أنا وأنت فقد صح لنا وجود بعد أن لم نكن.. أنا وأنت لسنا أزليين.. ترى من أوجدنا في بطون الأمهات؟ الخمسة أرطال من الأجهزة اللحمية التي تملأ تجويف البطن؟ أهذه هي التي دفعت الأجنة تخرج إلى الجو صارخة بعدما حرك الهواء الخارجي رئاتها؟

أنني أحتقر الغباء وكل ما ينتج عنه من أحكام.. فدعني من مساخر هؤلاء الماديين..

ربما ظن الطفل أن تحرك الصورة في المرآة يحدث من الصورة نفسها أو من سطح المرآة المصقول، وبعد قليل من رشد سوف يدرك أن هذا التحرك يجيء من الجسم الذي يثبت الصورة، لا من الصورة المتوهمة.

وناس كثيرون في طفولتهم العقلية ينسبون إلى المادة ما لا تعيه ولا تستطيعه، وقد تساءلت: من الذي صنع زخارف البصمات على أطراف الأصابع؟ الجلد نفسه؟ انه منفعل لا فاعل..

ولنترك عالم الجسم- على ما به من إبداع- إلى عالم أرقى، من الذي صنع الذكاء والغباء في عقولنا؟ أو من الذي صنع النزق والأناة في طباعنا؟ لننظر حولنا إلى « جندي مجهول » قام بهذا العمل الخارج، أنجد أحداً من الناس » أنجد عنصراً من العناصر؟

إن الأغبياء يتيهون أنفسهم عن الله عمداً، ويحاولون تجاهل القدرة العليا ببلاهة سمجة.. وليس ذلك هو العجب، بل العجب أن من يفعل ذلك يريد أن يصف نفسه، بالعلم، والتقدم، وألقاب أخرى..!!

ومن قديم جحد ناس كثيرون عمل الله في كونه، ونسبوا

العمل إلى أقرب مظهر له، كما ينسب الطفل تحرك الصورة في المرآة.. إلى المرآة..

قال زَيْد بن خالد الجهني: صلى بنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية- إثر مطر سقط ليلاً- فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر.

فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب.

وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب».

إن الذين يظنون الأشياء تحدث دون تقدير إلٓهي وهيمنة عليا- وهم في دنيانا الآن كثر- كفار حقاً..

أما الذين يعرفون أن الله خالق كل شيء، وسائق كل فضل، فهم المؤمنون حقاً..

وسواء نسبوا العمل إلى الله، أو نسبوه إلى خلقه مجازاً فهم مؤمنون بلا ريب، فمن قال: أنضج الصيف الفاكهة، يقصد أن الحرارة سبب الانضاج، فهو مؤمن ولم يقل نكراً،

لأنه عارف بأن الله هو الذي أخرج الزرع، وتفضل به على خلقه، إنما الإثم على من خلا من الله قلبه، وفكره، ونسب الأشياء إلى أدنى سبب منها، وأبى أن يعترف بألوهيته وراء ما نلمح من أسباب وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بين الحين والحين يكشف الغطاء عن الأسباب العادية، ويبين قيمتها ليربط الناس بربهم، ويجعل ذكره بين أعينهم.

والله عز وجل لطفاً منه بعباده قد يحرمهم ما يحتاجون إليه ليسارعوا إلى ساحته طالبين، ويسألون ملحين، فإذا أعطاهم أنعش مشاعر الشكر في أفئدتهم وعادوا وقد ربا إيمانهم..

وصلاة الاستسقاء والحاجة والاستخارة شرعت لذلك..

وقد رأيت الناس في مكة- إذا تأخر المطر- هرعوا إلى الصلاة، وصاحوا يطلبون النجدة من السماء، فما هي إلا أيام حتى ينزل الغيث..

ولقد رأينا على عهد رسول الله أن الإجابة تعقب السؤال.. ما يكاد النبي صلى الله عليه وسلم يدعو حتى تستهل السماء، وتبدأ الأنهار تتكون..

الغريب أن في شرق أفريقية وغربها وقع جفاف أهلك

البلاد والعباد، وما فكر أحد في صلاة استسقاء، لأن الله لا يعرف ولا يقصد!! وتلك سمات الحضارة المادية وآثارها كما نقلها الاستعمار إلى الأقطار التي نكبت به..

متاعب الدنيا..

البشر محكومون بقوانين اللذة والألم، قد يضعفون مع المتاعب إلى حد الهوان.. وقد يشتدون مع المنافع إلى حد الطغيان.. والمطلوب من المؤمن الكيس ألا يزيغ وألا يطغى، وأن يظل متماسكا على حاليه كلتيهما..

وهو ما بقي حياً لن يستريح من اختبار بعد اختبار، وتلك طبيعة الفترة التي نقضيها في هذه الدنيا..

والآلام تكشف الضعف الانساني، وتدفع العاقل دفعاً إلى الوقوف بباب الله يطلب العافية، ويرجو رحمة ربه، ومطلوب من المؤمن أن يلجأ إلى الله في كل ما ينوبه، ولو كان تافهاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليسترجع أحدكم في كل شيء حتى في شسع نعله، فإنها من المصائب » والشسع رباط الحذاء..

والمقصود من ذلك أن يعول المسلم في شئونه كلها على معونة الله، وألا يتصور انقضاء شيء منها دون إذنه تعالى،

ولو كان لا يلقي له بالاً ، فإن مصالح المرء صغراها وكبراها مرهونة بالتوفيق الأعلى.

فإذا عظم الخطب اشتد إلى الله فزعه ، وطالت ضراعته. فعن ثوبان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا راعه شيء قال: « هو الله ، الله ربي لا شريك له » وكان يعلم أصحابه عند الفزع هذه الكلمات:

« أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون »

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقاً أصابني فقال: قل: اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم.. يا حي يا قيوم ، اهدىء ليلي وأنم عيني » فقلتها ، فأذهب الله عز وجل عني ما كنت أجد..!!

وظاهر أن الرسول الكريم يتأول آية الكرسي ، أعني كلماتها الأولى ، فيستوقف المرء الفقير إلى النوم والاستغراق أمام الملك الذي يدبر ما سكن في الليل والنهار ، لا يغفل لحظة..

وعندما يقف الانسان في اطار ضعفه أمام ذي العزة والملكوت ، فإنه يعود مليء اليدين بالخير..

وقد أمرنا أن ندعو الله بأسمائه الحسنى، والله يحب أن يمدح ولذلك جاء في الحديث «ألظوا- ألحوا- بيا ذا الجلال والإكرام».

وقد ذكرنا أن النبي عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالله، وأتقاهم له،وأبصرهم بمجالي أسمائه الحسنى في آفاق الكون والحياة، وأسرعهم إلى ما تتطلبه من مشاعر الصبر والشكر، والتحية والحمد..

ويظهر لمؤرخي السيرة الشريفة أن التجارب التي مر بها قبل البعثة وبعدها أنضجت الكمال الانساني في شخصه إلى حد لا يتكرر في الدنيا، على أن أحداً من الخلق- مهما كان قدره- لا يفرض صداقته على الله، بل الله هو الذي -إذا شاء- أحب واصطفى..

وعندما يحب ويختار يسوق الأحداث التي ترفع القدر وتزيد الأجر، ويغلب أن تكون جسيمة فادحة تنفي الراحة والقرار الناعم..

ومن هنا بدأ النبي الخاتم حياته يتيماً يحتاج إلى الكافل الحاني، ولكن الله آواه، وبدأ حائراً لا يبصر المنهج ولا يدري من حكمة الحياة شيئاً، ولكن الله علم وهدى.. وبدأ

فقيراً يكدح ليحيا، ويضرب في أرجاء الأرض ليصون وجهه وعرضه، ولكن الله أغنى.

وفي صفة هذه البداية وفي تقرير ما يترتب عليها يقول الله تعالى: «ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث».

والنعمة الوسطى بين هذه النعم الثلاث، الهدى بعد الضلال- كما عبر السيد وهو يخاطب عبده- احتاجت إلى سورة لتوضحها، وتكشف حقيقتها، وهي سورة الانشراح، فإن النبي عليه الصلاة والسلام نشأ في بيئة أثقلتها الجاهلية بأنواع التخلف، ومع ما فيها من سوء فهي أزكى وأسلم من البيئات التي ملأها أهل الكتاب بالتزوير والغش.

وقد عاف النبي مآثر الجاهلية، كما رفض شرود النصارى واليهود، فما عساه يصنع؟ لا شيء.. لقد اعتزل بفطرته النقية بعيداً، ضائقاً بأحواله وأحوال الآخرين، فهو ما يستطيع أن يسدي لأحد علماً، ولا لنفسه، فمن أين له؟

والإنسان ذو الحس المرهف تشقيه أزمات الضمير والفكر، وتجعل الحياة في عينه أضيق من سم الخياط، وما

يعزيه متاع الدنيا كلها لو أتيح له، كذلك كان محمد حتى فجأه الوحي.

وفي ذلك يقول الله له «ألم نشرح لك صدرك» بفيض الحقائق الأدبية التي ألهمتها؟ «ووضعنا عنك وزرك» انزاح الحمل الثقيل الذي كان يبهظك وأنت مستوحش حائر منقطع؟ «الذي أنقض ظهرك» لقد كنت بهذا الحمل تهرب من المجتمع، وتأسى لنفسك ولغيرك، وتألم لعجزك، وغربتك عما حولك..

ثم اجتباك الله.. ومن أرفع ممن يختاره رب الأرض والسماء ليهديه ويهدي به العالمين؟ ورفعنا لك ذكرك».

وسنة الحياة كذلك، الجد والجهد والتصبر يتبعها الثمر، «فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا».

والمطلوب منك -بعد- إذا فرغت من العمل أن تستأنف العمل، لا مجال للراحة «فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب»..

هكذا رأينا الايواء بعد اليتم، والهداية بعد الحيرة والتوقف، والغنى بعد العيلة.

والمعاناة التي ظهرت في حياة النبي الخاتم جعلته دقيق

الإحساس بآلام الناس، فهو يحزن لها ويسارع إلى تجفيفها أو تخفيفها، وكان حسه شاملاً لمختلف الآلام المادية والأدبية، فهو يود أن ينفيها كلها عن حياته وحياة غيره..

ومن الذي يقصد وجهه ويلتمس حماه عند هجوم البأساء والضراء؟ الله وحده انه الحرز الآمن، والمأوى الحصين، ومن ثم ذكره ودعاه بالحاح وأدب.

وهو عندما يجأر بأسماء الله الحسنى يعلم الألوف المؤلفة أن هذا هو الطريق فاسلكوه، هذا هو الأمل فانشدوه «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون».

إن محمداً ليس كاهناً يقول للمذنبين تعالوا إلي معترفين أغفر لكم، تعالوا إلي مثقلين مرهقين أخفف عنكم وأرحكم.. كلا انه يقول: ادعوا الله معي ادعو الله لأنفسكم، أنا وأنتم ومن في السموات أصفار إن لم يشأ هو أن يجعلنا شيئاً.. إنه يجير ولا يجار عليه، ويحكم ولا معقب لحكمه« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير»..

ونثبت في هذا المجال جملة من الأدعية التي كان يدعو

بها ، ويرغب إلى المؤمنين أن يتقربوا إلى الله بترديدها ..

« اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل اثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار » .

اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي »

اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة » .

« اللهم إني أعوذ بك من البرص ، والجنون ، والجذام ، وسيء الأسقام » .

« اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ، ومن شر بصري ، ومن شر لساني ومن شر قلبي » .

« اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ، وعذاب النار ، ومن شر الغنى ، والفقر » .

« اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء » .

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والهرم وعذاب القبر » .

« اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها »

« اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها ».

« اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجأة نقمتك ، وجميع سخطك ».

« اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ، ومن شر ما لم أعمل ».

« اغفر لي خطئي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ».

« اغفر لي جدي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي ».

« اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ».

« اللهم اهدني وسددني ».

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم . وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وضلع الدين وغلبة الرجال ».

« اللهم اغفر لي ، وارحمني ، وعافني ، وارزقني ».

« اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ».

« اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء ».

« اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني ».

« اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ».

« اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره ».

« اللهم إني أعوذ بك من شر الخلق، وَهَمّ الرِّزق، وسوء الخلق ».

« اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ».

« اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، علانيته وسره، ولك الحمد إنك على كل شيء قدير. اغفر لي ما مضى من ذنوبي، واعصمني فيما بقي من عمري، وارزقني أعمالاً زاكية ترضى بها عني، وتب عليّ ».

« اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك، ومن الخوف إلا منك، وأعوذ بك أن أقول زوراً، أو أغشى فجوراً، أو أكون بك مغرورا. وأعوذ بك من شماتة الأعداء، وعضال الداء، وخيبة الرجال، وزوال النعمة،

وفجاءة النقمة ».

« اللهم أني أعوذ بك من العطب والنصب، وأعوذ بك من وعثاء السفر وسوء المنقلب ».

« اللهم إني أعوذ بك من الزيغ، والجزع، وأعوذ بك من الطمع في غير مطمع ».

« اللهم إني أعوذ بك من الفتن ما ظهر منا وما بطن، وأعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ».

« اللهم إني أعوذ بك أن أظلم أو أظلم، أو أبغي أو يبغى عليّ، أو أطغي أو يطغى عليّ ».

« اللهم اجعلني لك، ذكاراً لك، شكاراً لك، مطواعاً لك، مخبتاً إليك، أواهاً منيبا. رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري ».

« اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا ».

حسبنا هذا القدر من توجه محمد إلى ربه، وقبل أن نتدبر بعض ما سقنا نسأل: هل في تاريخ القارات الخمس بشر أحب الله تبارك وتعالى بأحر من هذه العواطف؟

هل في تاريخ القارات الخمس عابد ضرع إلى الله بأخلص من هذه العبارات!؟

إننا نقول لمن يستغربون اتباعنا لمحمد: هاتوا لنا بشراً مثله، له بالله أزكى من هذه العلاقة، ونحن نتبعه..

إننا نحن الذين نرثى لمن جهل محمداً أو عاداه، ونستغرب العمى الذي حجبهم عنه..

إن أفئدة الخلائق- حين تهتدي- وراء فؤاد محمد وهو ينبض بتوحيد الله وتمجيده، وجوارحها- حين تخضع- وراء كيانه حين يتابع بين ركوعه وسجوده.. تكون في أزكى أحوالها وأشرفها.. نعم إن الانسانية الراشدة يمثلها هذا العَلَم المفرد، الذي تفاني في ذكر الله وطاعته.

وإذا افترضنا أن كل ما يمتلك قلب المرء دون ربه صنم، سواء في ذلك المال والهوى وحب النفس، وحب الغير، فإن الانسان الذي حطم الأصنام كلها، وجعل المرء لله وحده هو محمد.. الذي امحت من بصيرته ظلال الأشياء ولم يبق فيها إلا إجلال الله وإعظامه..

وراء ذلك التقي النقي تقف جماهير هائلة من القانتين، وقلب كل منهم يؤمن على دعائه وهو يهتف بربه: «اللهم اجعلني لك، ذكارا لك، شكارا لك».

والأدعية التي أثبتناها في هذا الفصل تشير إلى جملة أمور..

أولها: أن الرسول يكره المرض، خصوصاً العضال منه، ومن منا يحب أنواع الحمى والسرطان؟ إن إيثار العافية فطرة الله في الأنفس، وما يحب الأوجاع إلا مختل المزاج.

ومن ثم رأينا النبي عليه الصلاة والسلام يدعو ربه طالباً سلامة الحواس والأعضاء، مستعيذاً به من السقام والعجز والهرم.

والمعروف من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان متين البنيان يهزم المصارعين، ويسير المسافات الشاسعة دون اعياء، ويحمل أعباء الجهاد دون نكوص..!!

والمرء يدهش لأناس يجعلون النحافة والشحوب أمارات التقوى، وقد ظهر هذا الخلل بين الهنود أولاً، ثم نقله النصارى إلى عناصر الرهبانية، ثم نقله جهلة الصوفية إلى الاسلام.

ونشأ عن ذلك أن البعض اعتبر «الفحولة» قدحاً في الإنسانية أو نقصاً في السمو الروحي.. كأن المخنثين وأشباههم يصعدون إلى مستوى الملائكة بالضعف الجنسي..

الواقع أن محمداً كان مثالاً عالياً للبشر، صادقاً مع منطق الطبيعة، عندما سأل الله البعد عن الآفات والعلل، فإذا عرا المرء شيء بعد ذلك من المتاعب صبر عليه وسلم لله فيما أراد، وقال كما قال خاتم الأنبياء: «إن لله ما أخذ ولله ما أعطى».. أو قال كما علمنا الله: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

الأمر الثاني: أعلن النبي كرهه للفقر والدين، وشتى الأزمات التي تعكر الصفو وتذل الناس، وعندي أنه من السخف تحبيب العَيْلة إلى الناس باسم الله..

والفرق بارز بين الكفاية الواجبة، والزيادة المغرية بالطغيان والعبث، وقد يتفاوت حد الكفاية بين شخص وآخر، والمهم أن صاحب الرسالة كان يسأل الله- كما جاء في بعض الآثار- عيشاً قاراً، ورزقاً داراً، وعملاً باراً.. وكان كثير الدعاء «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

فإذا عرض حصار، أو وجب كفاح، تحمل القلة بجلد، ولم يفقد البشاشة والاتزان..

وإذا أقبل الكثير صرفه إلى الآخرين بسماحة ورغبة،

وهناك يقين بأن شيئاً من أعراض الدنيا لم يملكه، بل أمره كما جاء في دعائه: «اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومالي وولدي، ومن الماء البارد على الظمأ».

الأمر الثالث: هناك ناس يكرهون من فوقهم ويحقرون من دونهم.. وهذا الصنف السيء يملأ جنبات المجتمع، وقد أعلن عليه الاسلام حرباً صريحة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

والنبي الكريم يلقى الناس بشعور واحد، أنه لا يريد أن يكون جباراً في الأرض أو ملكاً على العباد، أنه لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً، وفي الوقت نفسه يحب أن ينجيه الله من استطالة السفهاء، وجور المعتدين..

من أجل ذلك كثر في دعائه الاستعاذة من الفتن والبغي والغدر والجهل، وكل ما يخدش كرامة الإنسان الكريم على نفسه.

ومع ذلك قبل أن يهون في ذات الله ويشتم ويروع.. وكل ما حرص عليه ألا يكون ربه غاضباً منه «..إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي».

وهنا نقرر حقاً للنبي عليه الصلاة والسلام نبهنا إليه، ورغب إلينا فيه، هو أن نصلي عليه.. وما معنى الصلاة عليه؟ إنها استرحام مقرون بالثناء..

أي إن المؤمنين يسألون الله لنبيهم محمد، علو شأن، وزيادة فضل، كفاء ما أسدى لهم من جميل وقام به من جهاد..!!

وقد أمرنا الله أن نصلي على نبيه، وأخبرنا أنه- تبارك اسمه- يصلي هو وملائكته على هذا النبي الكريم، كما جاء في القرآن إن الله وملائكته يصلون على المؤمنين، فما معنى هذه الصلوات؟

ظاهر من الصلاة على المؤمنين أنها توفيق لهم وبركة في سعيها، وأنها عون من الله لاخراجهم من الحيرة والشرود والمضايق إلى السعة والضياء والاستقامة، وهي نابعة من رحمة الله وفضله، وذلك ما تشير إليه الآية «هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريما».

ويزداد هذا العطاء للمصابين من أهل الإيمان، الذين

يختبرون في أنفسهم وأموالهم، فلا يهتز يقينهم ولا تنتهي بالله صلتهم، بل يسلمون ويسترجعون «أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون».

فإذا كان المؤمنون الصابرون يلقون من الله هذه الحفاوة، فكيف بالإنسان الذي حمل الجهد الأكبر في غرس الإيمان، ووقف دونه يذود شياطين الإنس والجن، وربط حياته بهذه الغاية الشريفة، فلا هم له إلا هداية الناس، ولا فرحة له إلا أن يعبد الله في الأرض؟.

إن الملأ الأعلى يرقبون كفاحه باعجاب، ويدهشون كيف- وهو الفرد الضعيف المتجرد- هزم المبطلين، ومحا جاهليتهم، وأقام دولة التوحيد، وأمته الكبرى..

ذاك معنى قوله سبحانه وتعالى: «إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما»، إن صلاتنا عليه تصديق برسالته، وانتصار لها، وولاء لصاحبها، وتحية اعزاز وحب.. إنها الرباط الجامع بين القائد وجنده، أو الإمام وأتباعه على طاعة الله، والتزام نهجه، والبقاء عليه إلى يوم اللقاء الأخير..!!

ذلك.. وكل شيء في الكون يشارك في التسبيح لله

والصلاة له «ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون »..؟

ونحن نؤثر في الصلاة على رسول الله ما ورد من صيغ سهلة واضحة، ونكره الصيغ المتكلفة أو المبهمة التي ألفت لها كتب، وانعقدت مجالس، واخترعت للنبي العظيم أسماء ما أنزل الله بها من سلطان..

وليس المهم ترديد عبارات بليغة وإنما المهم عرفان الجميل للنبي الصالح المصلح، وتقدير الجهاد الذي محا به ظلمات الجاهلية وكشف أشباحها، وأسس دولة للحق أعزت من يستحق العزة وأهانت من يستحق الهوان..

هذا هو المعنى الحقيقي للصلاة على النبي. وهو ما رصدت له الأجور المروية في هذه القضية، لا ما يهرف به أدعياء الحب الذين لا يثبتون في الدفاع عن سنة أو حماية شعيرة..

نعم في المجاهدين عن الدين والمقدرين لرسوله يساق الحديث «من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا» وحديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله قال: «أولى

الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة » وعن أبي هريرة «لا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم ».

ولعالم الأرواح سنن فوق ما ندرك في عالم المادة تجعل هذا البلوغ ميسوراً ، ولا نحب أن نوغل في هذه الأمور..

وفيما قرأنا ، ونقرأ ، من أدعية النبي الكريم نرى طول نفسه في الاستغفار ، كما نرى أن القرآن الكريم نسب إليه ما نسبه هو إلى نفسه من ذنوب غفرت له بفضل الله فما معنى ذلك؟ وماذا صنع مما يؤاخذ به؟؟

ونحن نجيب على ذلك بهدوء ، فإن صفحة محمد صلى الله عليه وسلم هي أنقى صفحة بين أهل الأرض والسماء ، وما نعرف أحداً تبعته الأبصار في صغره وكبره ، ويقظته ومنامه ، وسره وعلنه ، كما اتبعت محمداً وأحصت عليه كل شيء..

وماذا قال أعداؤه عنه مما يخدش البطولة أو ينقص المروءة؟.. لا شيء..!

ما نقم منه الناقمون إلا أن الضربات التي كالها للباطل ظل يترنح منها إلى آخر الدهر ، وأن منهجه في توحيد الله ،

وتحشيد الناس على عبادته، ولم يقترب منه أحد من الأولين والآخرين..

ولم ينسب إليه- ولو بطريق الكذب- ما نسبه أهل الكتاب إلى أنبياء الله من سكر وزنى وقتل وختل..!!

وأنبياء الله كلهم برآء من هذا الاختلاق، وأمامهم الشامخ محمد بن عبد الله أسمى قدراً وأعز مكاناً..!!

إذن فمم الاستغفار؟ إن التفاوت بين النفوس كبير جداً، ذلك أن ما تملك من طاقات مادية وأدبية يختلف اختلافاً واسعاً، وموقفها مما وهب لها هو الذي يحدد نجاحها ورسوبها، أو تقدمها وتأخرها، ولا عبرة بظاهر العمل.

إن الأرنب يقدر في لحظات على اجتياز عدة أذرع على حين تستغرق السلحفاة في ذلك أمدا، ولا مكان للومها على بطئها إذا كانت قد بذلت وسعها..

والبشر ليسوا سواء في هممهم ونظراتهم وإمكاناتهم وهم مسئولون أمام الله على قدر ما وهب لهم من تلك الأنصبة، ومعنى ذلك أنه قد يقبل من أحدهم ما يرفض من الآخر، ولعل ذلك معنى قول أبي الطيب:

ويختلف الرزقان، والفعل واحد

إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

نعم، قد تكون الحسنة من هذا سيئة من ذاك، لبعد ما لدى كليهما من مواهب عقلية وحسية، ولذلك قالوا:

« حسنات الأبرار سيئات المقربين »!!!

والواقع أن ما يقبل من شخص عادي قد يعد هنة من رجل عبقري، ومن هنا يمكن القول بأن ما ينسب- حيناً- إلى الأنبياء من ذنوب إنما هو على مقدار درجاتهم، وأن هذه الذنوب ليست ما يواقع العامة من كبائر أو يتلوثون به من أوحال..

وقد كتب الاستاذ العقاد مقالاً عن المقاييس الأدبية جاء فيه أنه ينبغي في بعض الأحوال النظر إلى من قال لا إلى ما قيل.. فإن أبا العلاء المعري عندما ينشد.

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد..

فإنه لا يعني ما يعنيه الحمالون في محطات السكة الحديد، أو ما يعنيه الفلاحون وهم ينقلون الأتربة والبذور..

وهذا كلام حسن، ومن السخف تصور المرسلين يقترفون خطايا الدهماء، إن ما يستغفرون له من اخطاء شيء آخر يتفق مع معادنهم المنتقاة.

والنسبية أمر لا بد منه فركاب الطائرات قد ينظرون

من مكانهم العالي إلى ركاب القطارات، ولكن ركاب السفن الفضائية يضحكون من ركاب الطائرات ويأخذ الأمر صفة أخرى عند سكان الكواكب..

على أن هناك منطقاً آخر يتمم هذه النظرة التي شرحناها فيما ينسب إلى الأنبياء من ذنوب.. إن الانسان الواحد- فيما يمر به من أطوار الكمال- يمكن أن يكون عدة أناسي.. انه يرقى من سماء إلى سماء وحاله في الأولى أدنى من حاله في الأخرى، وهو- إذ ينظر إلى دنوها بالنسبة إلى ما صار إليه- يستغفر ربه، ويستصغر ما قدم له، ويعده فعلاً رديئاً ما كان ينبغي منه، وكلما مضى في معراج الارتقاء، وتكشف له من آيات الجمال الأعلى ازداد وَلَهاً بالتمجيد والتحميد، وازداد كذلك لهجاً بالتوبة والاستغفار..

ونحن على صعيدنا القريب عندما نرمق محمداً صلى الله عليه وسلم في عبادته وقيادته نرى أنه في فلكه العالي يرتفع من أفق إلى أفق، فآيات القرآن تزيد يوماً بعد يوم، ومراحل الجهاد تَطَّرِدُ مرحلة بعد مرحلة، وأعباء الهداية العامة تشتد وطأتها وتنداح دائرتها..

إن الذي صاح على الصفا يدعو عشيرته الأقربين أخذ

يكاتب ملوك العصر وجبابرة الأرض.. والذي خاصم نفراً يعدون على الأصابع أول أمره شرع يعد الجيوش لمقارعة الضلال وكسر كبريائه.. ولمن هذه المعاناة الموصولة في جهاد النفس وجهاد الناس؟ لله وحده..

لقد قام الليل إلا قليلاً من أول أيام البعثة.. ومضى على الدرب الطويل يواصل الصلاة والصيام والعطاء، ويقاوم الوثنية والخرافات وَعِوَج الجهال والمتعالمين.. هل استراح يوماً؟ كلا.. كلما شعر أن الله اختاره لهذه الرسالة أفنى قواه في البلاغ والجهاد وحطم العوائق ومضى في اعلاء اسم الله، فلا عجب إذا تنزل عليه قبيل الفتح الأكبر «إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك».

إن الغفران هنا ليس لذنوب واقعة أو متوقعة، وإنما هو تبشير المجاهد في سبيل ربه بأنه نجح فيما كلف به، وإن الشعور بالتقصير أو العجز عن الوفاء بحقوق الله كما يحسها القائد الضخم أمر متجاوز عنه.

لا ذنوب هنا مما يألف العوام، إنما هو احساس نبي الأنبياء، بأنه -وإن أذاب نفسه في مرضاة ربه- فهو مقصر

في حقه، متخلف عن أداء واجباته العظام..

من أجل ذلك كرمه الله وساق له البشرى..

وعندما يقول الله لعبد: غفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فليس معنى هذا إسقاط التكاليف، وإعطاء المرء حرية أن يفعل أو يترك.. هذا فهم بادي السوء والغفلة، وإنما المراد أن العبد بلغ مستوى من الرفعة لن ينحدر عنه، وأن مستقبله لن يكون إلا امتداداً لحاضر طيب موصول بالله مراقب له..

وقد وعد الرسول بهذه المغفرة الشاملة، كما أن الرسول بشر بهذه المكانة أهل بدر، وعثمان بن عفان لما أعطى مالاً ضخماً في غزوة العسرة.

وفي الصحيح أن الله بشر بهذه المنزلة الرجل التائب الذي يستغفر الله من قلبه في أعقاب ذنبه قائلاً: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويؤاخذ به.. افعل ما شئت فقد غفرت لك..

إن المفهوم من هذا أن الله يكتب للعبد حقه أو صفته من الحال الثابتة التي بلغها في حياته، ويسجلها له قبل وفاته، لأنه يعلم منه أنه لن يتعرض بعدها لنكسة..

هل الدعاء من الأسباب العادية؟

نستطيع أن نقول: نعم إذا تصورنا القضية ليست أكثر من استعانة عاجز بقادر..

إن الولد عندما يقول لأبيه: هات لي كذا مما يؤمل ويحب، فهو يستعمل السبب المتاح له، أي الوالد المحب، وإن كان بوسائله الخاصة لا يقدر..

والأنبياء عندما لجأوا إلى الله يدفعون به أذى الكافرين كان الدعاء سببهم العادي «كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا، وقالوا: مجنون وٱزْدُجِر، فدعا ربه اني مغلوب فانتصر، ففتحنا أبواب السماء بماء مُنْهَمِر، وفَجَّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدِر...».

وليس كلامنا الآن في هذا المنحى، وإنما نقصد ما روي في الصحاح من أذكار ورقى يرددها المؤمنون في أوقات معينة، أو في أوجاع وأحوال يضيقون بها، ويستعينون بالله لدفعها.

ثبت في الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه- استعد للنوم- نفث في يديه، وقرأ بالمعوذات ومسح بها جسده..

وفي رواية كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما «قل هو الله أحد..» و «قل أعوذ برب الفلق..» و «قل أعوذ برب الناس..» ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

قال رجال اللغة: النفث نفخ لطيف بلا ريق.

إن هذه السور الثلاث تحتوي على توحيد الله، وعلى تمام تنزيهه، ثم تدفع بالمرء في أحضان العناية العليا متحصناً من جميع الشرور المادية والمعنوية التي تزعجه.

وهناك رقى كثيرة سنشير إلى بعضها يستشفي بها المسلم من الأوجاع التي تنتابه، واتصالها بعالم الغيبيات واضح، إذ لا يدري العقل سر النفث ولا سر العدد الوارد.

وأجدني هنا مسوقاً إلى ذكر حقائق طبية مقررة تقفنا هي الأخرى على حافة عالم الغيب متحيرين. إن الجراثيم التي تحمل العلل قد تهاجم بعض الأجسام بضراوة، على حين تفقد شراستها حين تتصل بأجسام أخرى، فما تمسها بأذى يذكر..!!

وأحياناً تشتد وطأة الجراثيم الهاجمة ومع ذلك تستقبلها

من الجسم مناعة غريبة.. وربما حمل الانسان أسباب المرض دون أن يعتل به أو يتألم منه.. ما سر ذلك؟

من الذي أفقد الجراثيم قدرتها على الإصابة ابتداء وانتهاء؟ نحن المؤمنين نقول: الله. ونسأل الشاكين: من غيره؟ إن عالم الحس بالنسبة إلى عالم الغيب ضئيل محدود، والتحكم في أسباب المرض والعافية أقله في أيدينا وأكثره بعيد عن متناولنا..

والتداوي حق، وقد وصفت السنة عقاقير وأغذية وأشربة شتى للنجاة من الأمراض، ولكن يبقى قبل ذلك كله، وبعد ذلك كله، هذا السبب الخفي الذي يجعل الجراثيم تستأنس حيناً، وتفترس حيناً آخر، الذي يجعل العدوى تنتقل من الهباء، ولا تنتقل مع طول المخالطة والالتصاق..!!!

من أجل ذلك يبقى دعاء الرب الأعلى، واهب الأسباب قدرتها على العمل إذا شاء، وتاركها صفراً لا أثر لها إذا شاء..!!!

وعلى ضوء هذا البيان نفهم المرويات التي نثبتها هنا واثقين من صدق نتائجها.

عن عثمان بن أبي العاص أنه شكا إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم وجعاً يجده في جسده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل: باسم بالله -ثلاثا- وقل- سبع مرات- أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال لثابت رحمه الله: ألا أرقيك برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: بلى. قال: اللهم رب الناس، مذهب البأس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقما»!!!

وهذه قصة طريفة رواها البخاري ونحب أن نثبتها ونتدبرها. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: انطلق نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء...

فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عندهم بعض شيء. فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء.. فهل عند أحد منكم شيء؟

قال بعضهم: إني والله لأرقى، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ «الحمد لله رب العالمين...»- يعني ينفث بها على اللديغ- فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قَلَبة[1]، فأوفوهم جُعْلهم الذي صالحوهم عليه.

وقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم، فنذكر له الذي كان.. فننظر الذي يأمرنا..

فقدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا له فقال- للصحابي الذي رقى المريض بأم الكتاب- وما يدريك أنها رقية؟ ثم قال: قد أصبتم اقسموا، واضربوا لي معكم سهماً، وضحك النبي- لما كان-.

وفي رواية مشابهة قال النبي للراقي: «كل فلعمري لمن أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق».

لقد استوقفتني هذه القصة من وجوهٍ عديدة.. فإن فاتحة الكتاب سورة عظيمة القدر بما حوت من تمجيد لله ودعاء، وكان ظني أنها تنفع قارئها وحده، أما أن تنفع

---

(١) القلبة: الالم والعلة.

المقروءله فذاك ما أثبتته القصة هنا..

والقصة تحكي أن هؤلاء السفر من صحابة الرسول نزلوا بقوم لئـام، رفضوا أن يقبلوهم ضيوفاً، وهـذه خسة منكورة.. ترى هل فعلوا ذلك بخلاً، أم فعلوا ذلك كرهاً للاسلام والذين دخلوا فيه؟ إنني أرجح السبب الأخير..

وكان من قدر الله أن أفعى أو عقرباً لدغت كبير القوم وتركته لا قرار له، ولا يجدي معه شيء، مما اضطر أهله أن يلجأوا للصحابة طالبين نجدة.!!

والغريب أن الذي داوى المريض بالفاتحة ينفث بها على المصـاب هو الذي توقف في الانتفاع من المكافأة التي اشترطها، وشك في جواز الأكل منها.. وهو تصرف يدل على أن الراقي كان يجمع بين صدق الإيمان وشدة الورع..

وهنـا موطن العبرة.. فليس كل قارىء يشفي، ولا كل قراءة تداوي، ولكن لله عباد إذا أرادوا أراد، وإذا استنزلوا الفضل نزل..

وقد فرح الرسول صلى الله عليه وسلم بالقصة كلها، وأحب ارضاء الراقي، فشاركهم في الطعام من المكافأة المبذولة..!!

ولم لا يفرح بأثر الوحي النازل عليه إذا صحبه اليقين

الحار والعمل البار؟

إن الجانب الغيبي في هذه المرويات ما يمكن إنكاره، وكذلك ما يمكن تعميمه بين أهل السبق والتقصير، أو بين من لهم بالله علاقة وثيقة، ومن يمتون إليه بأوهى الصلات..

وأغلب الصالحين يستمد صحته الجسدية، ومقاومته للأدواء والأوجاع من هذا النبع الجياش في فؤاده يمده بعفو الله وعافيته..

ونعود إلى إمام الصالحين محمد بن عبد الله لننقل عنه أنه كان يغالب المتاعب العارضة باللجوء إلى الله والاستعاذة به..

قد تقول: إننا عرفنا عنه سلامة البدن وقوته، وإنه أوتي من ذلك ما لم يؤت غيره، فمن أين تجيئه هذه الأسقام الملجئة إلى التعوذ والضراعة؟

ونقول: لا ريب أن خاتم المرسلين أوتي بسطة في العلم والجسم تعينه على أضخم رسالة حملها بشر.. لكن سهر الليل في التهجد والتلاوة، وسبح النهار في العبادة والكدح، والجهاد المتصل، وحمل آلام الخلق، وإطراد هذه المعاناة ربع قرن وهي تربو ولا تخف.. مع تخفف مستغرب من الطعام والشراب، هذا كله أعيى الجسد الجلد، وأرهقه.

لقد رمقت عدداً من كبار القادة فوجدتهم يتناولون

مقادير كبيرة من المنبهات والمقويات، ويستهلكون مقادير أخرى من المآكل والمشارب، على حين رأيت في سيرة محمد أنه يحتاج إلى الطعام، فيؤتى له بخل- إذ لا يوجد غيره- فيغمس فيه اللقيمات المتاحة، وهو راض يقول: نعم الادام الخل أو لعله لا يجد شيئاً فينوي الصيام إلى الغروب.

أي جسد يتحمل مع هذا الاقلال أعباء الغزوات التي قصمت الوثنية، وأعباء التربية التي أطلعت من الجزيرة القاحلة رجالاً أضاءوا العالمين..

إن الأمداد الروحية الهابطة من السماء هي من وراء هذه الأعصاب الحديدية.. ذكره لله ودعاؤه لله وتفويضه لله..

جاء في الصحيح أنه كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، قيل للزهري- أحد رواة الحديث- كيف ينفث؟ قال ينفث على يديه ثم يمسح بها وجهه.

لقد ظل كذلك طول عمره، ففي رواية أخرى أن النبي كان ينفث على نفسه في المرض الذي توفي فيه بالمعوذات.. قالت عائشة: فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها.. «تعني -رضي الله عنها- أنها تمسح جسده بيده هو التماس بركتها»

ذاك طبيبه الخاص في دنيا الناس..!! إذا كان للرؤساء أطباء خاصون بهم..!!

وكذلك كان يغالب الأسقام حتى استراح مع الرفيق الأعلى..

إن تعبيرنا هنا بالجانب الغيبي قد يصح بالنسبة إلى جمهرة الناس، فإن ظلال الأشياء لا تغادر بصائرنا، ورغائبنا الخاصة قلما تنفك عنا، مع ما يخالط ذلك كله من يقين وإخلاص.. لكن الأمر بالنسبة إلى الأنبياء غير ما نتصوَّر، فهم في شهود غالب يجعل إحساسهم برب الأشياء أسبق من حسهم بالأشياء نفسها.

ونبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام كانت روحانيته عارمة، والإشراق الإلهي على قلبه لا يلحقه أفول.. وكان جهده أن يرفع مستوى من حوله، وأن يغلب ماديتهم بصفائه وسنائه..

وذلك يجعلنا نلقي نظرة عجلى على أركان الاسلام لنرى كيف كانت معارج ارتقاء، ومصادر تذكر دائم لله، ولنرى كيف انفرد هو بأدائها على نحو لا يدانى ولا يرام...!!!

الأركان العامة:

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الصلاة قال: الله

أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا، وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين. إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.

اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك. ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت..

واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت.

لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت استغفرك وأتوب إليك».!!

ومعنى الشر ليس إليك: انه لا يبدأ به عبداً وإنما يجلبه العباد على أنفسهم بسوء عملهم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير».

وربما قال عليه الصلاة والسلام في مفتتح صلاته:

«اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم نقني من خطاياي كما ينقي الثوب

الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد »!!

وربما قال: « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك .. »!!

وربما قال في ركوعه- إذا ركع: « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ، ومخي وعظمي وعصبي ».

وربما قال بعد الرفع من الركوع: « ربنا لك الحمد حمداً كثيرا طيبا مباركا فيه ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد .. أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد- وكلنا لك عبد- لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أي لا ينفع أحداً ما قسمت له من دنيا عريضة ، إنما ينفعه ما يلقاك به من تقوى وأدب .!!

وربما قال في سجوده: « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء ، والعظمة » أو قال: « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .!!

إنني عندما أتلو هذه العبارات المضيئة أشعر كأن الأنبياء كلهم، والملأ الأعلى معهم، يقفون وراء محمد صفوفاً صفوفاً، وهو يدعو بما أفاض الله على قلبه ولسانه وهم يؤمّنون ويؤكدون...!!!

وقد أسأل: هل هناك عنصر من عناصر العبودية، أو معلم من معالم الرغبة والرهبة فات محمداً وهو يناجي ربه؟

هل أدى أحد من الملائكة المقربين أو الرسل المكرمين تحية لرب العالمين أزكى من هذه التحية، أو مدحاً أسنى من هذا المدح، أو اعتذاراً على تقصير أرق من هذا الاعتذار..

والتقصير هنا يرجع إلى واحد من أمرين: أن طاقة البشر محدودة والواجب كبير، أو أن عظمة الرب فوق ما يعي الواعون فالألفاظ تفنى. وحق الله أكبر مما يقولون.!!

على أنه في ميدان التعبد لله، بحسن المعرفة واسداء الشكر، نرى إنساناً فذاً، سبق سبقاً بعيداً، تحبو البشرية وراءه وهي مبهورة الأنفاس، وفي مسامعها أصداء تسبيح وتحميد تتجدد ولا تتبدد.

من هذا العابد المستغرق الأواه المنيب؟ انه محمد بن عبد الله.

ونهبط من هذا الأفق لنسمع فحيح بعض الأفاكين يقول: ليس محمد نبياً...!

ومن قبل ذلك استمعنا إلى سخفهم وهم يقولون: لله ولد، وهو معه إله..!

ويحكم. انه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله...

إن الصلاة هي الركن في الاسلام، ولا مجال هنا لشرح أقوالها وأفعالها، وما سقناه من أدعية وأذكار ليس من قبيل الواجب، فالصلاة تتم بقراءات وأذكار دون ذلك، وإنما أردنا أن نشير إلى فن الذكر عند كبير العابدين.

والصلاة هي العبادة الأولى في كل دين، وقد كانت الشغل الشاغل للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد جعلها شارة التقوى، ومظهر الخضوع والتودد، وشعار الولاء المطلق لله رب العالمين.

ولا صلاة مع فساد المعرفة، أو رفض الانقياد لله، فتصور الألوهية شركة كفر، والتمرد على شرائع الله كفر.

وتوجد معابد لشتى الأديان، بيد أن الإسلام جعل العبادة ارتباطاً بإله واحد، واستمداداً من إله واحد، واحتكاماً إلى إله واحد، وعودة– في النهاية– إلى هذا الإله الواحد..!!!

والنبي العربي محمد أفضل من عرف الخلق بهذا الإله الواحد، وحببهم فيه، وأشعرهم بأن ربهم أرحم بهم من الوالد والوالدة، وأعطف عليهم من كل صديق.

وقد بينا في مواضع أخرى أن منهاج الإسلام في التربية يجمع بين صفات الجلال وصفات الجمال، وما يستغني البشر عن هذا الجمع، فهناك فراعنة تغريهم السلطة بالبغي، وهناك فقراء يعوزهم الدعم أو مخطئون يلتمسون الهدى والمتاب.

في هؤلاء وأولئك تقرأ قوله تعالى: «إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد».

وما يحبب في الله، وما يؤسس مشاعر الحب في الأفئدة فيض غامر في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، لا نعرف له نظيراً في أي تراث.

إذا اعترضتك مشكلة، ولم تدر كيف تتصرف بازائها، فالجأ إلى ربك تستفتيه، وسله أن يوجهك إلى الأفضل، إنه منك قريب فلماذا تتركه؟

عن جابر بن عبد الله كان رسول الله يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها- كما يعلمنا- السورة من القرآن، يقول: إذا

هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: (اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيب).

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال: عاجل أمري وآجله- فاقدره لي، ويسره لي ثم بارك لي فيه.

وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال عاجل أمري وآجله- فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به. ويسمي حاجته».

استغربت من بعض أعداء محمد، وهم يقولون متهكمين: إن رب محمد جبار متكبر.. قلت: ليكن! هل يكسر جبابرة الأرض إلا جبار السماء، وهل يمحو كبرياءهم إلا الكبير المتعال؟؟

إن إنقاذ الدنيا من أولئك المدمرين رحمة مهداة..

ومع ذلك فإن مؤدب الطغاة يقول للمنكسرين: أنا معكم جابر، ويقول للمستهدين: أنا لكم مرشد، ويقول لطلاب

خيره: اسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما.

إذا كانت لك حاجة فتعال بها إلى ربك، إنه لن يتعب في قضائها. «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون».

عن عبد الله بن أبي أوفى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت له حاجة إلى الله تعالى أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ، وليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم ليثن على الله عز وجل وليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ليقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والعصمة من كل ذنب، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا هماً إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضاً إلا قضيتها يا أرحم الراحمين».

وتنقضي الدنيا بأفراحها وأحزانها، وتنتهي الأعمار على طولها وقصرها، ويعود الناس إلى ربهم بعدما أمضوا فترة الامتحان على ظهر الأرض «كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة».

أصبحت الدنيا ذكريات.. وها هم أولاء بنو آدم يضعون أقدامهم على عتبات الآخرة..

ويموت مسلم في المدينة المنورة، ويقف النبي الكريم مصليا على جنازته، ويقدمه إلى ربه قائلا: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار».

قال راوي الحديث: لقد تمنيت أن أكون ذلك الميت الذي ظفر بهذه الدعوات المباركات..

واختار الشافعي من أدعية الرسول الكريم هذا الدعاء «اللهم هذا عبدك وابن عبدك خرج من روح الدنيا وسعتها ومجبوحتها وأحبائه فيها إلى ظلمة القبر. وما هو لاقيه.

كان يشهد أن لا إله إلا أنت، وأن محمداً عبدك ورسولك وأنت أعلم به.

اللهم انه نزل بك وأنت خير منزول به، وأصبح فقيراً

إلى رحمتك وأنت غني عن عذابه، وقد جئناك راغبين إليك شفعاء له.

اللهم إن كان محسناً فزد في احسانه، وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه.. وآته برحمتك رضاك، وقه فتنة القبر وعذابه، وافسح له في قبره، وجاف الأرض عن جنبيه، ولقه برحمتك الأمن من عذابك حتى تبعثه إلى جنتك يا أرحم الراحمين».

الصلاة على المؤمنين كتاب موقوت، ترتبط بحركة الشمس الظاهرة، قبل الشروق بنحو ساعة ونصف ثم بعد ما تتوسط كبد السماء، ثم بعدما تميل وتتضاعف الظلال ثم بعدما تغرب، ثم بعدما يختفي الشفق الأحمر..

وكما يرعى المسلمون الشمس لضبط عبادتهم اليومية لضبط فرائض الصيام والحج.. إن الزمن في حياتهم مطية إلى الآخرة، وقد لفت النبي صلى الله عليه وسلم أنظارهم إلى الشمس في سمائها الصاحية، وإلى القمر وهو بدر تم، وأشعرهم أنهم سوف يرون ربهم في الدار الآخرة بهذا الوضوح.

أفما ينبغي الاستعداد لهذا اللقاء بأعمال تنضر الوجوه، وتجمل العقبى؟

إن أهم الأعمال أن يذكر هذا الرب فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وألا تكون مخلوقاته حجاباً دونه أو عقبات أمام ما يجب له..

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم رباني الشعور والسلوك، يستغل كل شيء لتحية الله، وإعلان حبه، وتقرير وحدانيته، عن ابن عمر كان رسول الله إذا رأى الهلال قال: الله أكبر، اللهم أَهِلَّهُ علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى، ربنا وربك الله ».

وفي رواية أن نبي الله كان إذا رأى الهلال قال: « هلال خير ورشد، هلال خير ورشد، هلال خير ورشد. آمنت بالله الذي خلقك ثلاثاً - ثم يقول الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا ».

هذا قلب عابد يرصد الزمن الدوار، ليحمد مقلب الليل والنهار، ويتفاءل بنعمة قادمة، ويشيع نعمة ذاهبة، إن الزمن عنده هبة مبذولة في طاعة الله، وهو ما يضيع من هذا الزمن السائر لحظة في لهو أو غفلة، إنه في صلاة وصيام وجهاد وسعي دءوب لقيادة الخلق إلى الله.

والناس إذا ذكر الصيام يذكرون رمضان، لأنه شهر الفريضة، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام كان يصوم حتى يقال: ما يفطر، وقلنا: إنه كان في رمضان يواصل الصيام أحياناً فما يفطر عند الغروب وهذا من خصائصه التي تفرد بها.

وكلماته عندما يفطر تدل على نوع المعاناة التي يحسها في صيف يجفف لهيبه الحلوق، ويرهق الأبدان.. فعن ابن عمر كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال: «ذهب الظمأ وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله».

وقد يقول: «اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت».

وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله يقول: «إن للصائم عند فطرة دعوة ما ترد» قال ابن أبي مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو -راوي هذا الحديث إذا أفطر يقول: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي».

سمعت متحدثاً كأنه يعتذر عن مناسك الحج، يقول: إن الله يختبرنا بما نعقل حكمته وبما لا نعقل حكمته لتظهر طاعتنا، في هذا وذاك!!

قلت: تعني أن المناسك التي كلفنا بها في الركن الخامس غير معقولة؟ فسكت تهيباً، ثم قال: ذاك ما أريد، وأنا أطيع الله جل وعز في كل ما يكلفني به..

قلت: إن هناك أموراً كثيرة لا صلة لها بقضايا العقل لا سلباً ولا إيجاباً ووصفها بأنها «لا معقولة» غير صحيح! فنحن نكتب لغتنا العربية من اليمين إلى اليسار وأسرة الدول الغربية تكتب لغاتها من اليسار إلى اليمين، هذه أوضاع لا توصف بأنها مع العقل أو ضده، هذه شئون تواضع الناس عليها، ومن حقهم ذلك دون ملام على ما ساروا فيه واختاروه لأنفسهم..!

عند استعراض الجيوش يكلف الجند بأداء التحية على نحو معين، فيرفعون السلاح بحركة خاطفة، ثم يصوبونه إلى احدى الجهات، ثم يردونه إلى أخرى، ثم يستقر على مناكبهم، ثم يتجهون صوب منصة القائد برؤوسهم. الخ- ما هذا؟ أمور تواضع الناس عليها.. يمكن أن نرفض منها ما ينبو عن الذوق اللطيف، ويمكن أن نستملح ما يوائم طباعنا..!! ولا صلة لهذا كله بقضايا المنطق العقلي.

إن الاسلام يرفض ما يخالف العقل والفطرة، ولكنه لا

يعترض المسالك البعيدة عن هذا المجال إلا إذا خدمت باطلا!!

قال: تقصد أن أفعال الحج من هذا القبيل السائغ؟

قلت: نعم

قال: لماذا يكون الطواف سبعة أشواط مثلاً؟ قلت: السؤال الدوري يسقط تلقائياً، لأنه لو كان أقل أو أكثر لتكرر السؤال، لماذا كان اسمك فلاناً، ولم يكن فلاناً، انه سؤال دائر لا نلتزم له بإجابة، ومع ذلك فإن أفعال الحج في جملتها معقولة، ولها حكم بينة..

من حق الإنسانية أن تعتز بذكرياتها القديمة، وأن تحيط هذه الذكريات بأسوار من المهابة والتقديس إذا كانت تتصل بعقائدها وقيمها ومناسك الحج جزء من تاريخ جليل، ومفاتح لخزائن من الروحانية الدافقة والعاطفة الجياشة، ومن ثم كان الارتباط بها ركناً في الدين «ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب»[١]

ويحتاج هذا الكلام إلى شرح معقول! لماذا تنطلق قوافل البر والبحر والجو صوب البيت العتيق، مقبلة من القارات

---

(١) سورة الحج ٣٢

الخمس وفي الأفئدة شوق وفي العيون بريق؟ الحق أن البيت المقصود جدير بهذا الاعزاز كله، فقد بناه أبو الأنبياء ابراهيم ليكون حصناً للتوحيد وملتقى للركع السجود بعدما اشتبك عليه السلام مع الوثنية الأولى في صراع حياة أو موت، وقد انتصر ابراهيم في معركة الوحدانية، ورفع هو وابنه اسماعيل قواعد هذا البيت توكيداً للنصر، ومراغمة للكفر. «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين»[١].

إن المسجد الأول في العالم جدير بأن تشد إليه الرحال، وأن تجيء إليه الوفود بين الحين والحين لتؤدي له التحية... وكل مسجد يبنى في المشارق والمغارب بعده ينبغي أن يرتبط به وأن يتجه إليه، ولذلك كان هذا المسجد المحترم قبلة للمؤمنين كافة «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره...»[٢].

وشيء آخر في تاريخ الانسانية يشدنا نحن المسلمين

---

(١) سورة آل عمران ٩٦- ٩٧ (٢) سورة البقرة ١٥٠

خاصة إلى هذه الكعبة المشرفة، أن أمتنا الكبيرة كانت أملا عندما بدأ هذا البناء، وأن رسالتنا الخاتمة كانت دعوة حارة عندما برزت هذه القواعد، كان إبراهيم وإسماعيل يقولان: « .. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأَرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم... »[1]. إننا نحن الذرية المسلمة المعنية في هذا الدعاء، وأن رسولنا الخاتم محمداً عليه الصلاة والسلام هو والدنا الروحي والثقافي وصاحب أطهر أنفاس حنت على العالم وألهمته رشده.. أفلا نرتبط بعدئذ بهذا البيت، ونزوره ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً؟ ما أعظم الذكريات التي تحف به! وما أوفى الوفود التي طوت الأبعاد لرؤيته والتزود من خيره وبره..!

ونحن نحيي البيت العتيق بالطواف حوله والصلاة إليه، نجعل الحجر الأسود إلى يسارنا ثم نلف سبع مرات أو سبعة أشواط. وماذا نقول خلال ذلك؟ نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وندعو بما نشاء من حوائج

---

(١) سورة البقرة ١٢٨ - ١٢٩

الدنيا والآخرة «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم..»[1] والبشر فقراء إلى الله وهو صاحب الخزائن التي لا تنفد...

كلهم سائـــل وأنـــت مجيـــب
تلـــك نعماك مـــا لهـــا من نفـــاد

وبعض الحمقى من المبشرين يظن للمسلمين علاقات مادية بالكعبة،وبالحجر الأسود خاصة،وهذا ظن ما يبوء إلا بالسخرية والضحك، فإن التوحيد الذي يعمر قلوب المسلمين طراز من اليقين الحر لا نظير له في الدنيا، والهتاف الذي يسود مواكب الحجيج منذ تحركها النبيل هو «لبيك اللهم لبيك،لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك..» وهو هتاف يزداد هديره كلما علوا ربوة، أو هبطوا وادياً، أو لاقوا جمعاً، وكلما اظلّتهم هدأة الليل أو سكينة السحر.. ويشعر الملبي أن الكون كله يتجاوب معه مصداق ما ورد في الحديث «إذا لبى الحاج لبى ما عن يمينه ويساره من شجر وحجر ومدر حتى منقطع الأرض من ها هنا وها هنا».. ولا

---

(١) سورة البقرة ١٩٨

عجب أن يتجانس الكون المسبح بحمد الله مع انسان انخلع عن نفسه وانطلق في سفر صالح يبغي مرضاة الله. وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد سفراً إلا قال حين ينهض من جلوسه: « اللهم إليك توجهت، وبك اعتصمت، اكفني ما أهمني وما لا أهتم به. اللهم زودني التقوى. واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير أينما توجهت. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد ».

إن الحاج إنسان متبتل إلى الله متلهف على رضاه متطلع إلى مثوبته متخوف من عقوبته يتحرك كل شيء في بدنه بمشاعر الشوق والرغبة والحب، ولا أعرف تجمعاً أهلاً لرحمة الله ومغفرته كهذا التجمع الكريم والسعي بين الصفا والمروة يقع عادة بعد الطواف، وشعائر السعي تجديد وتخليد لمشاعر التوكل على الله كما استقرت في قلب « هاجر » أم اسماعيل، وكما استقرت في قلب رجلها ابراهيم الخليل.

إن التوكل شعور نفيس غريب، وهو أغلى من أن يخامر أي قلب، إنه ما يستطيعه إلا امرؤ وثيق العلاقة بالله حساس بالاستناد إليه والاستمداد منه. وعندما ينقطع

عون البشر وتتلاشى الأسباب المرجوة وتغزو الوحشة أقطار النفس فهلا يردها إلا هذا الأمل الباقي في جنب الله عندئذ ينهض التوكل برد الوساوس وتسكين الهواجس. انني بعين الخيال أتبع هاجر وهي ترمق وليدها الظامىء ثم تجري بخطوات والهة هنا وهناك ترقب الغوث وتنتظر النجدة.. إن ظنها بالله حسن، وقد قالت لابراهيم عندما تركها في هذا الوادي المجدب الصامت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم..! قالت في رسوخ: إذن لا يضيعنا..!! وها هي ذي تتعرض للمحنة وتنتظر تدخل السماء.. وتدخلت السماء، وتفجرت زمزم، وغنى الوادي بعد وحشة، وصار الرضيع المحرج أمة كبيرة العدد عظيمة الغناء، ومن نسله صاحب الرسالة العظمى، ومن شعائر الله هذا التحرك بين الصفا والمروة تقليداً لأم اسماعيل وهي ترمق الغيب بأمل لا يخيب..

ما أحوج أصحاب المثل إلى عاطفة التوكل، إنها وحدها تكثرهم من قلة، وتعزهم من ذلة، وتجعل من تعلقهم بالله حقيقة محترمة، ولعل ذلك بعض ما تعنيه الآية «ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح

عليه أن يَطَّوَّفَ بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم[1] » . قال المؤرخون: إن ابراهيم لما ترك هاجر وابنه يواجهان المصير المجهول في هذه البقعة المنقطعة عرض له الشيطان وهو ينقل أقدامه في منى- بعدما أنفذ أمر الله- يقول له: أيترك أحد أسرته تموت جوعاً وعطشاً على هذا النحو؟ عد فاستنقذ أهلك!! ولكن ابراهيم حذف الشيطان بالحجارة ومضى في طريقه يناجي ربه: « ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »[2]. واستجاب الله للدعاء الخالص، وسقط كيد الشيطان فلم ينل سيئاً من قلب الانسان المؤمن الواثق، وكانت سنة رمي الجمرات ليعلم من يجهل أن وعد الله حق، وأن وسوسة الشيطان هراء، وما تعمل هذه الوسوسة عملها إلا مع أصحاب القلوب الفارغة « انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون »[3].

(١) سورة البقرة ١٥٨

(٢) سورة ابراهيم ٣٧

(٣) سورة النحل ٩٩- ١٠٠

ومما يلفت النظر أن القرآن الكريم لما أراد أن يذكر رمي الجمرات بمنى لم يستعمل هذا العنوان المألوف، بل عبر عنه بذكر الله في أيام معدودات. قال تعالى: «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجَّل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى»[1].. كأن المقصود من الموضوع هو الذكر الجهير العالي لرب العالمين، وما رمي الجمرات إلا رمز.

والحق أن الحج كله هو هذا الهدير الموصول بذكر الله من أمواج بشرية متصلة، لا شغل لها إلا الجؤار بالتلبية والهتاف بالتسبيح. ومن المؤسف أن رمي الجمرات تحول إلى عمل معنت تزهق في زحامه أرواح ولا يستطيعه إلا أصحاب الجلادة والمغامرة! لماذا؟ لأن الرأي الفقهي السائد أن الرمي لا يصح إلا بين زوال الشمس وغروبها.. فكانت الجماهير المتدفقة في ذلك الوقت العصيب تواجه المهالك، وقد رفضت شخصياً هذا الرأي لأني لم أعرف له اسناداً من كتاب أو سنة، ورميت في أوقات خفيفة الحر والزحام!!!

ومما يسر الآن أن الحكومة السعودية جعلت للرمي

---

(١) سورة البقرة ٢٠٣

ميداناً أعلى وآخر تحته وضبطت طريقَيْ الذهاب والعودة، وفسحت المجال للقول بأن الرمي يصح خلال الأيام المعهودة ليلاً ونهارا.. فاستنقذت بذلك أرواحاً وأعانت على طاعة.. إن هناك مسلمين يظنون الحج جملة مشكلات معقدة، وهؤلاء عسروا اليسير واختلقوا بدعاً لا أصل لها.. حتى ظن البعض أن لكل شوط في الطواف دعاء خاصاً، وأن لكل شوط في المسعى دعاء خاصاً، وألفت كتب لهذه الأدعية ما أنزل الله بها من سلطان.

وهناك أشخاص معلولو الفكر يظنون السعي على الأرض أولى من السعي في الدور الأعلى الذي أقامته الحكومة تخفيفاً لأهوال الزحام، وكذلك في رمي الجمار يظنون أن الرمي على الأرض أهم من الرمي في الدور الأعلى!! وما يدري هؤلاء أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف حول البيت فوق ناقته يشير إلى الحجر الأسود بعصاه من بعيد.. ان الحج عبادة رقيقة محبوبة أساسها الوقوف بعرفة والطواف حول البيت وبعض شعائر أخرى يمكن استيعابها بيسر دون قلق أو حرج.. والدين كله يقوم على صدق الاخلاص ونضج الأخلاق وحسن العلاقة بالله وبعباده،

والقرآن الكريم يقول في الحج: «الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب»[١]. وهذه الرحلة بين الأماكن المقدسة تصقل الطبع وتزكي القلب وتنمي مشاعر الحب لله ولرسوله وجماعة المسلمين، فلا عجب إذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثر هذه الفريضة الجليلة: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

ولقد ثبت أن مكة مركز العمران في هذا العالم واستطاع الدكتور «حسين كمال الدين» أستاذ الهندسة بجامعة الرياض أن يثبت بحسابات رياضية عالية أن مكة تتوسط القارات المأهولة، وأن وضعها الذي قرره العلم الحديث تفسير حقيقي لقوله تعالى: «وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه..»[٢]

فحول الكعبة المشرفة دوائر متتابعة الرحابة من الركع

---

(١) سورة البقرة ١٩٧

(٢) سورة الشورى ٧

السجود، يتلوها غيرها من المسلمين الذين اتخذوا المسجد الحرام قبلتهم، وعلى امتداد خطوط الطول والعرض تسمع كلمات الأذان وتنحني الأصلاب والجباه ركوعاً وسجوداً لأهل الحمد والمجد، رب المشارق والمغارب، رب العالمين.

في موسم الحج تلتقي مكة بالوفود المقبلة من كل فج عميق، تلتقي بأفراد الانسانية الموحدة المهتدية المحبة لله وللمسجد الأول أبي المساجد في القارات كلها، تتصافح الوجوه وتتعارف النفوس على تلبية النداء الصادر بحج البيت، النداء الذي صدر من قديم وزاده الاسلام قوة وحدة «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات...»[1]

ووفود الله القادمة إلى مكة تصنع مجتمعاً شغله الشاغل ذكر الله، والهتاف باسمه المبارك.

في الأحياء التجارية يكون تبادل السلع والأثمان هو الحركة السائدة، في الدواوين الحكومية يكون تنقيل الأوراق من هنا وهناك مظهر الحياة البارز.

---

(١) سورة الحج ٢٨

لكن الحجاج والعمار يقيمون سوقاً للصالحات لها جؤار هائل بالتلبية والتكبير كأن الأرض تحولت بهم إلى أفق يعج بالملائكة المتعبدين..

قال النووي يرسم عمل الحجيج: «ويستحب الإكثار من التلبية، يستحب ذلك في كل حال. قائماً وقاعداً. ماشياً وراكباً، مضطجعاً ونازلاً وسائراً، محدثاً وجنباً وحائضاً. وعند تجدد الأحوال وتغايرها زماناً ومكاناً، كإقبال الليل والنهار، وعند الأسحار، واجتماع الرفاق. وعند القيام والقعود والصعود والهبوط والركوب والنزول، وفي أدبار الصلوات، وفي جميع المساجد».

ثم قال النووي: وإذا رأى شيئاً أعجبه قال: لبيك إن العيش عيش الآخرة.. اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولبواعث هذا الاعجاب قصة. فقد روى الشافعي عن مجاهد قال: كان النبي عليه الصلاة والسلام يظهر التلبية: لبيك اللهم لبيك..الى آخرها، حتى اذا كان ذات يوم والناس يدفعون عنه. فكأنه أعجبه ما هو فيه فقال: لبيك ان العيش عيش الآخرة!!

قال ابن جريج: حسبت أن ذلك كان يوم عرفة!!

من حق عشرات الألوف من الحجاج أن يزدحموا حول نبيهم وهو يجأر بذكر الله، انه صانع هذه المسيرة وقائدها.

لكن محمدا الضخم لا يزدهيه أن تزدحم حوله الأتباع، ان فؤاده المعلق بالله، المرتقب للقائه، جعله يذكر الآخرة، ويؤمل في غدها القريب..

ولقد سمع وهو على الصفا يقول: «الله أكبر الله أكبر. الله أكبر ولله الحمد. الله أكبر على ما هدانا. والحمد لله على ما أولانا.

لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد. يحيي ويميت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

لا اله الا الله، أنجز وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

اللهم انك قلت: (ادعوني أستجب لكم)[1]، وانك لا تخلف الميعاد. واني أسألك كما هديتني للاسلام أن لا تنزعه مني حتى تتوفاني وأنا مسلم..!!

(١) سورة غافر ٦٠.

سبحان الله. أمل الرسل الكرام من قبل! ان يوسف الصديق - بعدما أوتي الملك - دعا الله أن يميته على الحق « ... فاطر السموات والأرض أنت وَلِيِّي في الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقني بالصالحين »[1].

كذلك يدعو محمد ربه. وهو في حجة الوداع. بعدما نكس الأوثان. ومحا الجاهلية، وأقام دولة التوحيد! والجميل أنه بعد خمس سنين من غزو الأحزاب للمدينة يذكر النصر الذي منحه القدر. والذي جاء نجدة مشرقة بعد كفاح معنت رهيب.

انه الله أنجز وعده، وهزم الأحزاب وحده، وما كان غيره يفل حدهم ويمزق شملهم ويبطل كيدهم.. انه الله أهل الحمد والثناء وأهل التقوى والمغفرة..!

هل استراح الايمان وحملته بعد هذه المعارك المظفرة؟ كلا... ان القوى الكافرة ستظل تبغض الحق ورجاله، وتقلب لهم الأمور، بيد أن رجالات الاسلام سيمضون في الطريق الى نهايته ولو كره الكافرون...

تتبعت كلمات النبي صلى الله عليه وسلم في مناسك

---

(١) سورة يوسف ١٠١.

الحج، ظانا أني سأطالع أدعية مستفيضة ففوجئت بوجازة الكلمات التي قالها!!

لكن المسلمين أحدثوا لكل شوط في الطواف أو السعي وردا يتلى! وأحدثوا ليوم عرفة أدعية مسهبة، والعاطفة وراء هذا الالحاح مقدورة، والمقبل على الله لا يستغرب منه أن يستعين بكل كلمة تترجم عن شوقه وأمله، وأن يتشبث بكل حرف يظنه مفتاحا لخزائن الرحمة العليا..

ان أي مسلم ينشد لنفسه وأهله الرضا والقرار، فهو يقول مع موسى الكليم: «رب اني لما أنزلت الىّ من خير فقير...»[1]!!

والدعاء الذي لم يسأم النبي تكراره في الطواف والسعي: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[2].

والنشيد الذي يتردد بين قمم الجبال وبطون الأودية هو «لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». الألوف المؤلفة تصرخ به وتتلاقى عليه.

---

(١) سورة القصص ٢٤.

(٢) سورة البقرة ٢٠١.

نبي المرحمة ونبي الملحمة..

لا يستطيع ذو خلق أن يتهم محمدا بأنه كان يريد برسالته بسطة في المال أو بسطة في الجاه، أو حظا من حظوظ الدنيا..

والمعروف في سيرته أنه كان أعلى الناس هتافا بتوحيد الله وتمجيده، وأغير الناس ضد نسبة الشركاء والشفعاء اليه، وأرغبهم في تنفيذ أمره، وتوقير وحيه وابعاد الأهواء عما شرع للخلائق..

وقد كان يحزن - الى حد الاعتلال - لصدود الجهال عنه ويأسف لمضيهم في عماهم، ولكن الله عرفه أنه مكلف بالبلاغ، وحسب «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، الا تذكرة لمن يخشى».

وأفهمه أنه لا يقتاد الناس الى الصراط المستقيم قسرا، وأن الحماس والاخلاص لا يحملانه على هذا المسلك، «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا؛ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين..»؟

لكن أتباع الأديان الأخرى أحسوا الخطر من الدعوة الجديدة، ورأوا أن ترك صاحبها يتحدث معناه انصراف الناس عنهم، فان الاسلام له بالنفس الانسانية قرابة،

أليس صدى الفطرة، ان العقل يتقبله على عجل، وان القلب يرغب فيه دون تكلف، من أجل ذلك اتخذ أعداء الاسلام طرقا عديدة للصد عنه..!

ولو كانت هذه الطرق مقارعة دليلا بدليل، لرحب الاسلام بهذا النزال، واطمأن الى نتائجه..!!

لا أن الأمر مشى على سياسة الصلف والتحدي التي لا يحسن الأقوياء غيرها «وقال الذين كفروا لرسلهم: لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا»..

ان هذه السياسة فرضت على النبي الصبور المكافح أن ينتصب للدفاع عن رسالته، وعن المستضعفين الذي اضطهدوا معه لاعتناقها.

اذا كنت تمشي في الظلام ومعك مصباح يضيء لك الطريق، فانك قد ترفع مصباحك ليهتدي معك غيرك، وان كره أحد الانتفاع بسناك فليتعسف السير وحده، وليتعرض للحفر والمهالك ما شاء له هواه، «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها».

لكن ما العمل اذا حاول سفيه يهوى الظلمة أن يكسر مصباحك؟ ويطفىء شعاعك؟ أليس من حقك أن تقاتله لتستبقي الهدى لك ولغيرك؟

ان ذلك ما فعله محمد « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدي القوم الظالمين، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

ان الذين يؤيدون سياسة تكسير المصابيح هم أشد الناس بغضا لمحمد وكرها للرسالة التي جاء بها، وهم يدركون أن الضوء عدوهم لأنه يكشف باطلهم، ففي نور الحرية العقلية وحده يرفض الانسان مبدأ التثليث في الألوهيـة ولو قيل له تسويفا لذلك ان المثلث خط واحد.. ويرفض رب اسرائيل المتعصب لشعبه وحده،المزدري، لسائر الشعوب، الذي لم يتحدث عن الآخرة بكلمة..

وقد شرع محمد يدعو الى دينه، فلننظر في دعوته، أترى فيها أثارة لمجد شخصي أو تطلعا لغاية دنيوية؟؟

هل رأينا في تراث انسان أحر من هذا الحديث عن الله ووحدانيته ووجوب التفاني في مرضاته.

ثم لننظر في القتال الذي خاض ميدانه، هل رأيناه معتدا بقوته أم مستندا الى قوة الله وحوله وطوله؟ هل

رأيناه يبغي شيئا غير اعلاء كلمة الله؟ هل رأيناه يقول: الويل للمغلوب، أو يجعل الظروف تقول ذلك، أم ترك حرية التدين عامة شاملة بعدما قلم أظافر الطغاة؟ لنستنطق التاريخ العادل..

كانت معركة بدر أول قتال وقع بين الاسلام والوثنية، وذلك بعد خمس عشرة سنة من بدء الدعوة، ماذا كانت حال المسلمين خلال هذه المدة؟ كانوا مهدري الحقوق، كانوا غرضا قريبا لكل ذي عدوان.

وكان الرسول يشكو الى الله ضعف قوته وقلة حيلته.. ورفض الجاهليون كل الرفض الاعتراف بالاسلام وَعَدِّهِ دينا يقبله المجتمع العربي..

أخرج المسلمون من مكة - وهي الحرم الآمن - وكشرت الوثنية عن أنيابها، وبعد ما تم لها ما تريد أعلنت أن الهوان والطرد نصيب كل من يدخل في الاسلام؛ فهل يلوم أحد المسلمين اذا تصدوا لهذا التحدي، وقرروا الوقوف أمامه في حدود قواهم القليلة؟

وماذا يفعلون؟ لقد ارتقبوا فرجا مع الغد المجهول.. وجاء هذا الفرج من حيث لا يحتسب أحد.. فقد فرضت

الظروف على المسلمين معركة بدر دون أن يستعدوا أو يخططوا لها، وشعر فريق منهم بالكره البالغ لهذا القتال المفروض، وتقدم المشركون للمعركة وهم واثقون من دحر الاسلام وحفر قبره هنا..

وأحس النبي عليه الصلاة والسلام أن الصمود ما منه بد، وأن جهاد الماضي المر بالغ قمته اليوم، وأن حكم الله قد تتمخض عنه هذه الساحة التي مهدها القدر، فاتجه عليه الصلاة والسلام الى ربه ينشد النجدة والحمى.. قال ابن عباس: قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو في قبته التي أقيمت له ببدر - اللهم اني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم.. فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده: فقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك.. فخرج النبي وهو يقول: « سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ».

وفي رواية: استقبل نبي الله القبلة ثم مد يده فجعل يهتف بربه عز وجل يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آت ما وعدتني، اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه..

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر أن قريشا أقبلت بكبريائها وبطرها تريد أن تتوج اضطهادها للاسلام بيوم أغبر..وكان يعلم أن جمهرة المسلمين صابرت البأساء والضراء أمدا طويلا وهي متشبثة بدينها في وجه عناد شديد، فنظر الى حالتهم قُبيل القتال المرتقب وقال: «اللهم انهم جياع فأشبعهم.. اللهم انهم حفاة فاحملهم.. اللهم انهم عراة فاكسهم» لقد كلفهم الايمان الكثير طوال السنين التي مضت..

ولم يكن أحد يدري أن الله تبارك اسمه قد تأذّن بتغيير الوضع كله، فأغرى قريشا بدخول معركة هي أغنى الناس عنها، ووضع المسلمين أمام أمر واقع لا يستطيعون عنه جولا، لم؟ «يريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم...»

نعم استجاب الرحمن لاستغاثة نبيه، وتنزل النصر المفاجىء، فكان صاعقة كسرت ظهر الكفر، وجائزة ملأت أيدي المؤمنين بالخير، وصبغت وجوههم بالبشر..

ولم يكن انتصار بدر هذا الا فاتحة عهد آخر من الجهاد

العسكري تجمعت فيه كل القوى المعادية للاسلام تريد الاجهاز عليه والخلاص منه..

واستأنف النبي وصحبه العمل لربهم وآخرتهم، ان أطماع الدنيا لم تكن أمل هؤلاء الرجال الكبار، ان الموت من أجل المبدأ الجليل هو ما غرسه النبي فيهم، وهو أسعد نهاية يختم بها مؤمن حياته.....!!!

وقد تعلق المسلمون بهذا المعنى في أيام الرخاء والعافية، فهم في الأمن والصحة يسألون الله الشهادة كما جاء في الحديث «من سأل الله القتل من نفسه صادقا، ثم مات أو قتل فله أجر شهيد» وفي رواية «من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله تعالى منازل الشهداء، وان مات على فراشه».

وبذلك التجرد لله تكونت أمة وراء نبيها تنصر الحق، وتثأر له، ولا تبالي بأنصبتها من الدنيا، وكانت دنياها في الأغلب رقيقة لما ارتبطت به من تكاليف، ولما حل بها من غربة، عن أنس بن مالك خرج رسول الله الى الخندق فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، «صباح شتاء قارس» فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: اللهم ان العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة». وكانوا

يحفرون التراب وينقلون أكوامه على ظهورهم وينشدون

نحن الـــذين بايعوا محمـــدا

عـلى الجهاد ما بقينـا أبـدا

كان رسول الله حريصا على أن يكون القتال لله لا لدنيا عارضة، وكان يأبى على رجاله أن يتشهوا الحرب أو يستفزوا الخصوم، فعن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس - خطيبا - قال: أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فاذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ». ثم قال: اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم ».

وفي رواية: اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم ».

وهزيمة الأحزاب حول المدينة شأنها عجيب، فان قوات الضلال في الجزيرة كلها أطبقت على المسلمين في مدينتهم، فاذا المسلمون في مأزق ضيق خانق ينذر باستئصالهم، وليس هناك بصيص أمل في بشر، اللهم الا ما تصنعه السماء.

وكان الظن أن المسلمين قد احتبسوا في مصيدة هي لا محالة مهلكتهم، وكان النبي الضارع لربه ينتظر منه العون لحظة بعد أخرى، فلا أمل الا فيه..

وبوغتت الأحزاب الطامعة بالأجواء تتمخض عن عواصف و أعاصير تخلع خيامهم، وتكب آنيتهم، وتبعثهم يطلبون النجاة من حيث جاءوا، بعيدا عن هذه المدينة المنيعة..

وانطلق صوت الايمان داخل المدينة التي أشرق عليها الفرج يقول: «الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جند، وهزم الاحزاب وحده»..

والثابت في خلق الرسول الكريم أنه كان شديد التوكل على الله والتحصن به والثقة فيه، كان اذا قاتل قال: اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل»..

وكان اذا خاف قوما قال: اللهم انا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم».

وكان يكره التهريج والفوضى والصخب عند القتال، فالأمر جد، والسكينة أعون على طاعة الله واستنزال نصره.

والموقف هنا يوجب استحضار قدرة الله، وفضله وغناه، وحاجة العباد أبدا اليه، وتوسلهم اليه بالبراءة من الحول والطول، ولقد ثبت أن من مواطن اجابة الدعاء، وقت التقاء الجمعين، انه كوقت السجود، وانهاء الصوم، واستغفار السحر، وكل آناء التجرد لله، وطلب جداه.

والأمة الاسلامية كلها من وراء الجبهة الساخنة تدعو ربها وتسأله النصر، وهي في الصلوات الخمس تقنت، ترد النوازل، أو تقنت مع مطلع كل فجر طالبة من الله تأييد المجاهدين.

ونختار من المأثورات الواردة الدعاء الذي كان يقنت به عمر بن الخطاب وجيوش الاسلام تدق أبواب المجوسية والنصرانية، الديانتين اللتين طالما أذلتا الجماهير وطاردتا التوحيد..

« اللهم انا نستعينك، ونستغفرك، ولا نكفرك، ونؤمن بك، ونخلع من يفجرك ».

« اللهم اياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، واليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، ان عذابك الجد بالكفار ملحق ».

« اللهم عذب الكفرة الذين يصدون عن سبيلك، ويكذبون رسلك ويقاتلون أولياءك.

« اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات. وأصلح ذات بينهم وألف بين قلوبهم. واجعل في قلوبهم الايمان والحكمة، وثبتهم على ملة رسولك صلى الله عليه وسلم. وأوزعهم أن يوفوا بعهدك، الذي عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوك وعدوهم، اله الحق، واجعلنا منهم ».

قال الامام النووي ».. واعلم أن المنقول عن عمر رضي الله عنه »... وعذب كفرة اهل الكتاب » لأن قتالهم - يعنى المسلمين - كان مع كفرة أهل الكتاب. وأما اليوم فالاختيار أن يقول: وعذب الكفرة فانه أعم ».

ونحن نخالف الامام النووي رضي الله عنه في اختياره الذي حور اليه دعاء عمر، وعنه نقلنا الصيغة المثبتة هنا - فان كفرة أهل الكتاب هم في عصرنا وعصر عمر مصدر البلاء الذي يعاني منه ديننا، وسر النكبات التي حاقت بأمتنا.

بل إن الشيوعية زحفت من بعدهم، سواء في النصف الأيمن للاتحاد السوفييتي، الذي استعمره القياصره من قبل.

أم في أرجاء العالم الاسلامي الذي أرغمه الاستعمار الصليبي على فتح أبوابه للشيوعية،

كما أرغمه على فتح أبوابه للصهيونية..

ان كفرة أهل الكتاب كانوا ولا يزالون من أشد الناس حقدا على الاسلام ومواريثه وقيمة كلها.

ختام:

هناك أئمة كبار لهم في دراسة السيرة الشريفة بصر أطول، وخبرة أعمق، وقد يستطيعون خيرا مني أن يتحدثوا في «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء»..

بعضهم قرأنا له من علمائنا الأقدمين، وبعضهم سيتمخض عنه المستقبل، لأن التعرف على صاحب الرسالة العظمى واكتشاف جوانب العظمة فيه لم يتم بعد، على كثرة الكاتبين والدارسين..

في شبابي كتبت «فقه السيرة» وحسبت اني أتيت بشيء طائل في الابانة عن عظمة محمد صلى الله عليه وسلم..

ثم عرفت - بعد - أن محاولتي كانت محدودة، وان كانت - بستر الله - غير مردودة..

ثم كلفتني «ادارة الشئون الدينية» بدولة قطر أن أسطر هذه الصحائف فاستجبت.

وكانت عدتي التي اعتمدت عليها عاطفة حب تتحرك في قلبي نحو محمد صلى الله عليه وسلم، تجعلني حفيا بمناجاته لله، مشوقا الى متابعته والافادة منه.

لكن العاطفة الحارة لا تستر البصر الكليل، والهمة القاصرة.

لذلك انتهيت من الكتابة وقد استولى علي الشعور بالنقص، ثم قلت: جهد المقل، ولعل غيري يتم ما بدأت..

ان الكتابة في شمائل محمد، وعبادته، وفروسيته ميدان لا يزال ينتظر الرجال.. وأستغفر الله أولا وآخرا.،،


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

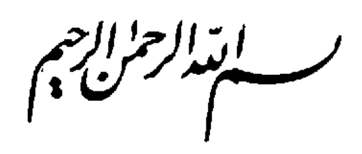
الجانب الرّوحي
من
أخلاق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم
من خلال عباداته وأدعيته

للأستاذ الدكتور سليمان أتش
« تركيا »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



الجانب الروحي من أخلاق الرسول
صلى الله عليه وسلم
من خلال عباداته وأدعيته

١ - زهده:

حينما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم الخامسة والثلاثين من عمره حببت اليه الخلوة، وكان صلى الله عليه وسلم يذهب الى غار حراء أياما، يعزل عن الناس ويعيش وحيدا هناك متفكرا في الكون حوله، ذاكرا خالق السموات والأرض حسب اعتقاده، فمن رأى حاله من العرب قال: «عشق محمد ربه»[١] وحكت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حاله قبل المبعث بقولها: أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع الى

(١) المنقذ من الضلال، طبعة مصر - ص ٥٠

خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاء الملك فيه فقال: اقرأ.. الخ»[1]

ويصف على بن سلطان محمد القارىء تحنث النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة هكذا: «انه صلى الله عليه وسلم كان متعبدا بالعبادات الباطنية من الأذكار القلبية والأفكار في الصفات الالهية والمصنوعات الآفاقية، والانفسية والأخلاق السنية، والشمائل البهية من الترحم على الضعفاء والشفقة على الفقراء والتحمل من الاعداء، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والرضا بالقضاء، والتسليم والتفويض والتوكل على رب الأرض والسماء، والتحقق بحال الفناء ومقام البقاء على ما يكون منتهى كمال الأولياء والأصفياء. ولذا قيل: بداية الأنبياء نهاية الأولياء»[2]

وازداد زهد النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ولم يتقلل طول حياته فلم يهتم بالدنيا ابدا ورأى كل شيء ما خلا الله باطلا. واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعوه ضرورته اليه وزهد فيما سواه. فكان يلبس ما وجده،

---

(١) بخاري، كتاب التعبير -١

(٢) على بن سلطان محمد القارىء، جمع الوسائل في شرح الشمائل، جـ٢ ص ٨٠ - طبعة مصر ١٣١٧

ويلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ، ويقسم على من حضره ولا يخشى من الفقر، وكان يمر به وبازواجه الشهر والشهران فلا يوقد في بيته نار للخبز، وانه كان طعامهم الأسودين: التمر والماء، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله[1]

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خيرت بين أن أكون نبيا ملكا أو أكون نبيا عبدا، فاشار اليّ جبريل عليه السلام أن أتواضع، فقلت بل أكون نبيا عبدا، أشبع يوما وأجوع يوما»[2]. وقال ﷺ: «لو كان لي مثل أحد ذهبا لانفقته في سبيل الله الا لشيء أرصده لدين»[3]. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه لم يدخر شيئا لغد، وانه ادخر مرة قوت سنة لعياله، ولمن يرد عليه من الوفود[4]، وكان يدعو صلى الله عليه وسلم: «اللهم ارزق آل محمد قوتا»[5]

---

(١) القاضي عياض بن موسى، الشفا في تعريف حقوق المصطفى ص ٧٣

(٢) رواه الطبراني عن ابن عباس بسند حسن والبيهقي في الزهد وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة.

(٣) بخاري، زكاة، ٤ - مسلم، زكاة، ٣١، ابن ماجة مقدمة ١٠

(٤) مسلم جهاد، ٤٩ - ترمذي، جهاد، ٣٩ ورواه ابن حبان في كتاب الثواب

(٥) بخاري، رقاق،

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير فكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه الصلاة والسلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم القرآن. فاذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة[١]. وروي عنه أنه خير نسائه فاخترن الله ورسوله، وفيهن نزل: «يا ايها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا. وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما»[٢]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لين الخلق، متبسم الوجه، واذا سر استنار وجهه حتى كان قطعة من قمر[٣]، وقال أنس: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ليس له خادم. فأخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ان أنسا غلام كيس فليخدمك. قال: فخدمته في السفر والحضر، ما قال

(١) بخاري. صوم.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٨

(٣) خ. بدء الخلق. صفة النبي.

لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا ، ولا لشيء لم أصنعه لِمَ لَمْ تَصْنع هذا هكـذا »[1]

وما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين قط الا اختار ايسرهما مالم يكن اثما،فان كان اثما كان أبعدالناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه الا ان تنتهك حرمة الله تعالى ، فينتقم لله بها[2]

وقالت حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: كان فراش رسول الله صلى الله عله وسلم في بيته مسحا نثنيه ثنيتين فينام عليه ، فثنيناه ليلة باربع فلما أصبح قال: ما فرشتموا لي الليلة ، فذكرنا ذلك له فقال: ردوه بحاله فان وطأته منعتني الليلة صلاتي ، وكان ينام أحيانا على سرير مرمول بشريط يؤثر في جنبه[3].

وقالت عائشة رضي الله عنها : لم يمتلىء جوف النبي صلى الله عليـه وسلم شبعا قط ولم يبث شكوى الى أحد ، وكانت الفاقة أحب اليه من الغنى ، كان ليظل جائعا يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل ربه جميع

---

(١) خ. وصايا. ٢٥. ترمذي. بر. ٦٩....... ... ...

(٢) خ. بدء الخلق. صفة النبي.

(٣) الشفاء. ص ١١٠

كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها. ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا مما يقوتك فيقول: يا عائشة مالي وللدنيا ،اخواني من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني استحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم، وما من شيء هو أحب الي من اللحوق باخواني واخلائي. قالت فما أقام بعد الا شهرا حتى توفى[1]

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا لعانا وانه كان يقول: ان من خياركم احاسنكم اخلاقا[2] وكان يقول عند المعتبة: ماله ترب جبينه[3] وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويجالس المساكين، ويمشي في الأسواق، ويتوسد يده، ويقتص من نفسه، ولم ير ضاحكا ملء فيه، ولا ضرب عبده قط، ولا

---

(١) الشفاء. ١١٠، ١١١

(٢) بخاري بدء الخلق. باب صفة النبي. أدب باب حسن الخلق.

(٣) بخاري. أدب. باب ما ينهي من السباب واللعن.

ضرب أحدا بيده الا في سبيل الله، وكان لا يجلس متربعا ولا يأكل متكئاً ويقول: آكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد[1]

وعن عائشة قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة ففهمتها فقلت وعليكم السام واللعنة، فقال رسول صلى الله عليه وسلم: مهلا يا عائشة، ان الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله ولم تسمع ما قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد قلت وعليكم[2]

وأسس رسول الله صلى الله عليه وسلم باذن الله بين الناس الاخوة الحقيقية والمحبة الروحية، وربط بين قلوب العباد برابطة الايمان بالله وتوحيده، وقلع التكبر والتفاضل بين الناس، ولم ير فضلا لانسان على انسان الا بالتقوى، وسوّى بين العبد والسيد وبين الغني والفقير وبين العرب والعجم، وأعلن بأن الناس سواء كأسنان المشط عند الله بالنسبة للفطرة الانسانية، وخطا خطوات واسعة نحو رفع

---

(١) سراج. كتاب اللمع. ص ١٣٧

(٢) بخاري. باب الرفق في الأمر كله.

العبودية من وجه الارض. وعن أبي ذر رضي عنه قال: «كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية، فنلت منها فذكرني الى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي: أسابيت فلانا؟ قلت: نعم؛ قال: أفنلت من أمه؟ قلت: نعم، قال: انك امرؤ فيك جاهلية، قلت على حين ساعتي هذه من كبر السن، قال: نعم هم اخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله اخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفة من العمل ما يغلبه، فان كلفه ما يغلبه فليعنه عليه »[1]

وقال صلى الله غليه وسلم: «ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يعط اجره »[2] وأراد قلع الملكية الظالمة المستبدة فقال: «اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده. والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله »

وقال صلى الله عليه وسلم: «اياكم والظن فان الظن

---

(١) بخاري، أدي ما ينهي من السباب واللعن.

(٢) بخاري. بيوع. ١٠٦ إجارة. ١٠ ابن حنبل، ج٢ ص ٣٥٨

أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا وكونوا عباد الله اخوانا »[1] وقال: «ليس الشديد بالصرعة، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[2]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب النظافة الظاهرة والباطنة ولا يريد اضرار الجماعة او اخلال راحتها في المساجد، فلذا قال: «من أكل ثوماً أو بصلا فليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته. وانه صلى الله عليه وسلم أتي بقدر فيه خضروات من بقول، فوجد لها ريحا فقال قربوها الى بعض أصحابه كان معه، فلما رآه كره أكلها، قال: كُلْ فاني اناجي من لا تناجي »[3]

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الفطرة والبساطة ويجتنب من التزينات المخالفة للفطرة، ومنع الصور والتماثيل في المساجد، وانشاء المساجد على المقابر، لانه يفتتح سبيلا في النهاية الى الوثنية. وذكرت أم سلمة رضي الله عنها كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما

(١) بخاري. أدب. باب ماينهي من التحاسد

(٢) بخاري. أدب. باب الحذر من الغضب.

(٣) بخاري. صلاة باب ماجاء في الثوم والبصل والكرات.

رأت فيها من الصور - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولئك قوم اذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله »[1]. وعلى رواية ابي هريرة دعا النبي صلى الله عليه وسلم على اليهود الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[2]

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه أن يزهدوا في الدنيا ويكونوا فيها كغريب أو عابر سبيل. قال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما: اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وكان ابن عمر يقول: اذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، واذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك »[3]

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ان فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فاتى النبي صلى الله عليه وسلم

(١) بخاري. صلاة. باب الصلاة في البيعة.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) بخاري. رقاق. ١٣

سبي فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء صلى الله عليه وسلم الينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لاقوم فقال: على مكانكما، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، وقال ألا اعلمكما خيرا مما سألتماني: اذا اخذتما مضاجعكما تكبرا اربعا وثلاثين وتسبحا ثلاثا وثلاثين وتحمدا ثلاثا وثلاثين فهو خير لكما من خادم[1].

٢ - عباداته:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي المؤمنين بالنوافل، والذكر، والتوبة الى الله، والتوكل على الله والصبر على قضاء الله، وتفويض الأمور الى الله

وكان أحب الأعمال له ادومه وان قل، قالت عائشة رضي الله عنها: كان عمله ديمة وايكم يستطيع ماكان النبي صلى الله عليه وسلم يستطيع[2]، كان يصوم حتى نقول: لا بفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم[3] وكان أصحابه لا يشاؤون

---

(١) بخاري، فضائل. باب مناقب علي ابن ابي طالب. دعوات. ١١. ترمذي. دعوات: ٢٤

(٢) خ، رقاق باب القصد والمداومة على العمل.

(٣) الشفاء، ص١١٢

أن يروه من الليل مصليا الا رأوه ولا نائما الا رأوه[١]

وكان صلى الله عليه وسلم يحب صلاة الليل أكثر من كل شيء، فقال صلى الله عليه وسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[٢] وحرض أمته على قيام الليل بقوله: «عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة الى ربكم ومكفرة للسيئات، ومنهاة للاثم»[٣]

وكان صلى الله عليه وسلم تنام عينه ولا ينام قلبه[٤] ويصلي حتى تتورّم قدماه فقيل له: اتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبدا شكورا»[٥]

وقال صلى الله عليه وسلم: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فاستجيب له. من يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»[٦]

---

(١) خ، تهجد، قيام الليل.

(٢) ترمذي، دعوات، ١٠٢

(٣) خ، مسلم مسافرين، ١٤

(٤) خ، بدء الخلق، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم

(٥) مسلم، صفة المنافقين، ١٨، الشفاء، ١١٢

(٦) خ، تهجد، الدعاء والصلاة في آخر الليل، ت، دعوات، ٧٩.

وقد رغب امته في الاستيقاظ من الليل فقال: « يعقد الشيطان على قافية رأس احدكم اذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فاذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فاذا توضأ انحلت عقدة، فان صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس، والا أصبح خبيث النفس كسلان »(1)

وعن علي كرم الله وجهه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسلام ليلة فقال: « ألا تصليان، فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فاذا شاء ان يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع الى شيء، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: وكان الانسان أكثر شيء جدلا »(2).

٣ - كم ركعة كان يصلي بالليل والنهار من النوافل:

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الليل فقال: « مثنى مثنى، فاذا خفت الصبح فاوتره

---

(1) خ، تهجد عقد الشيطان على قافيه الرأس.

(2) خ، تهجد، باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم على صلاة الليل/ دعوات ٧٩.

بواحدة » وسئلت عائشة عن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالليل، فقالت:: سبع، وتسع، واحدى عشر سوى ركعتي الفجر ،وقالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة منها الوتر وركعتا الفجر »[١]. وسئلت عن صلاة رسول الله في رمضان، فقالت: « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على احدى عشرة ركعة، يصلي أربعا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثا. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر، فقال أن عيني تنامان ولا ينام قلبي »[٢]

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كانت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالليل ثلاث عشرة ركعة[٣]

نفهم من هذه الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي أحياناً ست ركعات للتهجُّد وركعة للوتر، صلى أحياناً ثماني ركعات للتهجد وركعة للوتر، وركعتا الفجر

---

(١) خ. تهجد، كيف كان صلاة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) خ، تهجد، قيام النبي صلى الله عليه وسلم، صوم، ٦٨

(٣) بخاري، تهجد، باب كيف كان صلاة النبي صلى الله عليه وسلم.

خارجتان من هذه، وصلى أحياناً ثلاث عشرة ركعة مع الوتر وركعتا الفجر.

وأخبرت عائشة رضي الله عنها كيفية صلاته بالليل بقولها: كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع الى فراشه، فإذا اذن المؤذن وثب فان كان به حاجة اغتسل والا توضأ وخرج[١] وكان اذا قام للتهجد من الليل يشوص فاه بالسواك[٢].

وأخبر عبد الله بن عباس انه بات عند ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها وهي خالته، فاضطجع على عرض الوسادة واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله في طولها، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، ثم استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر آيات خواتيم سورة آل عمران، ثم قام الى شن معلقة فتوضأ منها فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى

---

(١) بخاري، تهجد، من نام أول الليل واحيا آخره.

(٢) بخاري، تهجد. باب طول القيام.

جاءه المؤذن، ثم خرج فصلى الصبح[1].

فقد أخبر الله سبحانه عباده بالليل بهذه الآيات: «ومن الليل فتهجد به نافلة لك، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا»[2]، «يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا»[3] وكانت طائفة من أصحابه يقومون بالليل، يصلون ويستغفرون، قال الله تعالى: «ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك...»[4].

أما نوافل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصلوات المكتوبة، فأخبرت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها: ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي سجدتين خفيفتين بعد ما يطلع الفجر[5]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم سجدتين قبل الظهر، وسجدتين بعد

---

(١) بخاري، تهجد، استعانة اليد في الصلاة.

(٢) سورة الاسراء: ٧٩

(٣) سورة المزمل: ١ - ٣

(٤) سورة المزمل: ٢٠

(٥) بخاري، تهجد، باب التطوع بعد المكتوبة.

الظهر، وسجدتين بعد المغرب، وسجدتين بعد العشاء، وسجدتين بعد الجمعة. فأما المغرب والعشاء ففي بيته[1].
وعلى رواية عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يدع أربعا قبل الظهر وركعتين قبل الغداة[2]

فتدل هذه الروايات على أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى قبل الظهر ركعتين في أكثر الأوقات وصلى أربع ركعات في بعض الأحيان. وصلى أحيانا قبل المغرب ركعتين، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يرد أن يتخذها الناس سنة[3]

وترك النبي صلى الله عليه وسلم النوافل الا الصلوات المكتوبة وجمع الصلاتين في بعض الأوقات لأمور مهمة.

روى عمرو عن ابي الشعثاء جابر، قال سمعت ابن عباس رضي الله عنهما قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانيا جميعا وسبعا جميعا. قلت يا ابا الشعثاء، أظنه أخر الظهر وعجل العصر، وعجل العشاء وأخر

---

(١) بخاري، تهجد، باب التطوع بعد المكتوبة.

(٢) بخاري، تهجد، باب الركعتان قبل الظهر.

(٣) بخاري، تهجد، باب الصلاة قبل المغرب.

المغرب، قال وأظنه[1]. وجمع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب الظهر والعصر والمغرب والعشاء في وقت العشاء[2].

الصلاة صلة روحية بين العبد وربه تؤدى فى الأيام العادية بخمس أوقات، واما الأوقات التي يجد الأمر بها كالحرب وخطر الحياة، فتؤدي الصلاة آنذاك ركعة واحدة بدليل آية التقصير[3] وقد تكفي في الآونة الخطرة جدا التكبيرة أو التكبيرتين صلاة، لان الصلاة أصلها ذكر لله تعالى، يقول الله عز وجل: «أقم الصلوة لذكرى»[4] فتنقلب الصلاة في هذه الآونة الى أصلها وهو ذكر الله تعالى.

العبادة بالنية وسكون القلب، واذا كان الازعاج في العبادة فلا يبقى فيها سكينة وحضور، فتصبح العبادة حينئذ شكلا بدون روح، رسما بدون معنى. فلا اكراه ولا فتور في العبادة.. وروي عن أنس بن مالك أنه قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم فاذا حبل ممدود بين الساريتين،

---

(١) بخاري، تهجد، باب من لم يتطوع بعد المكتوبة.

(٢) نسائي، مواقيت، ٥٥ اذان، ٢٣، احمد بن حنبل، مسند ج٣، ص ٢٥.

(٣) سورة النساء: ١٠١ - ١٠٢

(٤) سورة طه: ١٤

فقال: ما هذا الحبل قالوا: حبل لزينب فاذا فترت تعلقت. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا، حلّوه ليصل أحدكم نشاطه فاذا فتر فليقعد[1]

وقالت عائشة رضي الله عنها: كانت عندي امرأة من بني أسد فدخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من هذه؟ قلت: فلانة لا تنام بالليل فذكرت من صلاتها، فقال: مه، عليكم ما تطيقون من الأعمال، فان الله لا يمل حتى تملّوا.[2]

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر زحاما، ورجلاً قد ظُلِّل عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: صائم، فقال: ليس من البر الصوم في السفر[3].

ويكره ترك النافلة ما بدىء بها أولا، فعلى الإنسان أن يقتصد في العبادة كما يقتصد في كل شي، فليتأمل طاقته أولا، فاذا عزم أي نافلة فعليه الدوام عليها، لأن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت هكذا، وكان صلى الله عليه وسلم اذا صلى صلاة داوم عليها[4] وكان رسول الله

---

(١) بخاري، تهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة: جه، اقامة الصلوة، ١٨٤

(٢) بخاري، تهجد. باب ما يكره من التشديد في العبادة.

(٣) بخاري. صوم. ٣٤

(٤) بخاري. صوم. ٥٠

صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف ازواجه من بعده[1]، واعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام الذي قبض فيه عشرين يوما[2]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وان أوتر قبل أن أنام[3]

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما صام النبي صلى الله عليه وسلم شهرا كاملا قط غير رمضان[4]. ويؤيد قول أنس، ما قاله ابن عباس في عبادة النبي صلى الله عليه وسلم: «ما كنت احب أن أراه من الشهر صائما إلا رأيته، ولا مفطراً إلا رأيته ولا من الليل قائما إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته، ولا مسست خزة ولا حريرة ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت مسكة ولا عبيرة أطيب رائحة من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم»[5]

وروى نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم واصل، فواصل الناس فشق عليهم

---

(١) بخاري، اعتكاف، ١

(٢) بخاري، صوم، ١٧

(٣) بخاري، صوم، ٥٨

(٤) بخاري، صوم، ٥١

(٥) بخاري، صوم. ٥١

فنهاهم. قالوا انك تواصل، قال: اني لست كهيئتكم، وايكم مثلي، اني ابيت يطعمني ربي ويسقين فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون »[١]

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص من زهاد الصحابة، يقوم الليل ويصوم النهار. يقول عبد الله: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا عبد الله، ألم اخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل، صم وافطر وقم ونم. فان لجسدك عليك حقا وان لعينيك عليك حقا، وان لزوجك عليك حقا، بحسبك ان تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فان لك بكل حسنة عشر أمثالها، فان ذلك صيام الدهر كله، فشددت فشدد علي، قلت يا رسول الله اني أجد قوة، قال: فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه قلت: ما صيام نبي الله داود عليه السلام، قال: نصف الدهر ». فكان عبد الله بعدما كبر يقول: يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم[٢]

وعلى رواية أخرى وصى النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يصوم ويفطر يومين، فقال عبد الله انه

---

(١) بخاري، صوم ٤٦ - ٤٧ (٢) بخاري، صوم، ٥٣

يطيق أفضل من ذلك. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يصوم يوماً ويفطر يوماً فذلك صيام داود عليه السلام أفضل الصيام، فقال عبدالله انه يطيق افضل من ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا أفضل من ذلك[1]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر: أحب الصيام الى الله صيام داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما. وأحب الصلاة الى الله صلاة داود: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثة وينام سدسه[2]

وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء. فزار سلمان ابا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها ما شأنك. قالت اخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال كل. قال اني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. قال نم. فنام ثم ذهب يقوم. قال نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان قم الآن فصليا. فقال له سلمان: ان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا، فاعط كل ذي حق حقه.

---

(١) بخاري، صوم، ٥٤ - ٥٥ (٢) بخاري، تهجد، باب من نام عند السحر.

فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صدق سلمان »[1]

ولم يقصّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذكر ربه حتى في فراشه لان ربه امره ان يذكره في نفسه تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال[2]، وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله[3]، وحرض امته على الذكر فقال: « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت »[4]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهتم أشد الاهتمام بتصفية القلب وتزكية النفس فيقول: « ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله، الا وهي القلب »[5] وعيّن لتزكية النفس درجة فوق

---

(١) بخاري، صوم، ٤٩

(٢) سورة الأعراف: ٢٠٥

(٣) بخاري، صلاة، باب من جلس في المسجد، زكاة، باب الصدقة باليمين.

(٤) خ، دعوات، ٦٧

(٥) خ، ايمان، ٣٩، مسلم- مساقاة ١٠٧ جه فتن، ١٤ دارمي، بيوع، ١

الايمان والاسلام بقوله: «الاحسان ان تعبد الله كأنك، تراه فان لم تكن تراه فانه يراك»[1]

وكان البعض من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفا بزهدهم وعبادتهم وخاصة أصحاب الصُّفَّةِ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوما لبلال من أصحاب الصفة عند صلاة الفجر: «يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته في الاسلام فاني سمعت دف (تحريك) نعليك بين يدي في الجنة. قال: ما عملت عملا ارجى عندي أني لم اتطهر طهورا في ساعة ليل أو نهار إلاّ صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن اصلي»[2]

وقال انس رضي الله عنه: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم لا عيش الا عيش الآخرة
فاغفر للأنصـــار والمهاجرة

---

(١) خ، ايمان، ٣ -٧ مسلم ايمان ٥٧

(٢) بخاري، تهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار.

فقالوا مجيبين له:

نحن الـــذين بايعوا محمـــدا
علـى الجهـاد مـا بقينا أبدا[١]

٤ - أدعيته:

(أ) آدابه في الدعاء

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه[٢] واذا رفع يديه في الدعاء لم يحطّهما حتى يمسح بها وجهه[٣]

ويدعو أحيانا موجها الى الجماعة واحيانا مستقبلا القبلة[٤] ويجتنب من السجع والتصنع. وأمر ابن عباس عكرمة ان يجتنب السجع في الدعاء فقال: فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فاني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه لا يفعلون ذلك[٥]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر العزم في الدعاء واليقين باستجابته فيقول: «اذا دعا أحدكم فليعزم

---

(١) خ، جهاد، ٣٣
(٢) خ، دعوات، ٢٣
(٣) بخاري، دعوات، ٢٤
(٤) ترمذي، دعوات، ١١
(٥) خ، دعوات، ٢٣

المسألة، ولا يقولن: اللهم ان شئت فاعطني فانه لا مستكره له[1]، ونهى الاستعجال في قبول الدعاء، فقال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت لم يستجب لي»[2]

وقال صلى الله عليه وسلم: «ادعو الله وانتم موقنون بالاجابة، واعلموا ان الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»[3]

وقال صلى الله عليه وسلم: «ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه»[4].

وكان عليه الصلاة والسلام اذا دعا - دعا ثلاثاً واذا سأل - سأل ثلاثا، واستفتح رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاءه بجملة: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب»[5]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يدعو ويقول: «ليس شيء اكرم على الله تعالى من الدعاء»[6] لأن الدعاء صلة وثيقة بين العبد وربه وكان «الدعاء مخ العبادة»[7] عنده.

---

(١) خ، دعوات، ٢١

(٢) خ، دعوات، ٢٣

(٣) ترمذي دعوات ٦٦

(٤) ترمذي، دعوات، ١

(٥) الترغيب والترهيب، ج٢ ص٤٨٤

(٦) ترمذي، دعوات، ١

(٧) ترمذي، دعوات،١

وقال: « ما من داع يدعو بدعاء الا آتاه الله ما سأل، أو كفّ عنه من السوء مثله مالم يدع بإثم او قطيعة رحم »[1]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « اللهم اني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع »[2]

وحرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله بكلّ زمان وخاصة بالحوادث الخطرة وحذرهم من الوثنية وما يجري مجراها. قال المغيرة بن شعبة: كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات ابنه ابراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت ابراهيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا رأيتم فصلوا وادعوا الله[3].

(ب) قبول دعائه

كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عند الله مستجابا، لأنه نبي الرحمة وحبيب الرحمن. فاذا أراد الله أمرا أن

---

(١) ترمذي، دعوات، ٩

(٢) ترمذي، دعوات، ٦٩

(٣) بخاري، كسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس،

يقضي حرك لسان رسوله فيدعوه فيجيبه. أريد أن أورد هنا بعض الأمثلة: قال ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس. اذ قال بعضهم لبعض: ايكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد. فانبعث اشقى القوم فجاء به حتى سجد النبي صلى الله عليه وسلم ووضعه على ظهره بين كتفيه وانا أنظر لا اغير شيئا لو كان لي منعه، قال فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض ورسول الله ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة (وهي جويرية) فطرحته عن ظهره فرفع رأسه ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات.. ثم سمى: اللهم عليك بابي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد ابن عتبة ،وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعد السابع فلم يحفظه وقال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله صلى الله عليه وسلم صرعى في القليب، قليب بدر »[1]

وروى البخاري عن مسروق: عن عبد الله بن مسعود

---

(١) بخاري، وضوء باب اذا القى على ظهر المصلي قذر، صلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي.

انه قال: ان النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس ادبارا قال: «اللهم سبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف وينظر أحدهم الى السماء فيرى الدخان من الجوع، فأتاه ابو سفيان فقال يا محمد: انك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم وان قومك قد هلكوا، فادع الله لهم. قال الله تعالى: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين الى قوله عائدون. يوم نبطش البطشة الكبرى»[1] فالبطشة يوم بدر. وقد مضت الدخان والبطشة وآية الروم[2]

وقال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبة (يوم بدر): اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم فاخذ ابو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر[3].

---

(١) سورة دخان: ١٠ - ١٦

(٢) بخاري، استسقاء، باب دعاء النبي عليهم سنين كسني يوسف.

(٣) بخاري، جهاد، ٨٨، باب قوله الله تعالى: اذ تستغيثون ربكم

وعن أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في يوم الجمعة، قام اعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا. فرفع يديه ثم قال: اللهم اغثنا، اللهم اغثنا، اللهم اغثنا. قال أنس: والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم امطرت، فلا والله ما رأينا الشمس ستا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب فاستقبله قائما - فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، قال فرفع رسول الله يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر، قال: فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس[1].

وكان عمه أبو طالب استسقى بوجهه قبل بعثته، وتمثل ابن عمر بشعر ابي طالب:

---

(١) بخاري، استسقاء. الاستسقاء في خطبة الجمعة

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى عصمة للأرامل[1]

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم النبي العباس فاسقنا فيسقون[2]. مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سليم فأتته بتمر وسمن، فقال: اعيدوا سمنكم في سقائه وتمركن في وعائه فاني صائم، ثم قام الى ناحية من البيت فصلى غير المكتوبة فدعا لام سليم وأهل بيتها. فقالت أم سليم: يا رسول الله ان لي حويجة: قال: ماهي، قالت خادمك أنس. فما ترك خير آخرة ولا دنيا الا دعا لي به. قال: اللهم ارزقه مالا وولدا وبارك له. فاني لمن أكثر الأنصار مالا وحدثتني ابنتي أمينة أنه دفن لصلبي مقدم حجاج البصرة بضع وعشرون ومائة[3]

قال جرير، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا

---

(١) بخاري، استسقاء.

اذا استشفع المشركون بالمسلمين.

(٢) بخاري، استسقاء.

(٣) بخاري، صوم، ٥٩، دعوات ٤٦

تريحني من ذي الخلصة- وهو نصب كانوا يعبدونه يسمى الكعبة اليمانية- قلت يا رسول الله اني رجل لا أثبت على الخيل، فصك في صدري فقال: اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا، قال: فخرجت في خمسين (فارسا) من أحمس من قومي، وربما قال سفيان: فانطلقت في عصبة من قومي، فاتيتها فأحرقتها ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله والله ما اتيتك حتى تركتها مثل الجمل الأجرب، فدعا لأحمس وخيلها[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه رجلا وأمر ان يدفعه الى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين الى كسرى فلما قرأه مزقه، فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق[2]

جـ - أدعيته في الصلاة ودبر الصلاة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الصلاة عند القعدة: «اللهم اني أعوذ بك من عذاب القبر. وأعوذ بك

(١) بخاري، دعوات، ١٩

(٢) بخاري. علم، باب ما يذكر في المناولة

من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات. اللهم اني أعوذ بك من المأثم والمغرم »[١]

وعلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يدعو في صلاته: « اللهم اني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب الا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم »[٢].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكت بين التكبير وبين القراءة اسكاتة، فسأله ابو هريرة عنه ما يقول حينذاك: أقول: « اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم نقني من الخطايا كما ينقي الثوب الابيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد »[٣]

وحدث شقيق عن عبد الله انه قال: كنا اذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، والسلام على فلان وفلان فقال النبي صلى الله عليه

---

(١) بخاري، صلاة، باب الدعاء قبل السلام

(٢) بخاري، صلاة باب الدعاء قبل السلام .

(٣) بخاري، صلاة، باب ما يقول بعد التكبير.

وسلم: لا تقولوا السلام على الله، فان الله هو السلام - ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فانكم اذا قلتم أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والأرض، أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم يتخير من الدعاء أعجبه اليه فيدعو[1]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بهؤلاء الكلمات دبر الصلاة فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن والهرم، وأعوذ بك ان أرد الى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر»[2] وكان عليه السلام يتعوذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء[3] وضلع الدين وغلبة الرجال[4]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دبر كل صلاة اذا سلم: «لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله

---

(١) بخاري، صلاة باب ما يتخير من الدعاء

(٢) بخاري، جهاد، ٢٥ - ٢٦

(٣) بخاري، دعوات، ٢٨

(٤) خ، دعوات، ترمذي، دعوات، ٧١

الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قالوا يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم. قال كيف ذاك؟ قالوا صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال. قال: أفلا أخبركم بأمر تدركون من كان قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم الا من جاء بمثله: تسبحون في دبر كل صلاة عشرا وتحمدون عشرا وتكبرون عشرا »[2].

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو: « رب اغفر لي خطيئتي وجهلي واسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير »[3]

وقال ابن عباس: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) بخاري، دعوات، ١٨

(٢) بخاري، دعوات، ١٨

(٣) بخاري، دعوات، ٥٩

يقول ليلة حين فرغ من صلاته: «اللهم أني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء

اللهم اعطني ايمانا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة. اللهم أني أسألك الفوز في العطاء (أو في القضاء) ونزل الشهداء، وعيش السعداء والنصر على الأعداء. اللهم إني أُنزل بك حاجتي وان قصر رأيي وضعف عملي افتقرت الى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور. اللهم ما قصر عنه رأيي ولم تبلغه نيتي ولم تبلغه مسألتي من خير وعدته أحدا من خلقك أو خير أنت معطيه أحدا من عبادك فاني أرغب اليك فيه، وأسألكه برحمتك يا رب العالمين. اللهم ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود الركع السجود الموفين بالعهود،

انك رحيم ودود ، وانت تفعل ما تريد . اللهم اجعلنا هادين مهتـدين غير ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك وعدوا لأعدائك ، نحب بحبك من احبك ، ونعادي بعداوتك من خالفك . اللهم هذا الدعاء وعليك الاستجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان اللهم اجعل لي نورا في قبري ، ونورا في قلبي ، ونورا من بين يدي ، ونورا من خلفي ، ونورا من يميني ، ونورا عن شمالي ، ونورا من فوقي ، ونورا من تحتي ونورا في سمعي ، ونورا في بصري ، ونورا في شعري ، ونورا في بشري ، ونورا في لحمي ، ونورا في دمي ، ونورا في عظامي ، اللهم أعظم لي نورا ، وأعطني نورا ، واجعل لي نورا ، سبحان الذي تعطّف العز وقال به ، سبحان الذي لبس المجد وتكرّم به ، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح الا له ، سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي المجد والكرم ، سبحان ذي الجلال والأكرام[1]

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم : «رب أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر علي ، واهدني ، ويسر لي ، وانصرني على من بغى عليّ ، رب اجعلني

---

(١) ترمذي ، دعوات ، ٣٠

لك شكارا، ولك ذكارا، لك رهابا، لك مطواعا لك مخبتا، اليك أواها منيبا. رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري»[1]

د - أدعيته في ليله ونهاره

وصى النبي صلى الله عليه وسلم المسلم بالدعاء حينما يريد النوم كما يلي: «اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الايمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي اليك، وفوضت أمري اليك. وألجأت ظهري اليك، رغبة ورهبة اليك، لا ملجأ ولا منجا الا اليك. اللهم آمنا بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت. فان مت من ليلتك فانت على الفطرة واجعلهم آخر ما تتكلم به»[2]

وعلى رواية عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا أخذ مضجعه نفث في يديه وقرأ بالمعوذات ومسح بها جسده

---

(١) ترمذي، دعوات، ١٠٣

(٢) بخاري، وضوء، باب فضل من بات على الوضوء، دعوات، ٦، ٧، ٩، ترمذي، دعوات، ١٦

وكان صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن ينام وضع يده تحت رأسه ثم قال: « اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك »[1]

وقال صلى الله عليه وسلم: اذا أوى احدكم الى فراشه فلينفض فراشه بداخله ازاره، فانه لا يدري ما خلفه عليه ثم يقول: باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه، ان أمسكت نفسي فارحمها، وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين »[2] وقال حذيفة: كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اوى الى فراشه قال: « باسمك أموت وأحيا » واذا قام قال: « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور »[3]

وكان عليه الصلاة والسلام اذا قام الى الصلاة من جوف الليل يقول: « اللهم لك الحمد وأنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والارض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق،

---

(١) ترمذي، دعوات، ١٨

(٢) بخاري، دعوات، ١٣

(٣) بخاري، دعوات، ٧، ٨

والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر ولا اله الا انت »[1]

وكان يقول في وتره: « اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك »[2]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاثا، لم يضره شيء »[3]

وعن علي بن أبي طالب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قام الى الصلاة قال: « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين. ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك

---

(١) بخاري، تهجد، ١، دعوات، ١٠، مسلم، مسافرين، ٢٦ ترمذي، دعوات، ٢٩

(٢) ترمذي، دعوات، ١١٣

(٣) ترمذي، دعوات، ١٣، هذا الحديث غريب،

أمرت وأنا أول المسلمين... اللهم أنت الملك لا الله الا انت، وأنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا انه لا يغفر الذنوب الا أنت، واهدني لأحسن الاخلاق لا يهدي لأحسنها الا أنت، واصرف عني سيئها، انه لا يصرف عني سيئها الا أنت. آمنت بك، تباركت وتعاليت، استغفرك واتوب اليك. فاذا ركع قال: اللهم لك ركعت، وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي وعظامي، وعصبي، فاذا رفع رأسه قال: اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات والأرضين وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء. فاذا سجد قال: لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين، ثم يكون آخر ما يقول بين التشهد والسلام: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت »[١]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله ولا اله الا الله وحده لا شريك

---

(١) ترمذي، دعوات، ٣٢

له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . أسألك خير ما في هذه الليلة وخير مابعدها ،وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها . وأعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، وأعوذ بك من عذاب النار وعذاب القبر » فاذا أصبح قال ذلك أيضا :« أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله ... »[1]

وعلم صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يقول اذا أصبح واذا أمسى فقال: « قل: اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ، رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا اله الا انت ، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه ، قال: قله اذا أصبحت واذا أمسيت واذا أخذت مضجعك »[2]

وكان يأمر أصحابه أيضا أن يقولوا عند أخذ المضجع: « اللهم رب السموات ورب الأرضين ، ربنا ورب كل شيء ، وفالق الحب والنوى ومنزل التوراة والانجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت

---

(١) ترمذي، دعوات، ١٣.

(٢) ترمذي، دعوات، ١٤

الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين واغنني من الفقر »[1]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر الاستغفار ويقول: « اني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة »[2]

وعلم صلى الله عليه وسلم شداد بن أوس سيد الاستغفار فقال: « ألا أدلك على سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا اله الا أنت ، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوءُ اليك بنعمتك علي واعترف بذنوبي فاغفر لي ذنوبي ، انه لا يغفر الذنوب الا أنت »[3]

وهذا من تسبيحه صلى الله عليه وسلم:

« سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله عدد خلقه .

سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله رضا نفسه ،

سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله زنة عرشه .

---

(١) ترمذي ، دعوات ١٩

(٢) بخاري ، دعوات ، ٣

(٣) بخاري ، دعوات ، ٢ ، ١٦

سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته »[1]

وسألت عائشة رسول الله ﷺ: اي دعاء تدعو اذا علمت اي ليلة ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: اللهم انك عفو كريم تحب العفو فاعف عني.[2]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا خرج من بيته: « بسم الله توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك من ان نَزِلّ، أَوْ نَضِلّ، أَوْ نَظْلم، أَو نَجْهَل، أَوْ يُجْهَل علينا[3]

وكان صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يدخل الخلاء قال: « اللهم اني أعوذ بك من الخبث والخبائث »[4] واذا دخل السوق قال: « اللهم اني أسألك من خير هذا السوق وخير ما فيها »[5]

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: اذا سافر: « اللهم انت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم اني أعوذ بك

---

(١) ترمذي، ١٠٤

(٢) ترمذي، دعوات، ٨٥

(٣) ترمذي، دعوات، ٣٥

(٤) بخاري، وضوء باب ما يقول عند الخلاء

(٥) ترمذي، دعوات، ٤٢

من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا، ومن الحور بعد الكور، ومن دعوة المظلوم ومن سوء المنظر في الأهل والمال »[1] وكان عليه الصلاة والسلام اذا ركب راحلة كبر ثلاثا وثلاثين يقول: سبحان الذي سخر لنا هذه وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون[2]

وكان صلى الله عليه وسلم اذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الارض ثلاث تكبيرات ثم يقول: « لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده »[3]

واذا قدم من سفر يدخل المسجد ويصلي ركعتين[4]

وكان صلى الله عليه وسلم اذا ودع رجلا أخذه بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل يدع النبي عليه الصلاة والسلام

---

(١) ترمذي، دعوات، ٤٢

(٢) ترمذي، دعوات، ٤٧

(٣) بخاري، دعوات، ٥١

(٤) بخاري، جهاد، باب الصلاة اذا قدم من السفر.

ويقول: «استودع الله دينك وأمانتك وآخر عملك»[1]

وكان صلى الله عليه وسلم لا يقاتل أول النهار بل يؤخر القتال حتى تزول الشمس وانه صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس قال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فاذالقيتموهم فاصبرواواعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال: اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم[2]

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب على المشركين قال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»[3].. وعلى رواية قتادة عن أنس كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا غزا قال: «اللهم انت عضدي وانت نصيري وبك اقاتل»[4]

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، قال: «اذا هم (احدكم) بالامر فليركع ركعتين ثم يقول: اللهم اني استخيرك بعلمك

---

(١) ترمذي، دعوات، ٤٤

(٢) بخاري، جهاد، ١١١

(٣) بخاري، جهاد، ٩٦

(٤) ترمذي، دعوات، ١٢٢

واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فانك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم ان كنت تعلم ان هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال في عاجل أمري وآجله) فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال في عاجل أمري وآجله) فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ويسمي حاجته »[١]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا رأى الريح: قال: « اللهم اني أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما ارسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما ارسلت به »[٢]. واذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: « اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك »[٣].

واذا رأى الهلال قال: « اللهم أهلَّه علينا باليمن والايمان والسلامة والاسلام، ربي وربك الله »[٤].

---

(١) بخاري، تهجد، ٢٥، دعوات، ٤٩، ترمذي، وتر، ١٨، ابن ماجة، اقامة، ١٨٨

(٢) ترمذي، دعوات، ٤٩

(٣) ترمذي، دعوات، ٥٠

(٤) ترمذي، دعوات، ٥١

وكان يوصي عند الغضب أن يقال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» عن سليمان بن صرد قال: كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان، فاحدهما احمر وجهه وانتفخت أوادجه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام اني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقالوا له: ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: تَعَوَّذْ بالله من الشيطان، فقال: وهل بي جنون»[1]

وكان الناس اذا رأوا أول الثمار جاءوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم بارك لنا في ثمارنا وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا ومدنا. اللهم ان ابراهيم عبدك وخليلك ونبيك، واني عبدك ونبيك، وانه دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه» ثم يدعو أصغر وليد يراه، فيعطيه ذلك الثمر[2]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أكل أو شرب قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»[3]، واذا رفعت المائدة من بين يديه قال: «الحمد لله حمدا كثيرا،

---

(١) بخاري، بدء الخلق، باب صفة ابليس وجنوده.

(٢) دعوات، ٥٤

(٣) ترمذي، دعوات، ٥٦

طيبا مباركا فيه، غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا »[١]

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالقول ما يقول المؤذن عند الاذان فقال: « اذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن[٢]، وقال عليه الصلاة والسلام: « من قال حين يسمع النداء (أي الاذان): اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة »[٣]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « اذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فانها رأت ملكا، واذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم، فانه رأى شيطانا »[٤].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « من لبس ثوبا جديدا فقال: « الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي، ثم عمد الى الثوب الذي اخلق فتصدق به، كان في كنف الله وفي حفظ الله وفي ستر الله حيا وميتا »[٥]

---

(١) ترمذي، دعوات، ٥٦

(٢) بخاري، صلاة، باب الدعاء عند النداء.

(٣) بخاري، صلاة، باب الدعاء عند النداء

(٤) ترمذي، دعوات، ٥٧

(٥) ترمذي، ، دعوات، ١٠٨

وعلّم صلى الله عليه وسلم غريما من الكتابة أن يقول: « اللهم اكفني بحلالك عن حرامك واغنني بفضلك عمن سواك »[1]

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو للصبيان بالبركة ويمسح رؤوسهم[2] قال: السائب بن يزيد: ذهبت بي خالتي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ان ابن اختي وجع، فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة، ثم توضأ فشربت من وضوئه، ثم قمت خلف ظهره فنظرت الى خاتمه بين كتفيه مثل زر الحجلة[3]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَوِّذُ الحسن والحسين ويقول: « ان أباكما كان يعوذ بها اسماعيل واسحق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة »[4]

وقالت عائشة رضى الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى ويقول: « اللهم

---

(١) ترمذي، دعوات، ٣١

(٢) بخاري، دعوات، ٣١

(٣) بخاري، دعوات، ٣١

(٤) بخاري، بدء الخلق، باب ما يزفون النسلان في المشي.

أذهب البأس اشفه وأنت الشافي، لا شفاء الا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما[1] وكان يقول في الرقية أيضا« تربة أرضنا، وريقة بعضنا، يشفي سقيمنا، بإذن ربنا »[2]

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو عند الكرب: لا اله الا الله العظيم الحليم، لا اله الا الله رب العرش العظيم، لا اله الا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم »[3]

وقال أنس رضى الله عنه: « ان النبي صلى الله عليه وسلم عاد رجلا قد جهد حتى صار مثل الفرخ، فقال له: أما كنت تدعوه أما كنت تسأل ربك العافية؟ قال: كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: سبحان الله، انك لا تطيقه أو لا تستطيعه، أفلا كنت تقول: « اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »[4]

ومنع النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني الموت فقال: « لا يتمنين أحدكم الموت من ضر اصابه، فان كان لا بد فاعلا

---

(١) بخاري، طب، رقية النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) بخاري، طب، رقية النبي، ترمذي، دعوات، ١١٢

(٣) بخاري، دعوات، ٢٧، ترمذي، دعوات ٤٠

(٤) ترمذي، دعوات، ٧٢

فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي، »[1]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل انا لله وإنا اليه راجعون، اللهم عندك احتسبت مصيبتي فاجرني فيها وأبدلني منها خيرا »[2]

هكذا كانت أوقات رسول الله صلى الله عليه وسلم مليئة بالعبادة والذكر والقراءة والدعاء والشغل بأمور المسلمين. وحب الله قد نفذ في أعماق بدنه وروحه. وكان صلى الله عليه وسلم يرى كل شيء ما خلا الله باطلا، ويقول: أصدق بيت قاله شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل[3].

فهذا الحب الإلهي قد أفناه عن بشريته وأبقاه ببقاء الله وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحال بقوله: « ان الله قال لي: « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب اليّ عبدي بشيء أحب الي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به

---

(1) بخاري، طب، ١٧

(2) ترمذي، دعوات، ٨٤

(3) بخاري، رقاق، باب الرجاء من الخوف.

ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وان سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ،وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته »[١]

وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه بعث رحمة للعالمين. وانه لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على اصحابه شديدا فقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: اني لم أبعث لعانا ولكني بعثت داعيا ورحمة للعالمين، ودعا لأعدائه: اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون »[٢] وقال: « ان اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة »[٣].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، ان دوسا عصت وأبت فادع عليها، فظن الناس أنه يدعو عليهم، فقال: « اللهم اهد دوسا وأت بهم »[٤].

واختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم باكبر دعائه ليوم

---

(١) بخاري، رقاق باب التواضع

(٢) الشفاء في تعريف حقوق المصطفى، ص ٨١، مسلم، جهاد، ١٠٤ – ١٠٥

(٣) مسلم، بر، حديث: ٨٦

(٤) بخاري، دعوات، ٥١، جهاد، ٩٩

القيامة شفاعة لأمته وقال صلى الله عليه وسلم: «لكل نبي دعوة يدعو بها وأريد أن اختبىء دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة»[1]

وقال صلى الله عليه وسلم: «ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فامسك عنده تسعا وتسعين رحمة وارسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[2]

فلا يأس ولا قنوط في دين رسول الرحمة، لان الله تعالى أمره أن يبشر عباده برحمته التي سبقت غضبه فقال: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، ان الله يغفر الذنوب جميعا، انه هو الغفور الرحيم»[3]

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم رحمة الله تعالى بقوله: «ان الله حين خلق الخلق كتب بيده على نفسه: ان رحمتي تغلب غضبي»[4]

وخَيَّر الله نبيه بين الدنيا والآخرة، فلم يلتفت الى

---

(١) بخاري، دعوات، ١

(٢) بخاري، رقاق، باب الرجاء مع الخوف.

(٣) سورة الزمر: ٥٣

(٤) ترمذي، دعوات، ١٠٠

الدنيا ورجح الآخرة والرفيق الأعلى. عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صحيح يقول: انه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخير، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: « اللهم في الرفيق الأعلى». فقلت: اذا لا يجاورنا فعرفت أنه حديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح[1]. وسمعت عائشة النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند وفاته: اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى »[2]

فعلى الانسان ان يرجع الى طريق الرسول الله صلى الله عليه وسلم ويلجأ الى الله ويتوب اليه، ولا يتقيد بالعلائق الدنيوية وبأوامر النفس الأمارة بالسوء وقد وصف جلال الدين الرومي رحمة الله الواسعة.. شعراً:

بازا، بزا هر جه را هستي بازا
كر كافرو كبرو بتبرستي بازا
اين دركه ما دركه نوميدي نيست

(١) بخاري، كتاب النبي صلى الله عليه وسلم. باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم، ترمذي، دعوات، ٢٩

(٢) المصدر السابق: ٧٧.

صد هزار توبة شكستي بازا

يقول مولانا جلال الدين في هذا النظم:

يا انسان، لا تيأس من رحمة الله، وان كنت كافرا، أو مجوسيا، أو وثنيا، فاسع الى دين الله ولا تبق في الباطل.

هذه زاويتنا ليست زاوية اليأس والقنوط، وان كسرت التوبة مائة ألف مرة فتب الى الله ولا تقنط من رحمة الله، لأن الله يغفر الذنوب جميعا عدا الشرك، اذا فلا تبق في الباطل وتعال إلى الحق.

وأريد أن اختتم قولي بشعر الشيخ سعدي الايراني في وصف سيدنا ونبينا ومولانا أفضل صلوات الله وأكمل تحياته عليه:

جه غم ديوار امتراكه جون توبشتيبان

جه باك ازموج بحران راكه جون نوح كشتيبان

معناه: أي حزن يكون لجدار أمة الذي أنت مسنده.

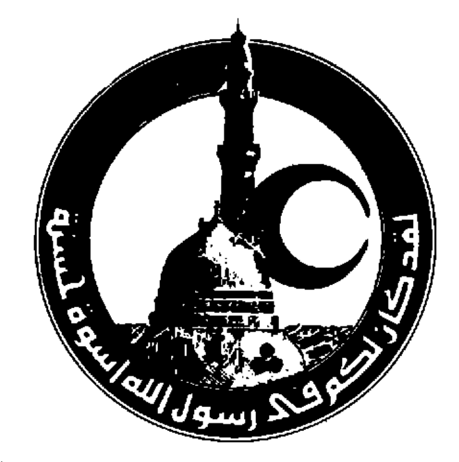
وأي هم لركاب السفينة من أمواج البحر التي كان نوح عليه السلام ملاحها.

ونصلي ونسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين والحمد لله رب العالمين

وسلام الله ورحمته عليكم أجمعين

الجانب الخلقي للنبيّ الكريم ﷺ

للدكتور الحاج عبدالملك عبدالكريم أمرالله
" أندونيسيا "



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الجانب الخلقي للنبي الكريم.

بقلم / الحاج عبد الملك عبد الكريم أمر الله.

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة - والصلاة والسلام على من أرسله الله للعالمين نعمة ورحمة - وعلى آله وصحبه الكرام البررة - رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا - عليها نحيا وبها نموت وعليها نبعث ان شاء الله تعالى من الآمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أما بعد، فيا أيها السادة، اخوتي في الدين والملة لقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بأيدينا وأرشدنا وهدانا الى كل ما فيه سعادتنا وبعد مماتنا. فكان حقا رحمة للعالمين، وذلك في مدة وجيزة أي في ثلاثة وعشرين عاما بعد بعثه ونبوته الى أن اختاره الله الى جواره وعمره ثلاث وستون سنة.

ورغم مضي أربعة عشر قرنا على انقضاء رسالته حتى يومنا هذا فاننا ما زلنا نشعر في قلوبنا وقوالبنا بحسن قيادته وسحر تعاليمه.

أجل، لقد مضى أربعة عشر قرنا على نهوضه بأمانة ربه وأداء رسالتـه ولكن بقيت تعاليمه وتوجيهاته تؤثر في حياة أمته وتضفي عليها أسطع الأضواء، كما بقيت مكارم أخلاقه ومعالم سنته وهديه منهجا واضحا تسلكه أمته نبراسا تستضيء بنوره.

لقد قضى الرسول صلى الله عليه وسلم وانتقل الى الرفيق الأعلى، ولكن سيرته وأخلاقه ظلت خالدة في القلوب والأعماق. ولم يشهد التاريخ ولا الكتب المنزلة الثلاثة مدحا من عند الله موجها لنبي أو رسول قبله مثل ما خصه الله في القرآن الكريم بقوله في حقه: (وانك لعلى خلق عظيم)..

وعندما سأل أحد الصحابة أحب أزواجه اليه أم المؤمنين عائشة عن أخلاقه صلى الله عليه وسلم أجابت: كان خلقه القرآن. ولما كانت أخلاقه في غاية السمو ومنتهى الكمال طالب الله كل واحد منا يؤمن بشريعته أن يقتدى به ويستن بسنته فقال جل وعز: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر)...

كيف لا نحبك ونتفانى في الثناء عليك يا رسول الله، أم كيف لا نصلى ونسلم عليك كلما ذكر اسمك يا حبيب الله؟

اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وعلى الرغم من هذا الحب والوفاء ودوام الصلاة عليه والثناء فاننا لا نعبده أو نسجد له كما فعل الضالون تجاه نبيهم:

دع ما ادّعته النصارى في نبيهم- .

واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

كلا، لم يدع محمد لنفسه الا كما حكى الله عنه في القرآن وأمره به: (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ).

لقد زعم النصارى واعتقدوا بألوهية المسيح ابن مريم وأنه «ابن الله» فعجزوا عن تقليده والتخلق بأوصافه إذا أنهم أقاموا بأنفسهم حاجزا بينهم وبين الههم وعبدوه، فأنى للعبد أن يقلد معبوده ويتصف بصفاته.

أما نحن معاشر المسلمين فقد هدانا الله للتوحيد وبفضل علم التوحيد الذي تلقيناه عرفنا الله وغرقنا في محبته، ولأجل أن يجازينا على حبنا له بحب من عنده فقد أمرنا الله باتباع رسوله فقال: (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)..

لقد أمرنا الله أن نقتدي بسنة رسوله والتخلق بأخلاقه

ولم يأمرنا بعبادته. أمرنا بالاقتداء به على قدر طاقتنا حتى لا تفارق أرواحنا أجسادنا الا وقد قلدنا كثيرا من فضائل هذا الرسول وشمائله على قدر ما أوتينا من امكان.

لقد غرست جذور الأخلاق الكريمة ورسخت في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظفاره. وحماه الله من رذائل الأخلاق وسفاسف الأمور والألعاب ارهاصا لنبوته ومستقبله العظيم. فقد حدث وهو في عنفوان شبابه وفتوته أن دعاه زملاؤه من الشباب لمشاهدة حفلة غناء ورقص في احدى الليالي بأحد الأحياء خارج مكة. فذهب معهم مجاملة لهم وتلطفا، ولكن الله ألقى النعاس على جفنيه ونام ولم يستيقظ الا بعد انتهاء السمر والحفلة وعاد معهم الى منزله ولم يعلم بما جرى وما تمتع به رفاقه من هوايات الشباب.

ولما احتدم النزاع بين رؤساء قريش فيمن يضع الحجر الأسود في الكعبة ادعى كل منهم أنه أحق بوضعه من غيره حتى كاد أن ينتهي الأمر الى القتال؛ لولا أن الله ألهمهم للاتفاق على أن أول داخل للمسجد يكون هو الواضع. ولما أسفر الصباح طلع عليهم محمد بوجهه المشرق فقالوا: هذا محمد «الأمين» رضينا به حكما عدلا..

ومنذ ئذ ثبت هذا اللقب الكريم في شخص محمد ولم يكن نبيا بعد. وما خابوا وما خسروا في منحهم اياه هذا اللقب اذ كان محمد نعم الحكم العدل فقد نشر رداءه الشريف ووضع الحجر في وسطه. وطلب من رئيس كل قبيلة لقريش أن يمسك بطرف من الرداء وأمرهم برفعه الى قرب الكعبة، ثم أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم ووضعه بيده الشريفة في محله الآن بالكعبة. ففرح القوم بتصرف الرسول وانحسم الخلاف بفضل حكمته ولباقته.

لقد طبع الله خلق الأمانة في قلب محمد قبل أن يبعث نبيا بمدة بعيدة. بل لقد غرس الايمان مع الأمانة في آن واحد. والايمان ينتج الأمانة من تلقاء نفسه كما أن الأمانة احدى الصفات الأربع التي خص بها الأمين محمد وهي الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة.

وخاصة وقد رسخ الايمان والأمانة في قلبه لا جرم أنه نال أعلى درجة يمكن للانسان أن ينالها؛ في حين أن السموات والأرض والجبال يعجزن عن حمل الأمانة (فحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) - الا محمدا وحده، فقد برهن على كفاءته وقدرته.

وفي حياته اليومية لم يعزل محمد نفسه عن اخوانه بل عاش بين ظهرانيهم ومما قاله: «ان الله يبغض الرجل الوحداني».

ففي غزوة الخندق وعندما أراد المشركون أن يغيروا على المدينة شارك الرسول أصحابه في حفر الخندق فكان يحمل الحجارة وينقلها كما فعل أصحابه تماما. وعند بدء قيامة بنشر الدعوة بمكة صدع بأمر الله ليل نهار يدعو الناس الى الصراط المستقيم والدين القويم. واذا رجع الى أهله في الصباح وسأل زوجته عن طعام يفطر به فاذا كان جوابها النفي قال: اذا أنا صائم. حدث هذا مرارا وتكرارا.

ولم يبد الرسول صلى الله عليه وسلم أي امتعاض أو استياء رغم جوعه. بل بالعكس أظهر استعداده للاستمرار على الجوع يوما كاملا. وهذا شرع في الاسلام الى يومنا هذا الاذن في نية صوم التطوع بعد شروق الشمس وقبل تناول شيء من طعام أو شراب.

ولم يعهد أن يذكر الرسول أصحابه كمريديه وتلاميذه بل كان يدعوهم أصحابه (والصاحب بالجنب) فهل عجب أن يتفانى كل صحابي في محبته والموت فداء له؟ (فداك أبي وأمي يا رسول الله).

وحيث أنه يناديهم بالأصحاب أصبحوا أقرب قريب الى نفسه . حتى ان خادمه ثوبان الذي كان يخدمه ليلا ونهارا وفارقه يوما من الأيام كان لا يستطيع اغماض جفنيه للنوم ليلا لدوام ذكراه للرسول المفدي صلى الله عليه وسلم .

فلما صلى الصبح مع الرسول في المسجد أقبل عليه وعلى وجهه آثار البكاء .

فسأله الرسول: ما يبكيك يا ثوبان؟ أجاب: أبكي لأني فارقتك ليلة وكأنما فارقتك دهرا ولم تذق عيناي طعم النوم لأني أذكرك دائما فقلت في نفسي: «اذا لم أستطع أن أنام لفراقك ليلة واحدة في هذه الدنيا فما بالي في الآخرة حينما تكون مع الأنبياء والمرسلين بينما لو قدر لي دخول الجنة كنت في المقام الأدنى من مقامك فأنى لنا أن نلتقي يا رسول الله؟ فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول المفسرون ان شكوى ثوبان وانهار دموعه كانت السبب في نزول الآية: ٦٩ من سورة النساء :(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

فما أعظم قدر من كان سببا في نزول هذه الآية ، أعني ثوبان

حتى فرج الله همه وأزال شكواه وبشره بنيل بغيته، وما أجل مقام كل من أطاع الله ورسوله..

واذا نال أبو بكر الشرف العظيم بتلقيبه بالصديق، وفاز عمر بلقب الفاروق، وحاز عثمان لقب ذي النورين والهجرتين وامتاز علي بشرف كرم الله وجهه؛ فان ثوبان قد تكامل له الشرف لأن الله أنزل الآية المذكورة من أجل تسليته وقرب مجلسه من حبيبه وان لم تصرح الآية بذكر اسمه.

وثمة صحابي آخر نال قمة الشرف لأن اسمه فقط مسجل في الذكر الحكيم، وقد تبناه الرسول في صغره حتى دعاه الناس (ابن محمد) انه زيد بن حارثة. اشترته السيدة خديجة الكبرى في سوق العبيد وأهدته للرسول. فأعتقه وتبناه ثم زوجه من أم أيمن جاريته الحبشية وبعد موتها زوجه من ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب وهي زينب بنت جحش التي تزوجها الرسول بأمر ربه (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) .. الأحزاب ٣٧

ان زيدا هو الصحابي الوحيد المذكور اسمه في القرآن، وان له كامل الحق في نيل هذا الشرف اذ كان أحد الخمسة السابقين الى الاسلام والايمان بمحمد بعد خديجة وعلي وأبي بكر وبلال بن رباح..

كان زيد بن حارثة مطيعا للرسول ومتفانيا في خدمته ونصرته.. ولم يكن عبثا حصوله على هذا الشرف المؤبد بل كان جديرا به أيما جدارة. فقد استشهد في معركة الجهاد في سبيل الله مع عبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب رئيس المهاجرين الى الحبشة، وهو الملقب أيضا بالطيار الذي سوف يطير بجناحيه كما أخبر الرسول لأن يديه قطعتا وهو يحمل الراية في موقعة مؤتة فبشره بابدالها بجناحين في الجنة... هو أيضا شقيق علي بن أبي طالب وكفى.

أيها الأخوة الأعزاء....

أربعة عشر قرنا مضت على وفاة الرسول العظيم وما أبعد ما بيننا وبين عهده، بيد أن سيرته وأخلاقه ما زالت ماثلة نصب أعيننا نحس بها ونشعر بلمساتها، ذلك سادتي لأنه صلى الله عليه وسلم يحبنا بحب أمته سواء من عاصروه في حياته أو الذين جاءوا من بعده قرونا وآلافا من السنين بعد وفاته. فيا بخت من آمنوا به ونصروه من المهاجرين والأنصار أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومائة وعشرين ألفا غيرهم من الصحابة.

فقد قال الرسول مرة: (طوبى لمن رآني وآمن بي) رضي الله تعالى عنهم وحشرنا معهم آمين.

كان لهذا الحديث الشريف واقعه وأثره في قلوب أمته التي جاءت من بعده فاننا جميعا أنا وحضراتكم - مع مئات الملايين من اخواننا المسلمين في أنحاء المعمورة نشعر بألم يحز في نفوسنا ونتسائل: ما حظنا ونصيبنا من هذا الشرف الذي حازه القوم في عهد الرسول[1]؟ واذا بتمام الحديث يقول: (طوبى ثم طوبى - كررها سبع مرات - لمن آمن بي ولا يراني).

وسرعان ما شعرنا بالسعادة تملأ جوانب قلوبنا لهذه البشارة العظيمة فأي قلب هذا القلب الذي يملكه هذا المحب العظيم لأمته. فلقد خلت أربعة عشر قرنا على وفاته غير أنه لا ينسانا بل يشملنا برعايته وحنانه وحبه.. فرغم عدم رؤيتنا له فان الله يتقبل ايماننا كما تقبله من أسلافنا السابقين الأولين ما دمنا صادقين في هذا الايمان ومخلصين له الدين. فباب الله مفتوح أمامنا كما كان مفتوحا أمام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي مع مائة وعشرين ألفا آخر من أصحاب هذا الرسول الكريم.

فميدان التضحية مفتوح للجميع.. بل سبق أن قال

(١) حيث آننا لم نره قط ولم نعش في عهده؟

(أمتي كالمطر لا يدرى أأولها خير أم آخرها) وهذا مطابق لما وعد الله به في كتابه: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طيبة) فالآية هذه سارية المفعول نافذة في كل زمان سواء في حياة الرسول أو في زماننا هذا حتى قيام الساعة.

ونلتقي مرة أخرى بآية كريمة في سورة الجمعة (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وتجيء الآية التي تليها تفتح أبواب الأمل على مصاريعها لكافة أجناس المؤمنين البشر التي جاءت بعد قرون الرسول صلى الله عليه وسلم واستمرت مفتوحة ما دامت السماء سماء والأرض أرضا.

فقد أردف المولى الآية السابقة بقوله: (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وتدخل في عموم هذه الآية كل الأمم أبيضها وأسودها عربها وعجمها..

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره أنه يدخل في الآية الأولى المؤمنون المعاصرون للنبي، وفي الآية التالية الأمم

التي جاءت من خلفهم وآمنت به. ويقول الرازي أيضا: المراد بالأميين العرب وبآخرين منهم العجم الذي لم يروا الرسول.. وهنا عادت بي الذكرى الى ما حدث لي منذ عشرات السنين الماضية عندما صليت في المسجد النبوي بالمدينة.

كنت حينئذ جالسا أتفكر بعد أن صليت تحية المسجد منتظرا قيام الامام لصلاة الجماعة. جلست في صحن المسجد عن شمال ضريح صاحب الرسالة عليه صلوات الله وسلامه. وبدون أن أشعر دمعت عيناي فقلت: يا رسول الله، ها أنذا واحد من أمتك جاء من فج عميق ومن أصل عجمي.. انني من أمتك الداخلة في مضمون قول الله تعالى: (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم).. فاقبلني يا رسول الله كأحد من أمتك، ومهما قَلّ ما قدمته من أعمال فان أمرا واحدا قد لصق بقلبي وتوغل في أحشائي ألا وهو حبك في نفسي وعزمي على اتباع سنتك ابتغاء مرضاة الله..

أيها الأخوة الأجلاء...

جاء في بعض الروايات وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ان كل واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم يرى نفسه أقرب الناس اليه وأحبهم لديه. وها قد مضى الى اليوم أربعة عشر قرنا على وفاته. فبفضل هذه العبارة الالهية (لما يلحقوا بهم) شعرت وأنا العبد الضعيف العاجز المقصر أن الرسول يحبني حقا. وكلما تلوت هذه الآية رفعت يدي وناجيت ربي وقلت بكل اخبات وخشوع وتضرع: «اللهم اجعلني منهم يا كريم».

ان محبة الرسول لأمته تفوق محبتها له بمراحل. وهنا تذكرت بمشروعية الأضحية في يوم النحر فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم ذبح شاتين، الأولى عن نفسه والأخرى عن أمته صدقة منه على فقراء أمته العاجزين عن تقديم الأضاحي لفقرهم، وكيف يضحون لغيرهم وهم عاجزون عن اطعام أنفسهم واشباع عيالهم؟ أدرك الرسول هذا بنظره الثاقب، فضحى عن نفسه ثم عن فقراء أمته.. وبذلك انشرحت صدورهم واشتفى غليلهم لأن الرسول ذبح بيده الشريفة أضحيتهم بالنيابة عنهم.... أما الأغنياء والمقتدرون فان باب التضحية مفتوح لهم على الدوام.

كل هذا ان دل على شيء فانما يدل على أنه حقا (لعلى خلق عظيم) وأنه يحب الفقراء والمساكين، بل علاوة على

ذلك يعتبر نفسه واحدا منهم. ألم يقل في بعض ابتهالاته الى ربه كما رواه الترمذي وابن ماجة: «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين». وبصفته زعيما كبيرا واماما مؤيدا بوحي من الله، فقد أدخل نفسه في عدد الفقراء والبؤساء، ورغم هذا فقد ألقى عليهم درسا تربويا عميقا.

حدث أن مد سبطه الحسين يده الى تمرة الصدقة وأدخلها فمه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كخ، كخ، ان هذه الصدقة لا تحل لي ولا لأهل بيتي انما هي أوساخ الناس».

فمهما يكن المرء فقيرا فان الرسول علمه أن يبقى عفيفا مترفعا نزيها (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا) وفي ظروف فقره العظيم (لا الفقر السافل) وايثاره حياة التقشف على حياة الرخاء طالما علمنا أن ندعو بهذا الدعاء: «اللهم اني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين».

الى جانب هذه الأخلاق السماوية كان صلى الله عليه وسلم وهو البطل الأكبر وقائد الجيش الأعلى متواضعا حليما

واسع الصدر يأخذ العفو ويأمر بالمعروف رغم القدرة على الانتقام من عدوه الألد. ففي احدى الغزوات عندما اشتد به تعب القتال ونام تحت شجرة يتفيأ ظلالها، اذا بقائد المشركين دعثور قد فاجأه بسيفه المسلول وهدده بقوله: من يمنعك مني يا محمد؟ لم يكن محمد البطل جبانا أو رعديدا ولم يرتبك قط ولو في أحرج المواقف بل أجاب هادئا وقورا رابط الجأش: «الله»، ردد الفضاء صدى قوله صلى الله عليه وسلم «الله» هذا عبر الجبال والآكام والصخور ،وصار يرمي بشرر الخوف والهيبة الى قلب كل جاحد عديم الايمان بل الى قلب القائد دعثور بالذات.

وسقط السيف من يد دعثور من جراء هول الموقف وشدة الرعب. وسرعان ما أخذه الرسول وقال: «من يمنعك مني يا دعثور؟ قال: لا أحد.. وبقلبه العظيم ونبله الممتاز قال له محمد: «لقد عفوت عنك فانصرف».

فما أطهر هذا القلب وما أشجعه. وما أوسع هذا الصدر الحليم حتى على أعدائه أحيانا. (وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم).

ان عاطفة الحب والرحمة والشفقة في نفس الرسول

كانت تلازمه دائما سواء في ابان ضعفه وقلة أصحابه أو بعد امتلاكه ناصية القوة والسلطة في يده.

فعندما امتلأت نعلاه بالدماء حين رماهُ سفهاء الطائف بالحجارة وهو يدعو ثقيفا الى الاسلام أتاه ملك الجبال وعرض عليه أن يسقط الجبل على رؤوس القوم فيموتوا جزاء كفرهم وطغيانهم امتنع الرسول وأبى، وقال: «اني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يؤمن بي، اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون»..

حدث هذا والرسول ما زال بعد ضعيفا عديم القوة فاقد السلطة، ثم لما هاجر الى المدينة وقويت شوكته ودانت له كثير من قبائل العرب، دخل يوما عمر بن الخطاب بيته المتواضع فلم ير فيه أثاثا أو رياشا ما عدا قربة ماء معلقة على الحائط لوضوئه لصلاة الليل. فبكى عمر وقال: «انك على هذه الحالة يا رسول الله ومفاتيح خزائن الأرض في يدك». فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: «انما هي نبوة يا عمر وليست بقيصرية أو كسروية». ولما سأل جبريل: أيهما آثر عندك، أن يكون لك ملك سليمان وثروته أم تكون فقيرا كأيوب؟ أجاب: «أوثر أن أجوع يوما وأشبع يوما، أصبر حينما أجوع راضيا بقسم الله وأشكر الله حينما أشبع».

ولما دخل مع أصحابه مكة مسقط رأسه فاتحا منتصرا جلس فوق ناقته القصواء التي كان هاجر بها الى المدينة، وحوله كبار الصحابة عن يمينه وشماله وهم الذين قاموا مع النبي في بناء صرح مـجد الاسلام وتمكين شوكته، كان مشركوا مكة قد تفرقوا هيبة وفزعا من سطوة الغازي المنتصر وأصحابه الأشداء على الكفار والرحماء بينهم، لقد اعترفوا بهزيمتهم أمام جيش محمد الباسل، حينئذ خطبهم الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: «يا معشر قريش ما ترون اني فاعل بكم؟» قالوا: - أخ كريم وابن أخ كريم. فقال الرسول كلمتـه التاريخية التي لم يقلها قائد قبله ولا بعده: «اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا أقول الا كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم».

ثم أطرق برأسه الى الأرض في تأثر عميق لعلمه أنه مهما بلغ الانسان قمة النصر والسلطة فانه من التراب خلق والى التراب يعود.

ان هذه الصفحات لأعجز من تحوى جوانب حياة الرسول وشمائله الغراء، فمن صبر على الأذى، وثبات جنان لدى المصائب، وشجاعة عند لقاء العدو، ولين جانب وشفقة

على الضعفاء، ومحبة صادقة لأمته الى يوم القيامة.. (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)...

أراني صغيرا وضئيلا أمام عظمة الرسول التي ملأ صداها العالم واعترف بها العدو والصديق على السواء ودونها التاريخ في مجلدات ضخام وترجمت الى لغات شتى.. صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم..

وأخيرا تذكرت صفحة من بطولة ضابط كبير وقائد في الجيش الأندونيسي هو الجنرال الحاج عبد الحارس ناسوتيون، كان قائدا لجيش الثورة في المعركة التحريرية الكبرى أيام حرب الأدغال لمواجهة قوات الاستعمار الهولندي فأحرز النصر في كثير من المعارك. كما تم النصر على يديه عندما ثار الشيوعيون عام ١٩٤٨م ضد جمهوريتنا والعدو الهولندي ما زال بالمرصاد - لقد طعن الشيوعيون رجالنا من الخلف، بيد أن الجنرال ناسوتيون تمكن من تحطيم قوات العدو من الداخل والخارج.

ومرة أخرى وذلك في ٣٠ سبتمبر ١٩٦٥م قام الشيوعيون بالثورة ضد الحكومة الشرعية. وكان نصيبهم الفشل الذريع أيضا.

وهكذا أحرز قائدنا المحنك النصر تلو النصر على هؤلاء الخونة الى أن تقاعد أخيرا وأحيل على المعاش.

ولما سأله الصحافيون الاندونيسيون والأجانب عن سر هذا النصر المتواصل وعن القواد المشهورين في الحرب العالمية الذين يفتخر بهم لبطولتهم ومواقف بطولتهم أجاب. «ان قدوتي الوحيدة التي أخذت عنها هي شخص واحد ليس الا، فقالوا: ومن هو يا ترى؟ فأجابهم فورا: «هو محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم».

لقد عرف الناس أبطال المعارك في الماضي والحاضر أمثال بوليوس قيصر وهانيبال ونابليون بونابرت وبلوشير ومونت غوميري وغيرهم، ولكن بطلنا عبد الحارس ناسوتيون لم يعجبه واحد منهم وانما أعجبه وملك عليه قلبه فقط محمد بطل الأبطال...

ولما استجوبه أحدهم: هل كان اعجابكم واعتزازكم بمحمد بدافع كونكم من اتباع دينه؟ أجاب: كلا، لقد وقفت على سير هؤلاء الأبطال القدماء وعلمت أنهم حقا عظماء في الحروب والسياسة؛ غير أن الفضائل ومكارم الأخلاق التي يمكننا الأخذ عنهم والتأسي بها لا يمكننا أن نجدها عندهم.

أما محمد فانه عظيم في الحرب وفي السلم معا، عظيم في المنزل والأسرة وبين الأصحاب، عظيم في عيون أعدائه في ذلك العهد الى يومنا هذا.. فهو اذن «المثل الأعلى» والنموذج الحي والانسان الكامل.

وعلى هذا الأساس كان الجنرال ناسوتيون لدى الأوساط العسكرية والشعبية بأسلوب حياته البسيطة البعيدة عن كل أبهة وفخفخة، كما كان معروفا بتمسكه بأهداف الدين يترك جلسات رسمية في روسيا وأوستراليا وغيرهما وهي قائمة على قدم وساق ويستأذن الرئيس ليؤدي فريضة الصلاة المكتوبة.. وأول عمل قام به بعد تقاعده واعتزاله الجيش هو السفر الى البلاد.. المقدسة لأداء فريضة الحج وملازمة العيشة الدينية.

اخوتي في الاسلام....

تلك هي نبذة يسيرة قمت بسردها أمامكم فيما يتعلق بالجانب الخلقي من حياة محمد الذي ارتضيناه نبيا ورسولا واماما وزعيما. وقديما أنشأ البوصيرى قصيدته «البردة» يمتدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما أتمها رأى النبي في المنام - ومن رآه في المنام فقد رآه في اليقظة كما ورد؛ رآه

وقد خلع بردته ورماها للبوصيرى هدية منه. ولما نهض لم يجد الرسول أمامه -إذاً كانت رؤيا - ولكنه وجد الفالج الذي يعانيه قد فارقه وشفي منه.

ونحن اليوم نمثل دور البوصيري رحمه الله. اننا نرى الرسول لا في المنام ولكن في عالم الذكرى والاعتبار الذي لا ينضب معينه ما لاح برق واستنار ثناه..

اننا نستجد ذكراه في أذهاننا لأن أعداءنا قد اتحدوا واتفقوا على مُناوأتنا والانقضاض علينا. ها هم اليهود والنصارى والصهيونية والشيوعية والزنادقة والملاحدة انهم مختلفون في المذاهب. والمخططات والمشاريع ولكنهم كتلة متحدة إذا هم واجهوا الاسلام..

وفي غمرة هذه المعارك الحيوية التي نواجهها يجب علينا أن نعود الى ذكرى محمد بطلنا الخالد. اننا لا نعبده وانما نستوحي كفاحنا من شجاعته الخارقة وصموده أمام المشاكل والأخطار. نرى كثيرا من البلدان الاسلامية قد تهاونت واستخفت بالجهود الجبارة في كفاح قدوتنا الأعظم وتحولت الى تمجيد كارل ماركس، فكانت النتيجة أنها تحولت من مشكلة الى أخرى أدهى وأمر.. أجل، لم نعبد محمدا فان محمداً قد مات (صلوات الله عليه) وانما نعبد الله الحي الذي لا

يموت أبدا.. والله نفسه قد علمنا وأرشدنا بقوله: «قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله».

ان العالم الاسلامي يواجه اليوم كفاحا شديدا، ان الاسلام سينهض من جديد، وقد ظهرت بوادر هذا النهوض في الآفاق. وقد صدق المستشرق لوثروب ستودارد اذ قال: لقد مضى زمن يتعسر فيه ايقاظ المسلمين من سباتهم، وجاء اليوم زمن يتعسر فيه اعادة المسلمين الى سباتهم الماضي بعد يقظتهم..

وختاما: فمهما بالغنا في مدح نبينا وفي رفع شأنه واجلال قدره فما ذلك الا لرغبتنا في العودة الى الاقتداء به واحياء سنته. اننا نريد اعادة مجد الاسلام واعلاء كلمته كما دعا اليه رسول الاسلام، لاننا نتذكر دائما كلمة الامام مالك بن أنس الشهيرة: «لا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها».

فأول هذه الأمة حقيقة ومعنوية هو «محمد» صلى الله عليه وسلم، وحسبنا فخرا وكفى....

جاكرتا، منتصف رجب ١٣٩٩ هـ.

الدكتور الحاج عبد الملك عبد الكريم أمر الله.

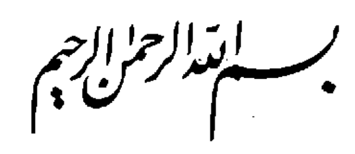
الجانب الخلقي للنبيّ ﷺ الكريم

للدّكتور مُصلح سيّد بيّومي
« قطر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



الجانب الخلقي للنبي الكريم

مقدمة :

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله . القدوة الصالحة لكل زمان ومكان ، والذي وصفه ربه بأعظم الصفات ، وأكملها ، مخاطبا اياه في قوله تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم »(١) .

وبعد

فهذا بحث موجز عن « الجانب الخلقي للنبي الكريم » أتقدم به الى المؤتمر الثالث للسيرة والسنة النبوية الذي يقام بالدوحة عاصمة دولة قطر في نهاية القرن الرابع عشر الهجري .

---

(١) سورة القلم - الآية ٤ . نهاية القرن الرابع .

وفي الواقع أن الحديث عن الجانب الخلقي للنبي الكريم يكون بديهيا عن الأخلاق في القرآن العظيم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها[١].

والحديث عن الأخلاق في المفهوم القرآني كما يقول الأستاذ محمد قطب شيء شامل كل تصرفات الانسان وكل مشاعره وكل تفكيره.. ولا يوجد في الاسلام عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق...[٢]

وعلى ذلك فلو تحدثنا عن الموضوع من هذه الناحية لكان البحث يحتاج الى مجلدات. مما اضطرني الى أن تكون خطتي في البحث كما يلي:

أولا: القاء الضوء على الخلق الحسن وأهميته في الحياة وذلك ضمن التمهيد.

ثانيا: ابراز الشهادات، والتقديرات للنبي الكريم في صورتها الناصعة من الله العلي الكبير، وأحبابه وأصحابه، وخصومه.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب ص ١٣٦ - ١٣٩ - دار الشروق بالقاهرة.

ثالثا: توضيح الجانب الخلقي للنبي الكريم في بيته، ومع أصحابه، ومع خصومه وفي أحوال متفرقة.

رابعا: الخاتمة - وتشتمل على التوصيات التي لا بد منها لقيام حياة سعيدة في جميع مجالات المجتمع.

هذا البحث المتواضع ان كان فيه ثمرة أو فائدة فمن الله وحده، وان كان فيه تقصير فمني وما علي؛ الا أن قدمت هذا الجهد البسيط مشاركا به في هذا المؤتمر الكبير متمثلا بقول الله تعالى على لسان نبي الله شعيب عليه السلام: «ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب[١] ».

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

تمهيد - الخلق الحسن وأهميته في الحياة:

يطلق الخلق - بضم اللام وسكونها - في اللغة ويراد منه: الطبع، والعادة، والسجية والدين، والمرؤة.. يقال: فلان يتخلق بغير خلقه. أي يتكلفه. وذلك كالجبان الذي يتكلف الشجاعة، والشجاع الذي يتكلف الجبن.

---

(١) سورة هود - آية ٨٨.

أما في اصطلاح العلماء. فيطلق الخلق ويراد منه أحد أمرين:

الأول: ملكة أو صفة راسخة للنفس تصدر بها الأفعال بسهولة من غير حاجة الى فكر وروية. وهذا التعريف للخلق يدل على أنه صفة أو ملكة تقوم بالنفس ويستحق الموصوف بها المدح أو الذم.

ومن ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأشج عبد القيس: «وان فيك لخصلتين يحبها الله. الحلم والأناة» قال: يا رسول الله خصلتين تخلقت بها أم جبلت عليها؟ قال: «بل جبلت عليها». قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبها الله[1] »

الثاني: يطلق الخلق ويراد منه التمسك بالأحكام الشرعية، وآدابها وعاداتها سواء كان ذلك من جهة الفعل أو الترك[2].

---

(١) رواه مسلم في شحيحه جـ١ ص ١٨٩ وما بعدها.
(٢) غريب الحديث لابن الأثير، والصحاح في اللغة والعلوم للجوهري، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ودائرة المعارف للبستاني.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «البر حسن الخلق»[1].

وعلى كل فالذي يعنينا هو: الخلق الحسن سواء كان ملكة.. أو التمسك بالدين وآدابه.. وذلك كالصدق، والأمانة، والعفة، والشجاعة، والرحمة، والعزة، والكرامة، والحياء، والوفاء... الى آخر هذه الأخلاق الكثيرة وهو ما يعرف بالفضائل.

والبعد عن أضداد ذلك وهو ما يعرف بالرذائل.

ومن هنا تجيء فائدة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وللخلق الحسن أهمية بالغة خاصة اذا قوبل بما يسمونه في المجتمعات الكافرة بالسلوك التهذيبي، ويخدع الناس كثيرا فيظنونه «الأخلاق».

وفي هذا المعنى يقول أحد كتاب الفكرة الاسلامية: «ان الجاهلية المعاصرة تحرص على كثير من الصفات السلوكية القريبة جدا - في صورتها الظاهرة - من الأخلاقيات الاسلامية، حتى لينبهر بها كثير من الناس،

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

خاصة وهم يرون الخواء الحالي الذي يعيش فيه الذين يسمون أنفسهم مسلمين دون أن يعنوا أنفسهم بالتزام شيء من الأخلاقيات الاسلامية على الاطلاق! فيكذبون ويغشون ويسرقون وينهبون ويظلمون ويطففون ويخلفون الوعـد ويأكلون حقوق الناس.. ثم تصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى!! بينما يرى الناس في تلك الجاهلية الغربية قوما يحرصون على نظافة التعامل.. فيقولون في أنفسهم هذه والله أخلاقيات الاسلام، تخلينا نحن عنها وتمسك بها القوم!.. ان الأخلاق في المفهوم القرآني شيء شامل يشمل كل تصرفات الانسان وكل مشاعره وكل تفكيره.. ولا يوجد في الاسلام عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق. فالصلاة - كما رأينا في الآيات[1] - لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق هي الاعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي الوفاء بالأمانة ورعاية العهد، والانفاق له أخلاق هي التوسط بين التقتير والاسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق هي العفو والصفح

---

(١) الآيات هي: المؤمنون (١ -١١)، والمعارج (٢٤ - ٢٥) والفجر (١٧ - ١٩)، والفرقان (٦٣ - ٧٦).

وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تكيفه، ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة.

هذا أمر والأمر الآخر - وهو الأهم - أن الاخلاق في المفهوم القرآني هي لله وليست للبشر، ولا لأحد غير الله...[1]

وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم اذ يقول: «ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا لوجهه»[2].

والخلق الحسن كذلك يعتبر مقياس الحياة في الأمم، وأساس النهضة في الشعوب، لا تنال الحياة الا به، ولا ترقى الدول الا على أساسه. ومن هذا قول الشاعر أحمد شوقي:

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت
فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه
فقوم النفس بالأخلاق تستقم

---

(١) الكاتب الاسلامي هو: الأستاذ محمد قطب في كتابه: دراسات قرآنية - ص ١٣٦ - ١٣٩ - دار الشروق بالقاهرة.

(٢) أخرجه النسائي - كتاب الجهاد.

فلا جرم أن يعد النبي صلى الله عليه وسلم دينه الذي شمل كل أسباب الهداية والرشاد، وانتظم كافة السعادة في الدنيا والآخرة ليس الا تتميما لمكارم الأخلاق كما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم: «انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وحينما سئل الرسول الكريم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة: قال: تقوى الله، وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الفم والفرج»[2].

ويكفي في أهمية «الخلق الحسن» أن الله تعالى مدح نبيه ومصطفاه بأبلغ وصف في أوجز عبارة قائلا له: «وانك لعلى خلق عظيم»[3] كما مدح عباده المؤمنين بكثير من الصفات الأخلاقية مثل قوله تعالى: «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من

(١) في كتاب: تمييز الطيب من الخبيث للشيباني. ورد هذا الكلام عن الحديث أورده مالك في الموطأ بلاغا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عبد البر هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) سورة القلم - الآية رقم ٤.

أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة »[١].

وقوله تعالى: « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.. الآيات الكريمة »[٢].

وقوله تعالى: « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » الى قوله تعالى: « ونعم أجر العاملين »[٣].

نكتفي بهذا القدر القليل في الحديث عن « الخلق الحسن وأهميته في الحياة » لنشرح نفوسنا، ونطمئن قلوبنا بالتعرف على الجانب الخلقي للنبي الكريم. وبالله التوفيق.،،،

---

(١) سورة الفتح - الآية ٣٩.

(٢) سورة الفرقان - الآية ٦٣ - ٧٦.

(٣) سورة آل عمران - الآية رقم ١٣٣ - ١٣٦.

الفصل الأول.

شهادات وتقديرات للنبي الكريم.

في هذا الفصل نبرز أهم الشهادات والتقديرات للنبي الكريم سواء كانت من الله تعالى الذي أرسله - وهي قمة الشهادات والتقديرات - أو من أصحابه وآل بيته الذين عاش في وسطهم، أو من الخصوم الذين عاندوه ووقفوا في طريقه.

أولا - شهادة الله تعالى:

حينما نذكر شهادة الله لنبيه ومصطفاه تطالعنا هذه الآية الكريمة التي تشع بنورها في هذه الكون قائلة: «قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى! قل لا أشهد قل انما هو اله واحد وانني بريء مما تشركون»[١].

هذه الآية الكريمة تبرز بوضوح مواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم للمشركين. أي شيء أكبر شهادة؟ أي أي شاهد

---

(١) سورة الانعام الآية ١٩.

في هذا الكون - بالتعميم حتى لا يكون هناك استثناء - تغلب شهادته كل شهادة؟

والجواب: الله.... ومن عجـــب أن يكون السؤال والجواب بأمر من الله سبحانه. ما دام «الله» هو الشاهد فكان من الواجب على المشركين أن يتقبلوا قرآنه الذي أنزله على نبيه. كما أنه من الواجب أن يستمر الرسول في دعوته، ولا يلتفت الى غيره سبحانه، وأن يبرأ مما يشركون.

واذا كان المولى سبحانه شاهدا في كل شيء. فقوله في وصف نبيه هو الفصل، وشهادته في خلقه هي الشهادة.

ومن ذلك قوله عز من قائل في رسوله بأبلغ وصف في أوجز عبارة حيث يخاطبه مزكياه اياه: «وانك لعلى خلق عظيم»[1] لا شك أن هذه الشهادة - وغيرها - عظيمة. والدليل على ذلك أنها من عند الله تعالى، ومن ناحية أخرى. قبول محمد صلى الله عليه وسلم لها وهو ثابت لم يتزعزع مما جعله يقول عن نفسه: «انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2] فيلخص رسالته - كما يقول الشهيد سيد

---

(١) سورة القلم - الآية ٤

(٢) في كتابه تمييز الطيب من الخبيث للشيباني. ورد هذا الكلام عن الحديث: أورده مالك في الموطأ بلاغا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عبد البر: هو =

قطب - في هذا الهدف النبيل وتتوارد أحاديثه تترى في الحض على كل خلق كريم. وتقوم سيرته الشخصية مثالا حيا وصفحة نقية، وصورة رفيعة، تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد - كما ذكرنا -«وإنك لعلى خلق عظيم». فيمجد بهذا الثناء نبيه - صلى الله عليه وسلم - كما يمجد به العنصر الأخلاقي في منهجه الذي جاء به هذا النبي الكريم...[1].

وكنا نود أن نكتفي بشهادة الله لنبيه ومصطفاه على خلقه العظيم، ولكن استكمالا للبحث - فيما نرى - نذكر فيما يلي - بإيجاز - شهادة أحبابه، وخصومه.

ثانيا - شهادة أحبابه:

من أهم الشهادات والأوصاف للنبي الكريم ما روى عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال: سألت خالي هند ابن أبي هالة، وكان وصافا عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئا فقال: «كان رسول

= متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا.

(١) في ظلال القرآن: جـ٢٨، ص ٢٢٣ - ٢٢٤، دار احياء التراث العربي ببيروت - ط ٧.

الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه - أي بفمه كله -، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا بالمهين - أي كان معتدلا في خلقه -، يعظم النعمة وان دقت، لا يذم منها شيئا، غير أنه لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فاذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء، حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، اذا أشار أشار بكفه كلها، واذا تعجب قلبها، واذا تحدث يتصل بها، ويضرب براحته اليمنى بطن ابهامه اليسرى واذا غضب أعرض وأشاح، واذا فرح غض طرفه.

جل ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام - أي البرد -، وكان فخما مفخما، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر.

ويصفه الامام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو من أعرف الناس به وأكثرهم عشرة له، وأقدرهم على الوصف والبيان.

«لم يكن فاحشا ولا متفحشا، ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكنه يعفو ويصفح، ما ضرب شيئا بيده قط، الا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادما ولا امرأة، وما رأيته منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء فاذا انتهك من محارم الله كان من أشدهم غضبا، وما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما، واذا دخل بيته كان بشرا من البشر، يتعهد ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه[1]. كان يخزن لسانه الا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره، ولا خلقه ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف.

ووصفه أنس - رضي الله عنه - قائلا: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، وأرأف الناس بالناس، وأنفع الناس للناس، وخير الناس للناس، وكان صلى الله عليه وسلم أصبر

(١) دلائل النبوة للبيهقي - جـ١ ص ٢٨٢، والبداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص ٤٤.

الناس على أقذار الناس.

وقال سعد بن هشام: دخلت على عائشة - رضي الله عنها وعن أبيها - فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: أما تقرأ القرآن قلت: بلى. قالت:

« كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن »، (وفي دلائل النبوة للبيهقي - جـ١ ص ٢٦٣، وأخلاق النبي - صلى الله عليه وسلم - وآدابه للحافظ الأصبهاني ص ٢٩ عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن. ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنين؟ اقرأ « قد أفلح المؤمنون » الى العشر.. حتى بلغ العشر فقالت: هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وعن أبي الدرداء قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم)، فقالت: (كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه). وانما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[١]، وقوله: « ان الله يأمر بالعدل والاحسان

---

(١) الأعراف ١٩٩

وإيتـــاء ذي القربـــى، وينهـــى عن الفحشاء والمنكر والبغي »[١]، وقوله: « واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور »[٢]، وقوله: « فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين »[٣].

وأمثال هذه التأديبات في القرآن كثيرة، وهو عليه الصلاة والسلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب. ثم منه يشرق النور على كافة الخلق، فانه أدب القرآن وأدب القرآن به[٤].

وهكذا نجد أن أحبابه - صلى الله عليه وسلم - وصفوه بما هو أهل له، وأقروا له بالشهادة الموجزة والمطولة، واعترفوا له في حياته، وبعد مماته بالخلق العظيم، والصفات الحميدة.

ثالثا - شهادة خصومه:

الرسول صلى الله عليه وسلم وان كان غنيا عن أي

(١) النحل ٩٠

(٢) لقمان ١٧

(٣) المائدة ١٣

(٤) هذه الأوصاف المختلفة للنبي الكريم مستقاة من الكتب الآتية: الشمائل للترمذي، والشفا للقاضي عياض، والبداية والنهاية لابن كثير، ووسائل الوصول الى شمائل الرسول للشيخ يوسف بن اسماعيل النبهاني.

تزكية، أو تقدير بعد شهادة الله له وكذلك أصحابه. فاننا نذكر بعض النماذج من شهادة الخصوم تأكيدا لتدعيم هذا الخلق العظيم للنبي الكريم سواء كان ذلك ممن عاصروه أو جاءوا من بعده. وذلك على غرار ما روي في مأثور الحكم: «الحق ما شهدت به الأعداء»

(١) من شهادة الخصوم ما ذكره المغيرة بن شعبة قائلا: «ان أول يوم عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة اذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله لأبي جهل يا أبا الحكم، هلم الى الله ورسوله أدعوك الى الله. فقال: أبو جهل: يا محمد: هل منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد الا أن نشهد أنك بلغت؟فنحن نشهد أنك بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقوله حقا لاتبعتك. فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل علي فقال: والله اني أعلم أن ما يقوله حقا.. ولكن يمنعني شيء: إن بني قصي قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السقايـة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا:

نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى اذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي والله لا أفعل[١].

وعن علي بن أبي طالب أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: انا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله تعالى قوله: «فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون»[٢].

(٢) ومن شهادة الشاعر الفرنسي اللامع «الفونس لامرتين» في وصف محمد صلى الله عليه وسلم: «ان حياة مثل حياة محمد وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه، وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، وايمانه بالظفر واعلاء كلمته ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الاسلامية. ان كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا، أو يعيش على باطل. فهو فيلسوف، وخطيب، ورسول ومشرع وهاد للانسان الى العقل وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب»[٣].

---

(١) أخرجه البيهقي وابن أبي شيبة جـ٦ ص ٤١٦ طبع دار الكتب المصرية.

(٢) أخرجه الترمذي، وتفسير القرطبي. والآية ٣٣ من سورة الأنعام.

(٣) المستشرقون والاسلام للمهندس زكريا هاشم.

(٣) ويقول مؤلف « قصة الحضارة » ول ديورانت:
« ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحا فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد صلى الله عليه وسلم لاعانة الفقراء، وكان يحض كل موص بأن يخص من ماله جزءا للفقراء، واذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال البر »[1].

(٤) من شهادة « تولستوي » الشهير قوله - بعد كلام كثير -: « لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة. ويكفيه فخرا أنه هدى أمته برمتها الى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا.
ويكفيه فخرا أنه فتح لها طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به الا شخص أوتي قوة وحكمة وعلما.
ورجل مثله جدير بالاجلال والاحترام[2].

---

(١) نقلا عن كتاب: شريعة الاسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص ٦٦
(٢) نقلا عن كتاب: دعوة الاسلام للشيخ السيد سابق - طبع دار الكتاب العربي - بيروت.

وهكذا نجد الكثير جدا من الشهادات والأوصاف للنبي الكريم من هؤلاء الخصوم- قديما وحديثا- مما يحتاج وحده الى مجلدات، ولكن أتينا ببعض النماذج لكي نقيم الحجة عليهم- وان كانت قائمة بدونهم - ثم بعد ذلك نأتي الى الجانب الخلقي التطبيقي - والنظري أيضا - لهذا النبي الكريم

والله الهادي الى سواء السبيل

الفصل الثاني

الجانب الخلقي للنبي الكريم

أولا - خلقه في بيته:

كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم في بيته تدل بحق وصدق على الخلق الحسن الذي تحلى به وأصبح عنوانا عليه. سواء كان ذلك قبل الرسالة أو بعدها. وسواء كان ابنا، أو زوجا، أو أبا، أو جدا، أو جارا....

فقد نشأ يتيما لم ير أباه، ومع ذلك ظل يذكر والده «عبد الله بن عبد المطلب» من كثرة ما كان يستمع الى أمه حينما كانت تتحدث عن أبيه.

كذلك كان يذكر أمه - آمنة بنت وهب - التي ماتت بالأبواء ويرى في ذكرها شعورا يصل به الى أرقى عواطف الرحمة والبر.. وكان صلى الله عليه وسلم يزيد من ذكرها خاصة حينما كان مع حاضنته «أم أيمن» الحبشية التي حلت محل أمه بعد وفاتها.

«حتى وصل من أمره عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول عنها: «هي أمي بعد أمي». وكذلك كان هذا الخلق الكريم للرسول في صغره وكبره بالنسبة لمرضعته وحاضنته

« حليمة السعدية » التي كانت ترى الخير دائما بين يديه مما جعلها تعمل على بقائه معها حتى يظل الخير عندها دائما لا ينقطع[1].

وبلغ من بره صلى الله عليه وسلم لهذه المرضعة والحاضنة أنه لما بعث بالرسالة جاءته « حليمة السعدية » مع وفد من قومها بني سعد لزيارته فخلع لها رداءه وأجلسها عليه بجانبه.

وبعد وفاة أمه كفله جده « عبد المطلب » ثم لما مات كفله « عمه أبو طالب » الذي حافظ عليه وزاد من اكرامه مما جعل صاحب الخلق العظيم يستشعر هذا الحنان، وهذه الرعاية التي أثرت في نفسه.

وكعادة الرسول دائما كان يعترف لصاحب الفضل بفضله. فحينما تزوج من السيدة « خديجة بنت خويلد » - رضي الله عنها - واستقر به الحال ضم اليه ابنا من أبناء أبي طالب ألا وهو « علي كرم الله وجهه » وبلغ من معاملة الرسولة له مبلغا عظيما جعلته أول من أسلم من الشباب على يدي النبي الكريم.

---

(١) الروض الانف للسهيلي جـ١ ص ٩٥

ولم يكن صلى الله عليه وسلم في صباه وشبابه يميل الى اللهو واللعب - كما يفعل الكثير من الشباب في جيل من الأجيال - بل كان من خلقه الكريم يحب العمل، قال صلى الله عليه وسلم: « بعث موسى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو راعي الغنم، وبعث داود عليه السلام وهو راعي الغنم، وبعثت وأنا راعي الغنم » ولم يقتصر عمله على هذا بل كان يعمل في التجارة وغيرها[١].

ولما تزوج صلى الله عليه وسلم كان نعم الزوج لزوجاته، وذلك بسبب حسن معاشرته، وبره لهن، والعطف عليهن. ولا عجب في ذلك فقد قال النبي الكريم « خيركم خيركُم لأهله وأنا خيركم لأهلي »[٢].

ولقد اتخذ أعداء الاسلام من تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم هدفا للنيل من كرامة الرسول. واعتبروا أن الرسول بذلك سن قانونا خاصا به. وهذا جهل بطبيعة الرسالة المحمدية - أو حقد عليها - لأن النبي الكريم لم يتزوج الا من أجل انتشار الدعوة الاسلامية وتدعيمها. فكل زوجة من زوجاته لها قصة تدل على ذلك - يضيق

---

(١) الروض الأنف ج١ ص١١٢

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي.

المقام عن ذكرها - وكان بامكانه أن يستغني عن المتقدمات في السن، وذوات البنين، وغير الجميلات، لو كانت دواعي المسألة هي الرغبة الجنسية فحسب »[1].

قال تعالى: يأيها النبي انا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك: وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك، وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما. ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن، ولا يحزن، ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما. لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك. وكان الله على كل شيء رقيبا »[2]

(١) سيرة الرسول للأستاذ عزة دروزة ص ٧٣.

(٢) سورة الأحزاب الآيات ٥٠ - ٥٢

ومن خلقه الكريم في بيته أنه كان يساعد أهله في عمل البيت.

سئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - ماذا كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيت؟ فقالت: كان بشرا من البشر، يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويعمل ما يعمل الرجل في بيته فاذا حضرت الصلاة خرج[١].

وكان صلى الله عليه وسلم اذا غضب مع زوجاته لم يخرجه غضبه عن الخلق الكريم الذي تحلى به. عن عائشة - رضي الله عنها - أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بخزيرة طبختها له - وهي لحم يقطع قطعا صغارا ويصب عليه ماء كثير فاذا نضج ذر عليه الدقيق - وقلت لسودة والنبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينها: كلي فأبت! قلت لها: لتأكلين أو لألطخن به وجهك فأبت، فوضعت يدي في الخزيرة فلطخت بها وجهها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم[٢]

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) المواهب اللدنية للقسطلاني.

ولم يكن في بيته عبوسا متجهما بل كان صلى الله عليه وسلم دائم البشر يداعب أهله كما حدث مع السيدة عائشة - رضي الله عنها - حينما قال لها: «يا عائشة تعالي نتسابق في الجري» فتارة كانت تسبقه وتارة أخرى كان يسبقها، وكان يدعوها في بعض الأحيان الى جانبه حينما كان يرى الأحباش يلعبون بالحراب في يوم العيد.

وبلغ من معرفته العميقة لنفسية احدى أمهات المؤمنين حينما قال لها: يا عائشة أنني أعرفك حين تكونين عني راضية وحين تكونين علي غضبى فتقول له: وكيف تعرف ذلك؟ فيقول لها: حين تكونين عني راضية وتريدين أن تحلفي تقولين: لا ورب محمد، وحين تكونين على غضبى وتريدين أن تحلفي تقولين لا ورب ابراهيم. فقالت عائشة: أجل والله يا رسول الله ما أهجر الا اسمك[1].

وكان صلى الله عليه وسلم وفيا لزوجاته وبلغ من وفائه أنه لما ماتت زوجته السيدة خديجة - رضي الله عنها - كان كثير الحديث عنها حتى غارت منها السيدة عائشة، روى ابن الأثير بسنده الى السيدة عائشة قالت: كان رسول

---

(١) صحيح مسلم جـ٧ ص ١٣٥.

الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها. فذكرها يوما من الأيام فأدركتني الغيرة فقلت: هل كانت الا عجوزا! وقد أبدلك الله خيرا منها - فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيرا منها، آمنت بي اذ كفر الناس وصدقتني إذْ كذبني الناس وواستني في مالها اذ حرمني الناس ورزقني الله منها أولادا اذ حرمني أولاد النساء. قالت: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبدا.

لم تقتصر أخلاق النبي الكريم على زوجاته فقط بل تعداهن الى أولاده، وأحفاده.. فكان نعم الأب، ونعم الجد..

من خلقه الكريم مع أولاده أنه صلى الله عليه وسلم لما مات ابنه ابراهيم فاضت عيناه بالدموع حتى قال له سعد ابن أبي وقاص: ما هذا يا رسول الله؟ قال الرسول: هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء[1].

من أجل ذلك قال له ربه: «فبما رحمة من الله لنت لهم

(١) الشفاء للقاضي عياض جـ٤ ص ٧٤.

ولو كنت فظا غليظ القلب لَانْفَضُّوا من حولك[١].

وبلغ من حبه صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة أنه لما سمع أن عليا بن أبي طالب يفكر في الزواج عليها غضب وقال كلمته المشهورة: «فاطمة بضعة مني» ولهذا لم يتزوج عليها زوجها مطلقا حتى ماتت. وهكذا كان حبه لأولاده جميعا ومع هذا الحب، وهذه العاطفة الجياشة لم يستسلم لرغباتهم بل أدبهم على أن يأخذوا من الدنيا بحذر شديد يتجلى ذلك حينما طلبت ابنته فاطمة خادما.. قال لها ولزوجها: ألا أعلمكما خيرا مما سألتماني؟ قلنا بلى. قال: كلمات علمنهين جبريل.

اذا أخذتما مضاجعكما من الليل فكبرا ثلاثا وثلاثين، وسَبِّحا ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين فهي خير لكما من خادم»[٢].

(وعن أنس بن مالك قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على سرير مرمول - أي منسوج - بالشريط، وتحت رأسه وسادة من أدم، حشوها ليف،

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

(٢) رواه الامام مسلم في صحيحه، والامام أحمد في مسنده.

ودخل عليه عمر، وناس من أصحابه، فانحرف النبي - صلى الله عليه وسلم - انحرافة، فرأى عمر أثر الشريط في جنبه فبكى فقال له: ما يبكيك يا عمر..؟

فقال عمر، رضي الله عنه: ومالي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا وأنت على هذا الحال الذي أرى؟!

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا عمر، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ قال: بلى. قال: هو كذلك. «دلائل النبوة للبيهقي جـ١ ص ٢٩١ »).

هذا الخلق الرفيع يوافق تماما ما أدبه القرآن به في مثل قوله تعالى: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »[١].

وقوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة.. »[٢].

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٠.

(٢) سورة التحريم الآية ٦

وكان صلى الله عليه وسلم يداعب أحفاده كما يداعب أولاده هذا فضلا عن العطف عليهم والرحمة لهم. ومن ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالس. فقال الأقرع: ان لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا فنظر اليه رسول الله ثم قال: من لا يَرْحَم لا يُرْحَم»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصَلّي والحسن والحسين يلعبان ويقعدان على ظهره.

وقال صاحب «لسان العرب»: وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرقص الحسن أو الحسين ويقول: حزقة حزقة ترق عين بقة. «الحزقة» الضعيف الذي يقارب خطوه من ضعف، فكان يرقى حتى يضع قدميه على صدر النبي الكريم قال ابن الأثير: ذكرها له على سبيل المداعبة والتأنيس له، و «ترق» بمعنى اصعد «وعين بقة» كناية عن صغر العينين.

كما كان يركب الحسن والحسين على ظهره ويمشي على

---

(١) رواة البخاري ومسلم.

يديه ورجليه ويقول: «نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما. وربما فعل ذلك بينهما وهما على الأرض[1].

وكان عليه الصلاة والسلام يعمل على غرس العقيدة في نفوس الصبيان والشباب ليعمل بذلك على تنشئتهم النشأة الطيبة. والدليل على ذلك ماروى عن أبي العباس عبد الله ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما، فقال لي: يا غلام، اني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف[2]» هذا الأدب النبوي هو ما عناه القرآن الكريم في قوله من وصايا لقمان الحكيم: «واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم....»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني عن جابر..

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) سورة لقمان آية رقم ١٣.

ولم يقتصر هذا الخلق الكريم على زوجاته، وأولاده، وأحفاده فقط بل تعداه الى الخدم الذين كانوا في بيت النبوة.

ومن ذلك ما روي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لي لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته.

وفي المصابيح عن أنس - أيضا - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا، فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لا أذهب! وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله فخرجت حتى أمر على الصبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله قد قبض بقفاي من ورائي قال: فنظرت إليه وهو يضحك فقال: يا أنيس، ذهبت حيث أمرتك؟ قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله[1]، وعنه أيضاً كان الخادم إذا أغضبه يقول صلى الله عليه وسلم: «لولا خشية القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك»[2].

ومن خلقه الكريم صلى الله عليه وسلم - أنه كان يعلم

(١) رواه مسلم ج٢ ص ٢٥٣.
(٢) وسائل الوصول الى شمائل الرسول للشيخ النبهاني ص ١٢٢ - ١٢٥.

الأولاد السلوك المهذب في كل مجالات الحياة حتى يصبح الواحد منهم بشرا سويا . ومن ذلك ما روى عن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاما في حجر النبي صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصفحة فقال في: « يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك »[1] .

وكان من خلقه بالنسبة للأولاد . حسن تسمية المولود ، ووضع الأذى عنه ، والعقّ عنه . فقد أخرج الترمذي : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسمية المولود يوم سابعه ، ووضع الأذى عنه ، والعق عنه : أي ذبح شاة أو شاتين شكرا لله تعالى على نعمه الجليلة .

ويكفي أن نشير في هذا المجال الى أن القرآن الكريم - الذي يعتبر خلق النبي الكريم كما عرفنا فيما مضى - قد بين في كثير من التوجيهات والوصايا ما يصلح النشء . كالآيات الكريمة التي ذكرت في وصايا لقمان وغيرها .

ومن خلقه الكريم في بيته من ناحية المأكل والمشرب .. أنه صلى الله عليه وسلم كان معتدلا في كل أموره . فلا يأكل حتى يجوع واذا أكل لا يشبع ، وكان رزقه كفافا ، وفي

---

(١) متفق عليه .

الحديث: «ما شبع آل محمد يومين من خبز البر الا وأحدهما تمر»[1] وفي الحديث الآخر: «ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام حتى قبض»[2] وهذا يوافق الخلق القرآني: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين»[3] وكان صلى الله عليه وسلم يأكل ما جرت عادة أهل بلده: فكان يأكل اللحم، والفاكهة، والتمر، والعسل، والحلوى، والدجاج، والأرنب، والثريد[4].

وكان يمتنع عن الأطعمة التي حرمها الله تعالى. ولا يأكل متكئا كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا آكل متكئا»[5].

وكان لا يعيب طعاما قط كما روى في الحديث: ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط فإن اشتهاه أكله، وان كرهه تركه[6].

---

(١) رواه الشيخان عن أنس.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) سورة الاعراف آية ٣١.

(٤) رواه مسلم في صحيحه.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه الشيخان، وفي رواية لمسلم وان لم يشته كف.

وكان لباسه، وفراشه يدل على تواضعه، وأسوته الحسنة.

عن أبي ذر رضي الله عنه: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض[1].

وكان له بعض الثياب الجيدة يلبسها في المواسم كالجمعة. قال صلى الله عليه وسلم: «ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده[2].

وكان يمتنع عن لبس الحرير والذهب: قال صلى الله عليه وسلم: «حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لاناثهم»[3].

وكان من خلقه الكريم في بيته - وفي غير بيته - ذكر الله على كل حال. فاذا استيقظ من النوم قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور[4] وقرأ في الصباح ثلاثا: «قل هو الله أحد»...، و «قل أعوذ برب الفلق»... و «قل أعوذ برب الناس»[5]، واذا أكل

---

(١) رواه البخاري

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي.

قال: – في البداية – بسم الله[1]. وعند التذكر بعد النسيان قال: بسم الله أوله وآخره[2] وفي نهاية الطعام قال: «الحمد لله كثيرا طيبا مباركا فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا – رواه البخاري».

وفي الشرب كان صلى الله عليه وسلم يتناول الشراب على دفعتين أو ثلاثا مع التسمية عند الشرب، والحمد عند الرفع – رواه الترمذي وقال: حسن صحيح». وعند الإفطار من الصيام قال: «اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله» – أخرجه أبو داود». واذا أفطر عند انسان قال: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة – الأذكار للنووي».

وعند الذهاب الى النوم كان يتوضأ ثم يضطجع على جنبه الأيمن، ثم يجمع كفيه وينفخ فيهما برفق دون أن يخرج ريقه، ثم يقرأ سورة الأخلاص والمعوذتين، ثم يمسح بكفيه ما

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري

استطاع من جسده بادئا بوجهه (ثلاثا)[1] وعند الخروج من المنزل قال: « بسم الله .توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله »[2].

وعند الدخول قال: « اللهم اني أسألك خير المولج وخير المخرج، بسم الله ولجنا وبسم الله خرجنا وعلى ربنا توكلنا - ثم تسلم على أهل منزلك - الأذكار للنووي.

وهكذا نجد كثيرا من الأذكار التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله والتي تدل على خلقه الكريم مع مولاه يضيق المقام عن حصرها.

ثانيا - خلقه مع أصحابه:

ان انحراف أي دعوة من الدعوات كثيرا ما يكون بسبب القيادة. ذلك أن الأتباع قد لا يجدون التربية الكافية التي تهذب سلوكهم، وانهم لا يحسون بالرعاية الدائمة. وعلى هذا يكون الفشل للدعوة والقائمين عليها.

فهل كان هكذا الوضع بالنسبة لدعوة الاسلام؟ واتباع هذه الدعوة بقيادة محمد صلى الله عليه وسلم؟

في الواقع ان الناظر في حياة هذا النبي الكريم يجد

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ورياض الصالحين والأذكار للنووي.

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح غريب.

العكس تماما. وذلك بسبب الخلق الكريم، والمعاملة الحسنة التي كان يعيش بها الرسول بين أصحابه مما نتج عن ذلك النجاح المشرف للدعوة الاسلامية.

وفيما يلي سنعرض بعض النماذج الحية من معاملة الرسول لأصحابه وأتباعه حتى يتبين لنا صدق ما نقول.

كان عليه الصلاة والسلام يدرك أحاسيس أصحابه وكأنه يقرأ ما في قلوبهم ومن ذلك أن أبا هريرة - رضي الله عنه - كان يقول: «والله ان كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع وان كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ،ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته الا ليستتبعني فلم يفعل، فمر عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته الا ليستتبعني فلم يفعل، فمر أبو القاسم فعرف ما في وجهي وما في نفسي فقال: أبا هريرة قلت: لبيك يا رسول الله فقال: الحق بي واستأذنت فأذن لي فوجد لبنا في قدح قال: من أين لكم هذا اللبن فقالوا: أهداه لنا فلان - أو آل فلان - قال: أبا هريرة، قلت: لبيك يا رسول الله...، قال: انطلق الى أهل الصُّفَّة فَٱدْعُهُم لي، قال: وأهل الصفة أضياف الاسلام لم يأووا الى أهل ولا مال، اذا جاءت

رسول الله هدية أصاب منها وبعث اليهم منها واذا جاءته الصدقة أرسل بها اليهم ولم يصب منها. قال: وأحزنني ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربةأتقوى به بقية يومي وليلتي، وقلت: أنا الرسول فاذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم ،وقلت ما يبقى لي من هذااللبن!!ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ،فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال: أباهر: خذ فأعطهم ،فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ القدح فوضعه في يده وبقي فيه فضلة ثم رفع رأسه ونظر الي وتبسم وقال: أبا هر قلت: لبيك يا رسول الله قال: بقيت أنا وأنت فقلت: صدقت يا رسول الله قال: فاقعد فاشرب قال: فقعدت فشربت ثم قال لي: اشرب فشربت فما زال يقول لي أشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له في مسلكا قال: ناولني القدح فرددت اليه القدح فشرب من الفضلة[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه. والامام أحمد في مسنده.

وكان عليه الصلاة والسلام يرفض دائما أن يتميز بين أصحابه. ومن ذلك أنه كان مرة في سفر مع جماعة من أصحابه. فلما حان موعد الطعام عزموا على اعداد شاة يأكلونها

فقال أحدهم: علي ذبحها.

وقال الآخر علي سلخها.

وقال الثالث: علي طبخها.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وعلي جمع الحطب.

فقالوا: يا رسول الله، نحن نكفيك العمل.

فقال: علمت أنكم تكفونني ولكنني أكره أن أتميز عليكم وان الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه مميزا بين أصحابه[1].

وفي هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقاني جـ٤ ص ٦٥.

والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه »[1].

هذه هي الروح التعاونية التي غرسها النبي الكريم في نفوس أصحابه مما جعلهم ينجحون في نشر الاسلام وتعاليمه بين الأمم.

قال تعالى: انما المؤمنون اخوة[2]، وقال: « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل »[3].

وكان صلى الله عليه وسلم يُذَكِّر أصحابه ويعظهم بين الحين والحين حتى يكونوا دائما على اتصال بمولاهم ولا يجرفهم لهو الحياة الدنيا.

ومن ذلك ما روي عن أبي نجيح العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله - عز وجل - والسمع والطاعة. وان تأمر عليكم عبد، فان من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضُّوا عليها بالنواجذ واياكم

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٠.

(٣) سورة الاسراء الآية ٢٦.

ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار »[١].

قال تعالى: « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »[٢]، وقال: « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »[٣].

وكان صلى الله عليه وسلم يجيب على أصحابه فيما يعن لهم من الأسئلة التي كانت تجيش في نفوسهم سواء أجاب عليها بنفسه أو بما ذكره القرآن الكريم وهي كثيرة منها:

(أ) قال تعالى: « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمها أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو.. »[٤] وقال تعالى: واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون »[٥]... الخ.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.
(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٤.
(٣) سورة النحل آية رقم ١٢٥.
(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٩.
(٥) سروة البقرة آية رقم ١٨٦.

(ب) وروي عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله دلني على عمل اذا عملته أحبني الله وأحبني الناس؟ فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس »[1] ... الخ.

وكان صلى الله عليه وسلم متواضعا مع أصحابه يكون فيهم كأحدهم.

قال أبو هريرة - رضي الله عنه - دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم. فاشترى سراويل، وقال للوزان: «زن وأرجح» فوثب البائع الى يده صلى الله عليه وسلم يقبلها، فجذب يده وقال: هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك انما أنا رجل منكم» ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال: صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله »[2].

وقال الأسود بن سريع: يا رسول الله اني قلت شعرا

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره.

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء عن هذا الحديث جـ٢ ص ١٩: «رواه أبو يعلى. والطبراني في الأوسط والدار قطني في الأفراد والعقيلي في الضعفاء عن أبي هريرة بألفاظ متقاربة.

أثنيت فيه على الله ومدحتك، فقال له: ما أثنيت على الله فهاته، وما مدحتني به فَدَعْ عنك وكان يقول: يأ يها الناس لا ترفعوني فوق قدري، فان الله قد اتخذني عبدا قبل أن يتخذني نبيا »[1].

قال تعالى: « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما - سورة الفرقان ٦٣ ».

وكان عليه الصلاة والسلام يمزح مع أصحابه ولا يقول الا حقا: ومن ذلك، ما روي أن جاءته امرأة عجوز من الأنصار فقالت: يا رسول الله. ادع الله لي بالمغفرة فقال لها: أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز! فبكت فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال لها: لست يومئذ بعجوز أما قرأت قول الله تعالى « انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عُرُباً أترابا »[2].

كما روي أن أبا بكر الصديق خرج قبل وفاة الرسول بعام في تجارة الى بصرى، ومعه « نعيمان »، و « سليط ابن

---

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي - جـ٢ ص ١٣٢ - طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٢هـ.
(٢) رواه الترمذي في الشمائل مرسلا عن الحسن البصري ص ١١٢.

حرملة » وكان سليط موكلا بالطعام، فقال نعيمان لسليط أطعمني قال: لا أطعمك حتى يأتي أبو بكر، فقال نعيمان: تشترون مني عبدا لي؟ قالوا: نعم، قال: فانه عبد له كلام وسيقول لكم: لست بعبد أنا ابن عمه، فان كان إذا قال لكم هذا تركتموه، فلا تشتروه، وتفسدوا علي عبدي؟ قالوا: لا، نشتري ولا ننظر في قوله، فاشتروه منه بعشر قلائص - وهي النوق الشابة - ثم جاءوا ليأخذوا « سليطا » على أنه العبد الذي باعه لهم « نعمان » فامتنع « سليط » من الذهاب معهم، فوضعوا في عنقه عمامة وشدوه بها فقال لهم: انه يتهزأ ولست بعبده، فقالوا له: قد أخبرنا خبرك ولم يسمعوا كلامه، ثم ساقوه معهم بالقوة. فجاء أبو بكر، فلما علم بالخبر، اتبع القوم فأخبرهم أن نعيمان يمزح، ورد عليهم القلائص. وأخذ سليطا منهم، فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر فضحك من ذلك هو وأصحابه حولا »[١].

ثالثا - خلقه مع خصومه:

من أهم الأسباب التي أدت الى نجاح الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته: المعاملة الحسنة من الرسول لخصومه،

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده، وأخرجه ابن عبد البر عن أم سلمة.

وأعدائه. والصبر على أذاهم، والسياسة الرشيدة التي سلكها معهم. والمجال في ذلك واسع يحتاج الى مجلدات. ولكن سنقتصر في بحثنا هذا على بعض النماذج ليكون في ذلك العبرة والعظة للدعاة الى الله تعالى ومن على شاكلتهم من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام.

روى أن بعض الكافرين عمد الى قبضة من التراب فنثرها الى رأسه وهو يسير في بعض سكك مكة المكرمة، وعاد الى بيته والتراب على رأسه، فقامت اليه احدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله يقول لها: يا بنية لا تبكي، فان الله مانع أباك »[١].

وكان من الممكن في كل ما يحدث له من الأذى أن يدعو على قومه كما فعل بعض الأنبياء والمرسلين ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » ولا عجب في ذلك فقد قال له ربه: « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم.... »[٢]، وقال أيضا: « واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مما يمكرون.... »[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٥٨.

(٢) سورة الأحقاف آية ٣٥.

(٣) سورة النحل آية ١٢٧.

استعملت قريش مع رسول الله كل الحيل للقضاء على الدعوة الاسلامية. وفي ذات يوم أرسلت اليه أحد دهاة العرب ألا وهو: «عتبة بن ربيعة». لمفاوضة الرسول، وابعاده عن تبليغ الرسالة، وتأدية الأمانة. فقال له: يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني لأعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - صاحب الخلق الكريم - قل يا أبا الوليد أسمع. قال: يا ابن أخي! ان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وان كان الذي يأتيك رئيا تراه - أي ما يتراءى للانسان من الجن - لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك أطباء، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

فقال له صاحب الخلق العظيم: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال:: نعم، قال: فاسمع مني. ثم قرأ عليه آيات من أول سورة «فصلت» «الى السجدة» فلما سمعها عتبة بن ربيعة أنصت لها حتى انتهى الرسول الى السجدة فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك. ثم عاد عتبة الى

أصحابه فلما جلس بينهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد قال: ورائي أني سمعت قولا ما سمعت بمثله قط! والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصْنعوا ما بدا لكم[1].

أليس هذا هو خلق الاخلاص الذي نادى به القرآن الكريم.

قال تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا»[2]. وقال: «من كان يريد العزة فَلِلَّهِ العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.....»[3].

وبعد أن هاجر عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة الى المدينة المنورة أقام المجتمع الاسلامي على أسس قويمة؛

---

(١) سيرة ابن هشام - جـ١ - ص ٢٩٣ - ٢٩٤.
(٢) سورة الكهف الآية ١١٠
(٣) سورة فاطر الآية ١٠

منها المعاهدة بينه وبين اليهود وكتبت وثيقة لدستور يسيرون عليه كما ذكر في المراجع المختلفة.

هذه المعاهدة تدل على خلق النبي الكريم في معاملته لغير المسلمين وانه كان يرغب في أن يعيش معهم في أمن وسلام. الا أن اليهود غدروا - كعادتهم - بعد ذلك ولكنه عليه الصلاة والسلام أعطاهم درسا لم ينسه أحفادهم الى يومنا هذا.

في شهر رمضان من العام الثامن الهجري دخل النبي صلى الله عليه وسلم بجيش عظيم مكة المكرمة فاتحا منتصرا. ولما انتهى الرسول الى الكعبة ومعه المسلمون استلم الركن بمحجنه - أي بعصا كالصولجان - وكبر فكبر المسلمون لتكبيره حتى ارتجت مكة تكبيرا. والمشركون ينظرون اليه وهم فوق الجبال - بعجب ودهشة، ثم طاف، وطلب مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة حاجب الكعبة ودخلها وصلى ركعتين بعد الوضوء. ثم وقف على باب الكعبة قائلا: «لا اله الا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده... ثم تلا رسول الله قول الله تعالى: «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا

وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير »[1] يا معشر قريش، ويا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء فأعتقهم رسول الله وعفا عنهم، وقد كان الله امكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيئا. ثم رد مفتاح الكعبة الى حاجبها (عثمان بن طلحة)....[2].

هو قمة خلق العفو الذي تحلى به المصطفى صلى الله عليه وسلم، والذي كان سببا في اسلام قريش كلها. ومن يومئذ آمنت أم القرى، ورفعت منار التوحيد ولواءه، وأصبحت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

رابعا - خلقه في أحوال متفرقة.

من خلقه الكريم الشجاعة في كثير من المواقف:

ومن أبرزها أنه في العام الثامن من الهجرة النبوية حدثت غزوة حنين التي تفرق فيها المسلمون من حول النبي صلى الله عليه وسلم بسبب خدعة فعلها المشركون. وكان النبي الكريم على بغلته البيضاء، ومعه ابن عمه أبو سفيان

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام - القسم الثاني - ص ٤١٢.

ابن الحارث يقودها. وينادى الرسول أمام المشركين دون خوف أو وجل: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، أيها الناس هلموا الي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، ولكنهم شغلوا باضطرابهم وحملت الابل بعضها على بعض فانطلق الناس، الا نفرا من المهاجرين والأنصار ثبتوا مع رسول الله، فقال الرسول: يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب الشجرة، فأجابوا لبيك لبيك، فكان الرجل يذهب ليثنى بغيره، فلا يقدر، فيأخذ درعه، فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلى سبيله، فيؤم الصوت حتى ينتهي الى رسول الله، حتى اذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا حتى انتصر المسلمون[1].

قال تعالى: «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام - جـ٤ ص ٨٥، وكتاب المغازي للواقدي ٩٠.

(٢) سورة التوبة الآيتان ٢٥. ٢٦.

ومن خلقه الكريم « الكرم »

ولقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في ذلك مما يضيق المقام عن ذكره.

وعلى سبيل المثال أن رجلا سأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين، فرجع الى قومه وقال: أسلموا فان محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة.

ومن شدة كرمه أنه كان يستحي أن يرد سائلا معتذرا بالفاقة بل كان يقترض له. جاءه رجل - يوما - فسأله، فقال: ما عندي شيء لكن ٱبْتَعْ علي فاذا جاءنا شيء قضيناه. فقال عمر: يا رسول الله: قد أعطيته من قبل، فما كلفك الله ما لم تقدر عليه. فكره النبي الكريم ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخشَ من ذي العرش اقلالا، فتبسم النبي، وعرف البشر في وجهه ثم قال: بهذا أمرت[1]...

قال تعالى: « ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم »[2].

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي. جـ٢ - ص ٣٣٧. والمواهب اللدنية للقسطلاني ص ٢٠٩.

(٢) سورة التغابن الآية رقم ١٧.

ومن خلقه الكريم « العدل ».

ومن أبرز النماذج في ذلك أن امرأة من بني مخزوم سرقت، فأحزن قريشا شأنها فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله؟ ومن يجترىء عليه الا أسامة ابن زيد؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب، وجاء في خطبته قوله: انما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[١].

قال تعالى: « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى[٢]..» ومن خلقه الكريم « العفة ».

حينما اجتمعت الأحزاب على حرب النبي صلى الله عليه وسلم، وكادوا يفتكون بالجيش الاسلامي لولا أن الله سلم ونصره عليهم كما قال تعالى: « وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ». حينئذ نجد أن الرسول كل ما قاله عليهم هو: « اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان جـ٢ ص ٢١٤.

(٢) سورة النحل آية رقم ٩٠.

الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم[١].

ولما رحل عن ثقيف قال له أحد أصحابه: يا رسول الله: ادع عليهم فقال: «اللهم اهد ثقيفا وأت بهم»[٢].

ومن خلقه الكريم «الصدق»

ومن أكمل ما ورد في ذلك أن عبد الله بن عامر قال: جاء رسول الله الى بيتنا وأنا صبي صغير، فذهبت لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعالى حتى أعطيك، فقال صلى الله عليه وسلم: وما أردت أن تعطيه قالت: تمرا، فقال: أما انك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة»[٣].

قال تعالى: «ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم الا ايمانا وتسليما»[٤].

ومن خلقه الكريم «الأمانة»

ومن أعظمها شأنا أنه صلى الله عليه وسلم عند هجرته من مكة المكرمة الى المدينة المنورة استخلف ابن عمه علي ابن

---

(١) اللؤلؤ والمرجان جـ٢ ص ٢٦٤.
(٢) سيرة ابن هشام جـ٤ ص ١٣٠.
(٣) تيسير الوصول الى جامع الأصول جـ٣ ص ٢٥٦.
(٤) سورة الأحزاب الآية ٢٢

أبي طالب رضي الله عنه ليسلم المشركين الودائع التي استحفظها مع أن هؤلاء المشركين كانوا ممن تسببوا في هجرته، واضطراره الى ترك وطنه في سبيل عقيدته ولكن صاحب الخلق الكريم لم ينزل الى مستوى أخلاقهم[١].

قال تعالى: «ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها..»[٢]

ومن خلقه الكريم «الحياء».

كان عليه الصلاة والسلام شديد الحياء ومن ذلك أن السيدة عائشة رضي الله عنها ذكرت أن امرأة سألت النبي عن غسلها من الحيض فعرفها كيف تغتسل ثم قال لها: خذي فرصة - أي قطعة - من مسك فتطهري بها، قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: سبحان الله تطهري، فاجتذبتها إليَّ فقلت لها: تتبعي اثر الدم.

وروي أنه قال لتلك المرأة تطهري بها ثلاث مرات ثم استحيا فأعرض بوجهه»[٣].

---

(١) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. للأستاذ محمد رضا - ص ١٢٧ (الطبعة الخامسة).

(٢) سورة النساء آية ٥٧.

(٣) احياء علوم الدين للغزالي جـ٣ ص ٣٢٤.

ومن خلقه الكريم «الاصلاح بين الناس»

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت خصمين بالباب عالية أصواتهما، واذا أحدهما يستوضع الآخر - أي يسأله أن يضع عنه بعض دينه -، ويسترفقه في شيء - أي يسأله الرفق - وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أين المتألي على الله - أي الحالف - لا يفعل المعروف؟ فقال: أنا يا رسول الله! وله أي ذلك أحبَّ»[1].

قال تعالى: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم[2]»، وقال أيضا: «انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم[3]».

ومن خلقه الكريم «الشفاعة»

عن أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب» وفي رواية ما شاء[4]

---

(١) متفق عليه.
(٢) سورة الأنفال آية ١
(٣) سورة الحجرات آية ١٠.
(٤) متفق عليه

قال تعالى: «من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها»[١].

ومن خلقه الكريم «المحافظة على الأعمال»

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره، صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة[٢].

قال تعالى: «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»[٣]..

وهكذا كان خلق النبي الكريم في أحواله قدوة طيبة، وأسوة حسنة لكل من أراد عز الدارين -الدنيا والآخرة- وشرف الحياتين. وصدق الله العظيم اذ يقول: «لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»[٤]، وقال تعالى: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجا منيرا، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا»[٥].

---

(١) سورة النساء آية ٨٥.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الحجر ٩٩.

(٤) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٥) الأحزاب ٤٥ - ٤٨.

خاتمة

هذا هو الجانب الخلقي للنبي الكريم الذي عاش عليه طوال حياته محققا في ذلك قول الله تبارك وتعالى: «لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين» آل عمران ١٦٤؛ وما تزكية النفس الا تطهيرها من الرذائل، والتخلي عن الخبائث والتحلي بكل خلق فاضل كريم يأخذ بيد الفرد، والأسرة، والمجتمع الى ما فيه السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة..

من أجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مالك في الموطأ بلاغا عنه صلى الله عليه وسلم: «انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقوله فيما رواه البخاري في التاريخ عن أبي هريرة: «انما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا».

واذا كان لي من كلمة في نهاية هذا البحث الذي يتصل بالأسوة الحسنة، والقدوة الطيبة، صاحب الخلق الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. فهذه الكلمة هي بعض التوصيات التي أضعها أمام أعضاء مؤتمر السيرة والسنة النبوية لعلها تسهم في اصلاح الفرد، والأسرة، والمجتمع الذي ننشده في كل زمان ومكان:

(١) أن تكون الأخلاق الفاضلة هي المحور الذي يدور حوله تعامل الناس في البيت والمدرسة، وجميع أماكن العمل وفي مقدمتها وسائل الاعلام المختلفة.

(٢) أن يكون المصدر الأساسي لهذه الأخلاق الفاضلة هو: القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٣) العمل على تشجيع أصحاب الأخلاق الفاضلة، والأفعال الحميدة، وذلك بمكافآتهم ولو بكلمة طيبة ليكون ذلك تشجيعا لهم، وباعثا على الاستكثار من عناصر الخير في المجتمع.

هذه هي بعض التوصيات التي انشرح لها صدري، وسر بها فؤادي.

لهذا أرجو من الله العلي القدير أن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا ويزيدنا علما، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

وصلى الله على صاحب الخلق الكريم محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وسلم..



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الجانب الخلقي للنبي الكريم

للدكتور محمد طلحة حسن

« اندونيسيا »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

« الجانب الخلقي للنبي الكريم »

١ - مقدمة

البحث حول شخص محمد صلى الله عليه وسلم بحث ممتع جذاب. والدراسة عن سيرته من كل جوانبها دراسة ممتازة منجبة، لن تنفد أسرارها مهما نفدت كلمات الباحثين وأصوات المناقشين.

ونحن موقنون كل اليقين بأنه صلى الله عليه وسلم- رجل مثالي غير عادي وفوق كل ذلك فإنه نبي ورسول.

٢ - فنحن هنا لا نبحث عن سيرة عظيم أو زعيم أو عبقري عادي، ولا نكتب قصة رجل كسائر الرجال فنسمح للخيال أن يصول ويجول، ولكننا نبحث ونكتب عن سيرة رجل مثالي غير عادي، سيرة نبي مرسل موحى إليه. فلا نعالج سيرة هذا النبي الكريم كما نعالج سيرة أي عظيم أو زعيم أو عبقري، فنطلق لخيالنا العنان بغير تحرز لنملأ ما نتصور، فراغاً في حياة ذلك العظيم أو ذلك الزعيم أو ذلك العبقري.

لو جاز هذا بالنسبة للناس جميعاً، فهو لا يجوز بالنسبة لهذا النبي الكريم بالذات، فنحن إزاء نص قاطع يحذرنا من أن ننسب له حرفاً واحداً بغير حق، حتى لو لم يكن هناك هذا النص لكان ذلك هو ما يقضي به واجب الإجلال نحو أعظم رجل عرفته الانسانية وسجلته تواريخ البشر.

٣ - نقدم في هذه المناسبة الطيبة نبذة يسيرة في البحث من الجانب الخلقي للنبي الكريم علماً بأنه من أعظم وأروع سيرته حتى شهد به رب هذا الكون:

«وإنك لعلى خلق عظيم»[١]

ب- مجبول بأكرم الفطرة.

إن الخلق الإنساني يتنوع إلى خلق فطري ينشأ مع الإنسان في جبلته، وخلق مكتسب يتمرن صاحبه على تحصيله باذلاً كل جهد حتى يمتلك زمامه ويصبح كأنه عادة متأصلة فيه[٢]

ومحمد صلى الله عليه وسلم يتخلّق بأسمى الخلق في كليهما (فطري وكسبي) يعرفه قومه ويقرره، ويسجله التاريخ

---

(١) سورة القلم: ٢

(٢) . د. محمد رجب البيومي- مجلة رابطة العالم الاسلامي- جمادى الأولى: ١٣٩٨هـ

ويشاهده. فانه مجبول بأكرم الخلق البشري حتى يكون خلقه أقوى من بيئته الطبيعية وأنفذ من بيئته الاجتماعية، لا تؤثره وهو يؤثرها ولا تلونه وهو يلونها. قال الاستاد الباحث أبو الأعلى المودودي في تصوير هذا الموقف:[١]

«وما كان مجالسته ومعاشرته ومخالطته إلا لأولئك العرب أنفسهم- ولكن عاداته وأخلاقه وخصاله وأفكاره- كانت مختلفة كل الاختلاف عن عادات قومه وأخلاقهم وخصالهم وأفكارهم. فما كان يكذب في حديثه، ولا يؤذي أحداً بيده أو لسانه، وكان لين الجانب خفيف الظل عذب الكلام، يحبه ويفديه كل من جالسه مرة، وما كان ليأخذ من أحد شيئاً ولو كان حقيراً بطريق غير حسن، وكان من الأمانة والصدق والعفاف على حظ كبير، جعل كثيراً من أبناء قومه يأمنونه على أموالهم الثمينة، ويودعونه إياها وهو يحافظ عليهم كما يحافظ على نفسه وماله، والناس كلهم يعتمدون عليه، ويثقون بأمانته، مما جعلهم يلقبونه **بالأمين**.

وكان حَيِيّاً لم يظهر لأحد بدنه عرياناً بعدما بلغ سن

(١) مبادىء الاسلام- أبو الاعلى المودودي، ص: ٦٢- ٦٤

الشعور. وكان مهذباً ينفر من الشر والرذيلة، على الرغم من كونه قد نشأ وعاشر طول حياته رجال الشر والرذيلة. وكان نظيفاً نزيهاً في كل عمل من أعماله، وكان طاهر القلب، يتألم عندما يرى قومه ينهبون ويسفكون الدماء، وكان يسعى لاصلاح ذات بينهم كلما حمي بينهم وطيس الحروب والمعارك. وكان رؤوفاً رحيماً لين الجانب يشاطرهم فيما ينزل بهم من المصائب، وينصر الأيتام والأيامى، ويطعم الجياع، ويضيف ابناء السبيل، ويكرم مثواهم، ويتحمل لهم الشدائد والخسائر، وكان ذكي الفؤاد ثاقب القريحة، يعاف عبادة الأوثان والأصنام على معاشرته لقوم كانت الوثنية فطرتهم الثانية، ودينهم الذي ورثوه عن آبائهم كابراً عن كابر. وما كان ليطأطيء رأسه لأحد من الخلق كان قلبه يحدثه: أن كل شيء في الأرض أو السماء لا يستحق العبادة، وأن الله واحد ليس له شريك، ولا يمكن أن يكون له شريك. فكان هذا الرجل يتلألأ بين هؤلاء القوم الجاهلين كما تتلألأ الجوهرة الكريمة بين الأحجار الكثيرة أو كما يتلألأ السراج في ظلمة الليل.

٢ - وهو مع ذلك مؤدب بأعظم الخلق القرآني، أدبه الرؤوف الرحيم.

قال صلى الله عليم وسلم في ذلك الحديث رواه ابن مسعود- رضي الله عنه- انه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**».

وتوجز لنا السيدة عائشة رضي الله عنها- هذا الكمال الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يمثله في كلمتين، فتقول: «**كان خلقه القرآن**»

فحياته كلها ترجمة للقرآن العظيم، روحه وحقائقه وتوجيهاته، وكان في شخصه الكريم الصورة الكاملة للمنهج القرآني، والصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ صورة الشمول لكل أهداف الحياة ومتطلباتها، صورة الإيجابية الفعالة في واقع الحياة، صورة الواقعية الحقة في مثالية عجيبة وتوازن رائع بين كل متطلبات النفس والحياة وأخلاق لا تساميها ولا تقربها أخلاق بشر سواه.

فإن الذي يصطفى ليكون كليم الله وليكشف للإنسان برنامج الحياة وسرها **لا** بد أن يكون أسمى شخصية في النوع الإنساني، كما لا بد أن يكون حاملاً مثل الحياة العليا. فإذا كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهي أكبر دليل على ما يقول، إذ لو كان دعواه باطلة لما كان

ممكناً أن تتجلى هذه الحقيقة الكبرى في حياته الذاتية، حتى تسمو به فوق سائر الانسانية، خلقاً وشمائل[1]

ج - وإنه لعلى خلق عظيم.

١ - واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه، ولكن الشهادة من الله العلي الكبير أعظم من كل شيء آخر، هي الشهادة الكبرى والتكريم العظيم.

«وإنك لعلى خلق عظيم»

فلنقف وقفة قصيرة نلاحظ كلمات العلامة الشهيد سيد قطب، في تفسيره هذه الآية ما نصه[2]

«ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول فيها وإنك لعلى خلق عظيم- ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إليه إلى إدراك مداه أحد من العالمين.

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد صلى الله عليه وسلم تبرز من نواح شتى، تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه وتردد

---

(١) الاسلام يتحدى، وحيد الدين خان. ص: ١٠١

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب. ٨/٤٦- ٤٨.

في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله.

وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمد صلى الله عليه وسلم- لتلقيها وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة. ما هو، ما عظمته، ما دلالة كلماته ما مداها، ما صداها. ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين.

إن اطاقة محمد صلى الله عليه وسلم- لتلقي هذه الكلمة من هذا المصدر وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ولو انها ثناء-ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب؛ تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن... هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل.

إنه محمد- وحده- هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة... انه محمد وحده هو الذي يبلغ قمة الكمال الانساني المجانس لنفخة الله في الكيان الانساني

إنه محمد وحده- هو الذي يكافىء هذه الرسالة الكونية العالمية الانسانية حتى تتمثل في شخصه حية تمشي على الأرض في إهاب انسان... انه محمد وحده- الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام.

٢ – فإذا كان أفلاطون قد امتنع عن أن يضرب عبده في غضبه، فمحمد صلى الله عليه وسلم لم يضرب في حياته أحداً بيده لا عبداً ولا خادماً ونهى عن ضرب العبيد ذلك؛ لأن الضرب فوق ما فيه من إيلام جسدي هو إيلام نفسي، وهو تحقير لمعنى الانسانية.

وإذا كان سقراط قد راض نفسه على احتمال زوجه الحمقاء، فمحمد صلى الله عليه وسلم قد راض نفسه على احتمال إحدى عشرة من النساء وإن كن طيبات فضليات وما امتدت يده أو امتد لسانه بسوء إليهن قط، ولعل أشد ما عنفهن به أن قال لهن: إنكن صويحبات يوسف فشتمهن بالنوع ولم يشتمهن بالشخص ولذا قال عليه السلام: خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي. وإذا كان أرسطو قد أدرك معنى الصداقة فمحمد صلى الله عليه وسلم قد أدرك معنى الرحمة المطلقة ودعا إليها، وحث عليها، وكان هو البر الرحيم الذي نادى بالرحمة العامة في ندائه الإنساني الخالد: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». والرحمة معناها أعم من الصداقة، فالصداقة معنى شخصي والرحمة معنى اجتماعي انساني

٣ – فلنسمع إلى عدي بن حاتم الطائي يروي قصته،

وقد قدم إليه من الشام، بعد أن فتحت جيوش المسلمين بلاده، وبعد أن فر هارباً إلى الروم.

يقول، وقد كان يظن أنه سيلقى ملكاً في المدينة: دخلت على محمد وهو في المسجد، فسلمت عليه فقال: من الرجل. فقلت: عدي بن حاتم. فقام وانطلق بي إلى بيته، فوالله انه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته فوقف طويلاً تكلمه في حاجتها. قال، فقلت: والله ما هذا بملك. قال: ثم مضى بي رسول الله حتى إذا دخل بي بيته، تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقذفها إلي، فقال: اجلس على هذه. قال، قلت: بل انت فاجلس عليها، فقال: بل أنت. فجلست عليها، وجلس رسول الله على الأرض قال، قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك. ثم قال: إيه يا عدي بن حاتم، الم تك ركوسيا؟(دين بين النصرانية والصابئية)؟ قال: قلت بلى. قال: أولم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال، قلت: بلى. قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك. قال، قلت: أجل والله. وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يُجْهل.- قال: فأسلمت.

هذه أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم لا طلاء عليها، يأتيه عدي بن حاتم وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى

لجيوشه، يأتيه مغلوباً فيجلسه على وسادته ويجلس هو على الأرض ويحدثه بلا كلفة عما كان.

كل هذا التياسر والتواضع الصادر من نفسه الطاهرة، والذي هو صورة صادقة له، لم ينقص من هيبته ولا من محبته وقد قيل في وصفه: من رآه بداهة هابه ومن عاشره أحبه. فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم، وحب ووقار كامل، ولم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب[1].

٤ - وكان صلى الله عليه وسلم خرج مرة في سفر مع جماعة، فلما حان موعد الطعام، عزموا على إعداد شاة يأكلونها، فقال أحدهم: علي ذبحها، وقال الآخر علي سلخها، وقال الثالث: علي طبخها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وعليّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك العمل، فقال: علمت أنكم تكفونني ولكني أكره أن أتميز عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره عبداً أن يراه مميزاً بين أصحابه[2]

قال أبو هريرة رضي الله عنه: دخلت السوق مع رسول الله ليشتري سراويل، فوثب البائع إلى يد النبي صلى الله

(١) بطل الأبطال، عبد الرحمن عزام. ص: ٣٥
(٢) شرح المواهب- الزرقاني- ٤/٢٦٥

عليه وسلم ليقبلها فجذب يده، ومنعه قائلاً له: هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، وإنما أنا رجل منكم، ثم أخذ السراويل، فأردت أن أحملها- فأبى، وقال: صاحب الشيء أحق بأن يحمله.(١)

روى أنس خادم النبي صلى الله عليه وسلم: خدمت النبي عشر سنين فما قال لي: اف، قط. ولا قال لشيء صنعته، لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته؟ وكان لا يظلم أحداً أجره(٢)

ويروى أنه مر في المدينة في عيد فرأى صبياً لا يلعب لعب الصبيان، ولا يلبس الجديد لبسهم، فسأله عن أمره. فقال: لا أب يلبسني الجديد، ويأتي الي باللعب. فترقرق الدمع في عين النبي صلى الله عليه وسلم،وأخذ الغلام وألبسه الجديد، وقال له: أما ترضى بأن يكون محمد لك أباً وعائشة لك أماً.(٣) وجاء أعرابي إلى حضرته صلى الله عليه وسلم في المسجد، يطلب منه شيئاً، فأعطاه ما تيسر في يده، ثم قال له

---

(١) اشتراكية الاسلام- د. مصطفى السباعي- ص: ١٨٤

(٢) رواه البخاري.

(٣) الانسانية في حياة محمد، الشيخ ابو زهرة- مجلة لواء الاسلام- ربيع الأول ١٣٧٤هـ.

في هدوء: أأحسنت إليك يا أعرابي؟

فرد الرجل مندفعاً: لا، ولا أجملت. وهو رد أحمق، فغضب المسلمون وهموا به، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إليهم في ابتسام، فهدءوا، ثم اتجه إلى منزله الشريف ونادى الأعرابي في تلطف وابتسام فأعطاه مرة ثانية، ثم قال له أأحسنت إليك؟ فقال الأعرابي مبتهجاً: نعم وجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنك قلت ما قلت، وفي نفس أصحابي شيء من ذلك، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك. قال: نعم.

فلما كان الغداة جاء الأعرابي إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقال صلى الله عليه وسلم: إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه، وتوجه إلى الأعرابي بالنظر، فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

وهذا مضرب المثل في الحلم الأصيل، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكتف بالعفو عمن أساء في تهور بل استرضاه وأكرمه بعطاء آخر، وأراد أن يقدم نموذجاً عملياً للسيئة تقابل

بالحسنة، وللتهور يكافأ بالحلم والأناة.

٥ - ومن أكبر الشواهد التاريخية هو ما صنع النبي صلى الله عليه وسلم لأعدائه (مشركي قريش) يوم فتح مكة، اعدائه الذين اخرجوه منها وطردوه وأرادوا أن يقتلوه قام النبي صلى الله عليه وسلم على باب الكعبة، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج.... يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم». ثم قال: يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فقام إليه علي ابن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة والسقاية- (وكانت الحجابة في غير بني هاشم). فقال رسول الله: أين عثمان بن طلحة؟ فدُعي له فقال: هاك

المفتاح يا عثمان؛ اليوم يوم بر ووفاء.

هذه لمحة قصيرة من حياة النبي الكريم وعظمته وكرامته الخلقية التي شهدها العلي الكبير، وشهدها أهله، وأصحابه وأعداؤه، شهدها التاريخ الإنساني- وكانت هذه العظمة الخلقية من العوامل القوية التي رأينا تأثيرها في اخضاع الشعب العربي بأسره، وفي مدة لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة، اخضع البلد بكامله، مساحته لا تقل عن مليون وربع مليون ميـل مربع، أحدث في حياة الناس انقلاباً رائعاً، أصبح بتأثيره قطاع الطرق أمناءأتقياء ،وأصبح الطواغيت قائمين بالقسط،وأصبح الذين لا يخافون الله يشفقون من خشيته. نتيجة أي شيء كان هذا التحول والانقلاب يا ترى؟

صدق الاستاذ الباحث أبو الأعلى المودودي، إذ قال: «كان مرد كل ذلك إلى هاتين القوتين - قوة الإقناع وقوة الأخلاق- هما اللتان أخضع النبي صلى الله عليه وسلم بهما جزيرة العرب بكاملها، وأحدث في الحياة العربية آنذاك انقلاباً بلغ من الروعة قمته، ومن العظمة منتهاها» والجدير

(١) سيرة ابن هشام ٤١٢/٢

بالذكر أن كان دور السيف في هذا الانقلاب من الضآلة، حيث أن كل الحروب والمعارك التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم لكسر شوكة القوى المعادية لم يبلغ الذين استشهدوا فيها من المسلمين أو قتلوا فيها من المشركين والكفار بضعة ومئة نفر. وبحق نستطيع أن نطلق على هذا الانقلاب ثورة بيضاء غير دامية[1]

د - أسوة حسنة

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» الآية[2]

قال الاستاذ الكبير أحمد مصطفى المراغي في تفسير الآية:

«إن المثل العالية والقدوة الحسنة ماثلة أمامكم لو شئتم فتحتذون الرسول في أعماله وتسيرون على نهجه- هلا اقتديْتُم بالرسول، وتأسيتم بشمائله».[3]

١ - نعيش اليوم في العصر الحائر والناس يتمردون ولا يرتاحون بما في أيديهم، والصراع بين الحق والباطل مستمر، والصدام بين الإيمان والطغيان دائر، والمارقون عن

---

(١) المودودي، مجلة رابطة العالم الاسلامي- جمادى الأولى ١٣٩٦هـ

(٢) سورة الأحزاب: ٢١

(٣) تفسير المراغي- ١٤٦/٧.

دينهم اختاروا طريق الالحاد والدهريـــة، وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم بالانغماس في الخمر واللهو والمجون. ونرى الكثـيرين منهم الآن قد شمروا عن ساعد الجد لقلب حضارتهم وان وفرت لهم أسباب الترف وسبل الرخاء ولكنها سلبتهم ثروة الطمأنينة القلبية.

وأصيب المسلمون من علة وضعف كما صورها الأستاذ المفكر أبو الحسن الندوي ما نصه: «وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادىء الفلسفة الأوربية سريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك، فترى المادية الغربية في البلاد الاسلامية في كثير من مظاهرها وآثارها، وترى تهافتاً على الشهوات ونهماً للحياة، نهم من لا يؤمن بالآخرة ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة، ولا يدخر من طيباتها شيئاً وترى تنافساً في أسباب الجاه والفخار وتكالباً عليها فِعْل من يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها، وترى إيثاراً للمصالح الشخصية على المبادىء والأخلاق، شأن من لا يؤمن بنبي ولا كتاب، ولا يرجو معاداً ولا يخشى حساباً...»[1]

٢ - وما العلاج من هذه العلة الناعسة، وما الطريق

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. ص: ٢٨٤

المخرج من هذا الضعف إلى القوة والحماسة؟

العلاج الفريد هو الرجوع والخضوع إلى القرآن، والطريق الوحيد هو الاقتداء والاحتذاء بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ،فالقرآن وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الاسلامي نار الحماسة والإيمان وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مستسلمة، منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقاً على الجاهلية وسخطاً على النظم الجائرة[1]

٣ - والتوجيه النبوي في أداء الرسالة وتبليغ الدعوة يتجلى في أسس ثلاثة:

الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل في نفسه وخلقه العملي قدوة لا صحابه ومجتمعه. فلم يأمرهم بأمر ويخالفهم إلى عكسه، فلم يجدوا فيه ما يمكن أن يحملهم على الظن بأنه داعية زعامة وتمويه واستئثار، بل كان شأنه معلم هداية وتجرد وإيثار[2] فالداعي الأول (النبي ﷺ) كان يطابق ما يقول على ما يفعل، وكان قرآناً يمشي على

(١) أبو الحسن الندوي- نفس المصدر السابق- ص: ٢٩١

(٢) الشيخ مصطفى أحمد الزرقاء- مجلة المسلمون. شعبان- ١٣٧٤ هـ

الأرض، وهذا العامل من العوامل القوية التي رأينا تأثيرها في غير المسلمين، فقد رأينا تأثير المسلم المتمسك الذي يقول ويفعل، على الأوربيين.. وقد اعتنقوه (أي الاسلام) لتأثرهم بحياة شخص مسلم، وسيره قبل أقواله وتفسيراته[1]

الثاني: انه صلى الله عليه وسلم كان يرى أن القيمة الاصلاحية إنما هي تقويم الفرد لأنه أساس الجماعة، فوجه أعظم اهتمام إلى هذا التقويم الفردي حتى كان يتعهد كل واحد بما يقنعه ويصلحه، ولا يترك داء يراه في نفس واحد حتى يستأصله بوسيلة عملية لا نظرية كلامية فحسب، وهذا ما تتجه إليه أنظار المصلحين اليوم في العالم الغربي إذ يعتبرون في أرقى وأحدث تفكيراتهم العلمية أن أساس النهضة بالأمم إنما هي العناية بالفرد.[1]

الثالث: انه صلى الله عليه وسلم كان في خطته التوجيهية يشرف بنفسه على تنفيذ التعاليم الاسلامية ويأخذ الناس جماعات وأفراداً بأن يعملوا بما تعلموا، ويحب أن يثمر الإيمان والعلم عملاً لا قولاً، حتى جعل بينهم أئمة عالمين عاملين لا فلاسفة نظريين، إذ لا فائدة لعلم لا تطبيق

---

(١) الشيخ مصطفى أحمد الزرقاء- نفس المصدر السابق.

له. وهذا مفرق طريق بين التوجيه النبوي والتوجيه الغربي المستمد من الثقافة الهيلينية.

أنهم تصوروا أنه من الممكن- ومن المستساغ- أن تقوم المثل الأخلاقية في الفضاء؛ في الأبراج العالية بينما السلوك الواقعي يسير في خـــــط آخر، محكوم كما يقولون بالضرورات». فصار من المستساغ عند الناس أن يتحدثوا عن النظرية الأخلاقية ويستمتعوا بها في ذاتها- في عالم المثل ثم لا يتوقعوا تطبيقها في واقع الأرض، وإنما يسيرون في هذا الواقع بحسب ما تقتضيه «الظروف»...[1]

٤ - تلك هي الأسوة الحسنة الأصيلة من صاحب الرسالة والدعوة الاسلامية النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. وهل نحن إلا ورثة نفس الدعوة، فلا بد لنا من أن نمارس القوة الخلقية اقتداءً واحتذاءً بالنبي صلى الله عليه وسلم.

هذا الأمر يتطلب همة عالية وطبعاً كريماً، وصبراً لا ينفذ وحلماً لا يخون وصدقاً لا يعرف اللين وعزيمة لا تقهر فلا نقابل- مثلاً- الشتم بمثله، ولا نرد الكذب بمثله أبداً،

---

(١) جاهلية القرن العشرين - محمد قطب، ص: ١٨٤

ولا نستعمل سلاح المكر والتضليل والخيانة لكسب المعركة، ولا نتخلى أبداً عن خصلة الكرم والنبل ضد خصمنا مهما تمادى في الغي وسوء التصرف معنا، ولا ينجحن طاغية لاخضاع رأسنا له مهما تناهى في العدوان والطغيان، ولا يقبلن ضميرنا صفقة بيعة، ولو عرضت عليه أموال طائلة، فتكون أخلاقنا في سمو، وسلوكنا في نزاهة، وتصرفنا في استقامة، وأمرنا مع عباد الله في عطف مما يجعل المجتمعات التي حولنا تنظر إلينا بنظرة التقدير والاستحسان، وتنحني لنا احتراماً وإجلالاً، وتدرك مدى ما يكون المسلم الصادق الذي يتمتع بالانسانية[1].

---

(١) هذه الكلمات مقتبسة من عبارات الاستاذ المودودي في مجلة رابطة العالم الاسلامي، جمادى الأولى ١٣٩٦هـ.

الجانب الخلقي للنبيّ الكريم ﷺ

للأستاذ فتحي يكن

« لبنان »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الجانب الخلقي
للنبي الكريم محمد بن عبد الله
صلّى الله عليه وسلم

توطئة

الخلق الكريم هو الهدف الأساسي والرئيسي لرسالة الاسلام كما يعبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) أخرجه أحمد وغيره.....

والقرآن الكريم حفل بآيات كثيرة تدعو إلى مكارم الأخلاق، وتبين أن الهدف الأصيل من استخلاف الله الناس في الأرض إنما هو عمارتها بالخير والحق، مصداقاً لقوله تعالى: (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)[1].

وقوله، (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى

---

(١) سورة الحج: ٤١

واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين، وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)[١].

الخلق ثمرة الإيمان ودليله:

والخلق الكريم دليل الايمان وثمرته، ولا قيمة لإيمان من غير أخلاق.. وإلى هذا المعنى أشار الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله:(ليس الايمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)[٢].

وسئل رسول الله: ما الدين؟ فقال: (حسن الخلق) وسئل ما الشؤم. قال (سوء الخلق)[٣]

الخلق محصلة العبادات:

والخلق الكريم محصلة العبادات في الاسلام... وبدون ذلك تبقى طقوساً وحركات جامدة لا قيمة لها ولا فائدة..

ففي محصلة الصلاة قال الله تعالى:(ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر)[٤] وقال صلى الله عليه وسلم:(من لم تنهه

---

(١) البقرة: ١٧٧
(٢) للديلمي في مسنده
(٣) أخرجه أحمد
(٤) العنكبوت: ٤٥

صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا)[1].

وفي محصلة الصوم قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)[2] وقال صلى الله عليه وسلم: (رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش) وقال: (إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فان سابَّهُ أحد أو قاتله فليقل إني صائم)[3].

وفي محصلة الحج قال الله تعالى: (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج)[4] وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[5].

حسن الخلق أثقل ما في ميزان العبد يوم القيامة:

والخلق أثقل ما في ميزان العبد يوم القيامة.. فمن فسد خلقه وساء عمله لم يسرع به نسبه وكان من الخاسرين، ومن حسن خلقه وطاب عمله تغمده الله برحمته وكان من الناجحين.. قال صلى الله عليه وسلم: (ما من شيء أثقل في

---

(١) رواه الطبراني
(٢) البقرة: ١٨٣
(٣) متفق عليه
(٤) البقرة: ١٩٧
(٥) متفق عليه

ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق)[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا. وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون.)[2].

أبرز الصفات الأخلاقية التي دعا إليها الرسول الكريم:

ان المتأمل في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي سيرته الشريفة يرى معالم منهج تربوي متكامل، حتى إن الأحكام الشرعية لا يمكن انتزاعها من المرمى الأخلاقي...

والذي يدرس المنهج الاسلامي في كل جوانبه وتفريعاته يدرك أنه منهج يهدف أساساً إلى إيجاد الشخصية الفاضلة والمجتمع الفاضل..

وبالرغم من أن عموم المنهج الاسلامي يؤكد على حسن الخلق ويدعو إليه، فقد أكد هذا المنهج على صفات رئيسية اعتبرها قوام الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم.. من ذلك:

الصدق:

فالصدق من أمهات الصفات الأخلاقية ومن دعائم

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي

(٢) رواه الترمذي

ومقومات الشخصية الاسلامية، والكذب من أبشع الخصال وأرذلها، وهو مدخل رئيسي إلى كثير من المنزلقات الشيطانية.. فالكذب يحطم النفس ويستذل شخصية الانسان.. ولهذا اعتبر الكذب من الآفات اللعينة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر، وان البر يهدي إلى الجنة، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا.. وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وان الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[١].

الكرم:

والكرم والجود وسخاء النفس واليد وبذل المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين من معالم الأخلاق الكريمة في النفس البشرية..

أما البخل والشح والإمساك فمن أخطر أمراض النفوس..

وفي القرآن الكريم عشرات من المواطن تتلازم فيها

---

(١) متفق عليه

صفتا الإيمان والإنفاق: (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون).

إن المتتبع لمشكلات المجتمعات وللمآسي والجرائم الأخلاقية فيها ليدرك أن كثيراً من الأسباب إنما تعود إلى كنز المال وعدم إنفاقه في أوجه الخير. ومن هنا يمكن أن نفهم مبررات الشدة في قوله صلى الله عليه وسلم:

(ما من يوم يصبح فيه العباد، إلا ملكان ينزلان فيقول احدهما:(اللهم اعط منفقا خلفا) ويقول الآخر:(اللهم اعط ممسكا تلفا)[1]

الورع:

والورع هو صمام الأمان في حياة المسلم وهو الضمان لاستقامته وعدم انحرافه.. والورع هو النور الذي يهتدي به المسلم في مسالك الدنيا ومنعطفاتها، وبغير الورع يصبح في ظلام دامس ويمشي على غير هدى وبدون نور (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور).

من هنا كان حض الإسلام على التورع شديداً لاعتبار أنه الصفة الأبرز والأقوى في استقامة النفوس واستقامة

(١) متفق عليه

المجتمعات... ولقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدة كبرى في مواجهة الأعمال بالورع فقال:(الحلال بَيِّن والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من النـاس.

فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وان حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1].

الحياء:

والحياء من أبرز الصفات الأخلاقية، ومن العوامل القـادرة عـلى صيانـة النفس وحفظهـا من السقوط والانحراف.. ولقد قال العلماء في ذلك:(حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق).

فمن الحياء: عدم التدخل في شؤون الآخرين.. وغض البصر.. وخفـض الجنـاح.. وعـدم رفـع الصوت.. والقناعة... الخ.

---

(١) متفق عليه

والرسول صلى الله عليه وسلم كان أشد حياء من العذراء في خدرها. وكان يقول: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[1].

الحلم:

والحلم مكرمة من مكارم الأخلاق ومفتاح إلى كثير من الفضائل ومغلاق لكثير من الشرور والآفات..

والحلم صنو الصبر، والصبر شطر الإيمان (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور)[2].

فلكم اطفأ الحلم ناراً أشعلتها العداوة والبغضاء..

ولكم حقق الحلم لأصحابه نجاحات لم تكن لتخطر على بال..

ولكم حسم الحلم أموراً عقدها التهيج والتشنج..

ولهذا كان حظ الحلم من العناية كبيراً في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم..

فمن كتاب الله:

---

(١) متفق عليه

(٢) الشورى: ٤٣

(فاصفح الصفح الجميل)[1]

(وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم)[2]

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[3]

وفي سنة رسول الله:

(ان العبد ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم)

(الا انبئكم بما يشرف الله به البنيان، ويرفع به الدرجات.قالوا: نعم يا رسول الله. قال: تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك)

(إذا جمع الله الخلائق، نادى مناد: أين أهل الفضل. قال: فيقوم ناس وهم يسير، فينطلقون سراعاً إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة. فيقولون: وما فضلكم. فيقولون: كنا إذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسيء إلينا حلمنا. فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين)

أبرز الصفات الذميمة التي حذر منها الرسول الكريم:

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا إلى

---

(١) الحجر: ٨٥

(٢) النور: ٢٢

(٣) الزمر: ١٠

التحلي بمكارم الأخلاق وبَيَّن الصفات الكريمة التي يجب أن يتحلى بها المسلمون، فانه من جانب آخر حذر من سيء الأخلاق وبين الصفات الذميمة التي يجب أن يتجنبها المسلمون.. من ذلك:

الغضب:

فالغضب يطفيء التفكير والعقل، ويفتح باب النفس على مصراعيه أمام هجمات الشيطان. ولهذا كان عقل الانسان من أقوى ما يتحصن به في مواجهة وسوسات الشيطان والقاءاته. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، والعقل الواعي عند حلول العقبات).

ولقد وصف الله تعالى عباده المتقين بقوله:(وإذا ما غضبوا هم يغفرون)[1]. ومن التوجيهات النبوية:

(أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني. قال: لا تغضب، فردد مراراً، قال: لا تغضب)[2]

(ما من جرعة اعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها

(١) الشورى: ٣٧

(٢) رواه البخاري

عبد ابتغاء وجه الله)[1].

(من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه، ومن حفظ لسانه ستر الله عورته)[2].

(ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد من ملك نفسه عند الغضب).

الشهوات:

والشهوات من أوسع مداخل الشيطان إلى النفس البشرية. وأعني بالشهوات شهوات الجسد كلها.. شهوة البطن وشهوة الفرج وشهوة النفس الخ (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب)[3].

ولقد نظم الإسلام وسائلَ إشباع هذه الشهوات.. وبين حدودها ومعالمها حتى لا يكون سبيلاً إلى إفساد النفوس والمجتمعات وتخريبها على نحو ما هو حاصل اليوم..

---

(١) رواه ابن ماجة. ورواته محتج بهم في الصحيح.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط.

(٣) آل عمران: ١٤

ففي شهوة البطن حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من التخمة بقوله:

(كلوا واشربوا وتصدقوا ما لم يخالطه اسراف ولا مخيلة)[١].

(من الاسراف ان تأكل كل ما اشتهيت)[٢].

(ان اهل الشبع في الدنيا هم اهل الجوع غدا في الآخرة)[٣]

وفي شهوة الفرج قال الله تعالى: (والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين)[٤].

وقال صلى الله عليه وسلم:

(ما تركت بعدى فتنة اشد على الرجال من النساء).

(لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، أو ليكسفن الله وجوهكم)[٥] (ما من صباح الا وملكان يناديان: ويل للرجال من النساء، وويل للنساء من الرجال)[٦].

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه ورواته ثقات يحتج بهم في الصحيح

(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي

(٣) رواه الطبراني باسناد حسن

(٤) المؤمنون: ٥ - ٦

(٥) رواه الطبراني

(٦) رواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الاسناد

شهوة المال:

وحب المال من شهوات النفس الأَصيلة.. فإذا تحكمت هذه الشهوة في النفس استعبدتها وغدت النفس تبعا لكل هوى..

ان كثيرا من الجرائم الاجتماعية والآفات الاخلاقية والكوارث المدمرة سببها طغيان حب المال على النفوس، واستحواذه على القلوب والعقول.. ولهذا كان توجيه الإسلام لهذه الشهوة توجيها فطريا أَصيلا من خلال عدد من المبادىء والاصول:

- أَن لا يكون المال غاية بل وسيلة لفعل خير.
- أَن يكون المال في الجيوب لا في القلوب - أن لا يسعى الى كنزه بل الى تداوله.
- أَن يكون اكتسابه من حلال لا من حرام او شبهة.
- أَن يكون منه نصيب للفقراء والمحتاجين.
- أَن لا يكون في انفاقه تقتير او تبذير.

وصدق الله تعالى حيث يقول:(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أَحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض إن الله لا يحب المفسدين).

العجلة:

والعجلة من الأمراض التي توقع الانسان في كثير من المهالك. وقد تتسبب بحدوث فواجع اجتماعية خطيرة..

فالعجلة وعدم التثبت يوقعان الإنسان في غيبة أَخيه.

والعجلة وعدم التحري قد يوقعان الانسان فيما حرم الله.

والعجلة وعدم التبين قد يتسببان في سفك الدماء وانتهاك الأعراض وخلافه.

ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مغبة العجلة فقال: (العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن).

وفي الأَمثال (في العجلة الندامة، وفي التأني السلامة).

(من تأنى نال ما تمنى).

والقاعدة ان يتبين الانسان الأَمر قبل الإقدام عليه، حتى لا يندم ساعة لا ينفع الندم..

العجب:

ومن أمراض النفس الأَمارة بالسوء مرض العجب وهو صنو الكبر والغرور. وهذا الداء الخبيث هو الذي هوى بإبليس من أَعلى إلى أَسفل حين قال: (أَنا خير منه، خلقتني

من نار وخلقته من طين).

ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد المتواضعين كان كثيرا ما يجأر الى الله بالدعاء ويقول: (اللهم اني اعوذ بك من نفخة الكبرياء).

وهنالك أنواع شتى من العجب والكبرياء:

فهنالك كبرياء العلم: الذي حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (آفة العلم الخيلاء) وفي حديث: (من تعلم العلم ليجاري به العلماء ويماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس اليه أدخله الله النار).

وهناك غرور التدين: واكثر ما يصيب هذا النوع المتنطعين الذين يشادون الدين ويبالغون في التدين. ولذا قال عليه الصلاة والسلام: (ألا هلك المتنطعون).

والى صميم هذا المعنى أشارت الآية الكريمة: (ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر).

وروى ان الله اوحى الى داود عليه السلام: (يا داود.. أنين المذنبين أحب الي من صياح العابدين).

وهنالك غرور الجاه: الذي يقصم ظهور اصحابه، يشعر احدهم وكأنه إله على الأرض.. والى امثال هؤلاء اشار

رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بصق بكفه يوما وقال (يقول الله تعالى: يا ابن آدم تعجزني وقد خلقتك من مثل بهذه، حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، جمعت ومنعت، حتى اذا بلغت التراقي قلت: اتصدق، وأنّى اوان الصدقة).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (بينما رجل يتبختر في بردته اذ اعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة).

وهنالك غرور المال: ونكتفي بما عرض له القرآن في قصة قارون: (ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة اذ قال له قومه لاتفرح ان الله لا يحب الفرحين)[1] (قال انما اوتيته على علم عندي. او لم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعا، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)[2] (فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) (الآية: ٨١ من سورة القصص).

---

(١) سورة القصص: ٧٦

(٢) سورة القصص: ٧٨

الحسد:

ومن الصفات الذميمة التي حذر الاسلام منها الحسد..

والحسد يطفي نور العقل ويعمي هدى البصيرة، ويجعل صاحبه عبداً أسيراً لحسده وحقده، وبالتالي يدفعه لسلوك أي سبيل- مهما كان ملتوياً- للكيد ممن يحسده.

ولهذا كان تحذير الرسول منه رهيباً.. ففي رواية للترمذي:(ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من الحرص والحسد في دين المسلم. وإن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب).

وآفة الحسد هذه في تفاقمها وهياجها تدفع بصاحبها إلى ارتكاب كل الحماقات وإلى استحلال كل المحرمات والمكروهات، كالنار في اشتعالها وهياجها تحرق الأخضر واليابس والغث والثمين دون أن تلوى على شيء.. والحسد باب يفضي إلى كثير من مساوىء الأخلاق. فهو قد يدفع إلى الكذب والتلفيق والاختلاق للنيل من المحسود. وهو قد يدفع إلى الغيبة والنميمة للامعان في أذى المحسود.

وهو قد يدفع إلى نصب الشراك وترتيب المثالب للايقاع بالمحسود.

ولهذا دعا الله تعالى نبيه في كتابه إلى أن يعوذ به من

الحسد والحاسدين (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد).

آفات أخرى:

وهنالك آفات أخرى لا تحصى عَدَّدها الاسلام محذراً منها، داعياً إلى اجتنابها في نطاق منهجه التربوي المتكامل يمكن الرجوع إليها في كثير من كتب السنة والحديث والسيرة...

جوانب اخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم:

تميزت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بأخلاقيتها في كل جانب من جنباتها.. وهذا ما جعل قولة السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تجيب أحد السائلين عن خلق الرسول تلامس حقيقة أخلاق النبوة حين قالت: (كان خلقه القرآن).

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان عظيماً في كل جانب من جوانب حياته، وكان أخلاقياً في كل تصرف من تصرفاته. ولذلك فهو يحق القدوة الحسنة للناس أجمعين كما تقرر ذلك في كتاب الله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

وفي بحثنا هذا سنقوم باستعراض الجوانب الرئيسية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم متلمسين انسكاب الصفات الأخلاقية فيها وانسيابها العفوي الطبيعي (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).

(١) في خلقه العام

★ أخبرنا اسماعيل بن ابراهيم الأسدي عن يونس، عن الحسن قال، سئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: (كان خلقه القرآن).

★ أخبرنا عفان بن مسلم، أخبرنا عبد الوارث بن سعيد، أخبرنا أبو التياح عن أَنس قال:(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا).

★ أخبرنا يزيد بن هارون، واسحاق بن يوسف الأزرق قالا: أخبرنا زكريا عن أبي اسحاق، عن أبي عبد الله الجدلي قال: سألت عائشة كيف كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم في بيته، قالت:(كان أحسن الناس خلقاً.. لم يكن فاحشاً أو متفحشاً. ولا صخابا في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح).

★ أخبرنا يعلى بن عبيد الطنافسي، وعبد الله بن نمير

الهمداني، قالا: أخبرنا حارثة بن أبي الرجال عن عمرة، عن عائشة أنها سئلت: كيف كان رسول الله إذا خلا في بيته، قالت: (كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكاً بساما).

★ حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا جميع بن عمير ابن عبد الرحمن العجلي، انبأنا رجل من بني تميم من ولد أبي هالة عن الحسن بن علي قال: قال الحسين: سألت أبي عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في جلسائه فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر... سهل الخلق.. لين الجانب.. ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح، يتغافل عما لا يشتهي. ولا يؤيس منه راجيه، ولا يخيب فيه..

قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والاكثار، وما لا يعنيه.

وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا، ولا يطلب عورته. ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه. وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير، فإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده انصتوا له حتى يفرغ.

حديثهم عنده حديث أولهم. يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته.

ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه. ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء. ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجور، فيقطعه بنهي أو قيام.

(٢) في كرمه

حدثنا سفيان، عن محمد بن المنكدر قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: (ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا)(١).

حدثنا ابراهيم بن سعد، عن ابن شهاب عن عبيد الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اجود الناس بالخير، وكان اجود ما يكون في شهر رمضان حتى ينسلخ، فيأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن، فاذا لقيه جبريل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اجود بالخير من الريح المرسلة)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ومسلم في الفضائل.
(٢) أخرجه البخاري

★ اخبرنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال:(كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئا لغد).[1]

(٣) في حيائه

★ حدثنا شعبة عن قتادة، قال: سمعت عبد الله بن أبي عتبة يحدث عن أبي سعيد الخدري قال:(كان صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرف في وجهه)[2]

★ حدثنا سفيان عن منصور عن عيسى بن عبد الله بن يزيد الخطمي، عن مولى لعائشة قال:(قالت عائشة ما نظرت إلى فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قالت ما رأيت فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قط)[3].

(٤) في تواضعه

★ حدثنا سفيان عن عيينة عن الزهري، عن عبد الله، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، قال:(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله).

---

(١) اخرجه الترمذي
(٢) رواه البخاري
(٣) اخرجه البخاري

★ عن انس بن مالك رضي الله عنه: أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن لي إليك حاجة. فقال: اجلسي في أي طريق المدينة شئت أجلس إليك)[١].

★ عن انس بن مالك رضي الله عنه قال:(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوط بحبل من ليف، وعليه اكاف[٢] من ليف)[٣]

★ كان مرة في سفر مع أصحابه، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاماً، فقسموا العمل بينهم، فقام يجمع الحطب، فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى. ولما وقف عليه اعرابي يرتجف خشية زجره وذكره أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد، وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا، فقاموا له، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا.

★ عن انس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعى إلى خبز الشعير والاهالة السخنة[٤]

---

(١) اخرجه ابن ماجه

(٢) السرج

(٣) اخرجه الترمذي وابن ماجه.

(٤) الدسم المتغير الرائحة من طول المكث

فيجيب.. ولقد كان له درع عند يهودي فما وجد من يفكها حتى مات)[١].

★ عن انس بن مالك رضي الله عنه قال: (حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على رحل رث[٢] وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم. فقال: اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة)[٣].

★ عن انس بن مالك رضي الله عنه قال: (لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهته لذلك)[٤].

★ حدثنا معاوية بن صالح عن يحيى بن سعيد عن عمرة قالت: (قيل لعائشة ماذا كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته؟ قالت: كان بشراً من البشر.. يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه)[٥].

(٥) في ضحكه

★ عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: (كان في ساق رسول الله صلى الله عليه وسلم حموشة، وكان لا يضحك إلا

---

(١) اخرجه الترمذي
(٢) السرج البالي
(٣) اخرجه البخاري
(٤) اخرجه الترمذي
(٥) رواه البخاري والترمذي

تبسما. فكنت إذا نظرت إليه قلت: أكحل العينين وليس بأكحل)[1].

★ عن عبد الله بن الحرث بن جزء رضي الله عنه أنه قال: (ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2].

★ عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: (ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك)[3].

(٦) في مزاحه

★ عن انس بن مالك: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (ياذا الاذنين)[4].

★ عن انس بن مالك قال: (إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: يا أبا عمير ما فعل النغير)[5].

★ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا :يا رسول الله أنك تداعبنا. قال: نعم. غير أني لا أقول إلا حقا)[6].

---

(١) اخرجه الترمذي
(٢) اخرجه الترمذي
(٣) اخرجه الترمذي
(٤) اخرجه الترمذي
(٥) اخرجه الترمذي
(٦) اخرجه الترمذي

★ عن انس بن مالك قال (إن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زهرا، وكان يهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم هدية من البادية، فيجهزه النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أن زهرا باديتنا ونحن حاضروه. وكان صلى الله عليه وسلم يحبه، وكان رجلاً دمياً. فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يوماً وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره. فقال: من هذا، أرسلني. فالتفت، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي صلى الله عليه وسلم حين عرفه. فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من يشتري هذا العبد.. فقال يا رسول الله إذاً والله تجدني كاسداً.

فقال النبي صل الله عليه وسلم: لكن عند الله لست بكاسد. أو قال: أنت عند الله غال).

★ حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن (البصري) قال: أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: يا أم فلان.. إن الجنة لا تدخلها عجوز. قال: فولت تبكي.. فقال: أخبروها

أنها لا تدخلها وهي عجوز.. إن الله تعالى يقول: (إنا أنشأناهن انشاء، فجعلناهن ابكارا، عُرُباً اترابا).

(٧) خلقه في طعامه

★ حدثنا عبد الكريم الجرجاني عن قيس بن الربيع، عن أبي هشام، عن زاذان، عن سلمان، قال: قرأت في التوراة أن بركة الطعام الوضوء بعده. فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، وأخبرته بما قرأت في التوراة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده).[1]

★ عن أبي أيوب الأنصاري قال: (كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، فقرب طعاماً، فلم أر طعاماً كان أعظم بركة منه أول ما أكلنا، ولا أقل بركة في آخره. فقلنا: يا رسول الله، كيف هذا؟ قال انا ذكرنا اسم الله حين أكلنا، ثم قعد من أكل ولم يسم الله تعالى فأكل معه الشيطان).

★ عن أم كلثوم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أكل أحدكم فنسي أن

(١) اخرجه الترمذي

يذكر اسم الله تعالى على طعامه فليقل بسم الله أوله وآخره)[1].

★ حدثنا عبد الأعلى عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عمر بن سلمة أنه (دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده طعام، فقال: أُدْنُ يا بني فَسَمِّ الله تعالى، وكل بيمينك، وكل مما يليك)[2].

★ عن أبي سعيد الخدري قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين)[3].

★ عن أبي إمامة قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا رفعت المائدة من بين يديه يقول: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مودع، ولا مستغنى عنه ربنا)[4].

★ عن أنس بن مالك قال: (قال رسوَل الله صلى الله عليه وسلم: إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[5].

---

(١) اخرجه أبو داود
(٢) اخرجه الترمذي
(٣) اخرجه أبو داود
(٤) اخرجه أبو داود
(٥) اخرجه الترمذي

(٨) خلقه في شرابه

★ حدثنا محمد بن جعفر، عن حسين المعلم، عن عمروابن شعيب، عن أبيه عن جده قال: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب قائماً وقاعداً)[١].

★ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتنفس في الإناء ثلاثا إذا شرب، ويقول: هو أَمْرَأُ أَوْ أَرْوى)[٢].

(٩) خلقه في مشيه

★ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه. ولا رأيت أسرع في مشيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأنما الأرض تطوى له، انا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث[٣]

★ عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مشى، تَكَفّأَ تَكَفُّؤاً كأنما يَنْحَطُّ من صَبَب)[٤].

---

(١) اخرجه الترمذي
(٢) اخرجه الترمذي
(٣) اخرجه الترمذي
(٤) اي ينزل من محل منحدر

(١٠) خلقه في كلامه

★ عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه)[١].

★ عن انس بن مالك قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه)[٢].

★ عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: (سألت خالي هند بن أبي هالة وكان وصافاً. فقلت: صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه (باسم الله تعالى) ويتكلم بجوامع الكلم. كلامه فصل لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين. يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئاً، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً ولا يمدحه. ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدي الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له. ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. إذا أشار بكفه كلها. وإذا تعجب قلبها، وإذا

---

(١) اخرجه الترمذي

(٢) اخرجه الترمذي

تحدث اتصل بها، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب اعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه. جل ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام).

(١١) خلقه في نومه

★ عن عبد الله بن يزيد، عن البراء بن عازب: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه، وضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن وقال: رب قني عذابك يوم تبعث عبادك)[١].

★ عن حذيفة قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: اللهم باسمك أموت وأحيا.. وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)[٢].

★ عن عائشة قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه، فنفث فيهما، وقرأ فيهما قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده. يبدأ بهما

---

(١) اخرجه الترمذي

(٢) اخرجه الترمذي

رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يصنع ذلك ثلاث مرات)[1].

(١٢) خلقه مع أزواجه

★ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم)[2].

★ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)[3].

★ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء)[4].

★ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (خدمتك زوجتك صدقة).

★ ويقول: (أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ويجامعها آخره).

---

(١) اخرجه الترمذي
(٢) رواه الترمذي
(٣) رواه ابن حبان في صحيحه
(٤) رواه البخاري ومسلم

★ ويقول: (إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها).

★ قال صلى الله عليه وسلم: (ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن)[1].

★ سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة رضي الله عنها في المدينة المنورة فسبقته، ثم سابقها في تبوك فسبقها، فقال لها (هذه بتلك)[2].

★ قالت عائشة رضي الله عنها: (والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بالحراب، ورسول الله يسترني برفائه لأنظر إلى لعبهم من بين أذنه وعاتقه، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي انصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو)[3].

★ وكان آخر ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث كلمات ظل يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه، جعل يقول: (الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم.. لا تكلفوهم ما لا

---

(١) رواه أبو داود
(٢) رواه أحمد
(٣) مسند أحمد

يطيقون.. الله الله في النساء، فانهن عوان- أسيرات- في ايديكم.. اخذتموهن بعهد الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)[1].

★ وفي خطبة الوداع أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فقال: (ألا فاستوصوا بالنساء خيرا)[2].

(١٣) خلقه مع أولاده

★ عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما رأيت أحداً من الناس كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم كلاماً ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة رضي الله عنها.. قالت: وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآها قد أقبلت رحب بها، ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه. وكانت إذا أتاها النبي صلى الله عليه وسلم رحبت به ثم قامت إليه فقبلته. وانها دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي قبض فيه، فرحب بها، وقبلها وأسر إليها فبكت، ثم أسر إليها فضحكت، ولما سألتها عائشة عما أسر إليها رفضت أن تجيبها، حتى إذا قبض صلى الله عليه وسلم، قالت فاطمة: أسر إلي فقال: اني ميت فبكيت، ثم

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه

(٢) رواه الترمذي

أسر إلي فقال: انك أول أهلي بي لحوقاً، فسررت بذلك وأعجبني)[1].

★ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها، وغذاها فأحسن غذاءها، وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه، كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة)[2].

★ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن كن له حجاباً من النار يوم القيامة)[3].

★ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو اختين أو ابنتين فأدبهن، وأحْسَنَ إليهن، وزوجهن، فله الجنة)[4].

★ وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: (خطب علي بنت أبي جهل، وعنده فاطمة. فسمعت بذلك فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل.. فقام النبي صلى الله عليه وسلم، فتشهد وقال: أما بعد، فإني انكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني

---

(١) أخرجه البخاري
(٢) الخرائطي في مكارم الأخلاق
(٣) رواه البخاري
(٤) رواه أبو داود والترمذي

يريبني ما يريبها ، والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله أبداً . قال: فترك علي الخطبة).

(١٤) خلقه مع أحفاده

★ عن انس بن مالك رضي الله عنه قال :(ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم)(١).

★ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :(رأيت الحسن والحسين على عاتقي النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت: نعم الفرس تحتكما .فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ونعم الفارسان هما)(٢).

★ عن ابن عباس قال: (خرج النبي صلى الله عليه وسلم حاملاً الحسن على عاتقه ، فقال له رجل: يا غلام نعم المركب ركبت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ونعم الراكب هو)(٣).

★ عن البراء بن عازب قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ، فجاء الحسن والحسين أو أحدهما ، فركب على ظهره ، فكان إذا رفع رأسه [قال: بيده] فأمسكه أو

---

(١) أخرجه مسلم
(٢) أخرجه أبو يعلى
(٣) أخرجه ابن عساكر

أمسكها وقال: نعم المطية مطيتكما)[1].

★ عن جابر رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعينا إلى طعام، فإذا الحسين يلعب في الطريق مع صبيان، فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم أمام القوم، ثم بسط يده، فجعل الحسين يفر ههنا وههنا، فيضاحكه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه، ثم اعتنقه وقبله، ثم قال: حسين مني وأنا منه، أحب الله من أحبه، الحسن والحسين سبطان من الأسباط)[2].

★ عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم قبل حسناً، فقال له الأقرع بن حابس، لقد ولد لي عشر، ما قبلت واحداً منهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يرحم الله من لا يرحم الناس)[3].

(١٥) خلقه مع أعدائه

★ بينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهيل ابن عمرو يوقعان العقد الذي اتفقا عليه في الحديبية وفيه، انه

---

(١) أخرجه الطبراني
(٢) أخرجه الطبراني
(٣) أخرجه الطبراني

من أتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله... فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فجعل سهيل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فقال رسول الله: يا أبا جندل، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وانا لا نغدر بهم)[1].

★ سئل مرة أن يلعن اعداءه فقال: (ما جئت لعّاناً، بل رحمة).

★ لما مات عبد الله بن أبي بن سلول- وكان زعيم المنافقين في المدينة- طلب ابنه من النبي قميصه ليكفنه فيه، تطهيراً له. فأعطاه قميصه كفناً، ثم مشى إلى قبره

---

(١) سيرة ابن هشام

فوثب عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله، اتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا كذا وكذا.... فتبسم النبي وقال: دعني يا عمر قال عمر: فلما اكثرت عليه قال: اني خيرت فاخترت، لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها وانصرف.

★ وبعد فتح مكة اجتمع المشركون أمامه في ذلة ينتظرون حكمه فيهم وهم الذين حاربوه وآذوه وأخرجوه فقال:(لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. صدق وعده ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب. ثم قال: يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم.. قالوا خيراً، أَخ كريم وابن أخ كريم.. قال اذهبوا فأنتم الطلقاء).

★ وعندما انهزم المسلمون في أحد- لمخالفتهم وصايا الرسول- خرج صلى الله عليه وسلم من المعركة وقد كسرت رباعيته، وشج وجهه، ودخلت حلقتان في وجهه فقال له

بعض الصحابة: لو دعوت عليهم يا رسول الله. فقال لهم: اني لم أبعث لعاناً، ولكني بعثت داعية ورحمة..(اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون.)

★ ومن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة)[1].

★ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من أذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة).

★ جاء يهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطالبه بدين له عنده ويقول:(انكم بنو عبد مناف قوم مُطْل)،فغضب عمر بن الخطاب من جرأته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وَهَمَّ بضرب عنقه، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن قال: ما هكذا يا عمر.. كان عليك أن تطالبه بحسن الطلب وتطالبني بحسن الأداء..

★ أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل معلماً ومرشداً إلى اليمن وأوصاه بهذه الكلمات: (انك تأتي قوماً أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأني رسول الله. فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله تعالى

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي

افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب).

★ ومن الوصايا التي تعلمها الرعيل الأول من رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)[1].

(١٦) خلقه مع العمال والخدم والمساكين

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين) (يا عائشة لا تردي المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقربيهم يقربك الله يوم القيامة).

جاء في صحيح البخاري: (أن النبي ذكر ذات يوم رجلاً أسود، فقال ما فعل ذلك الانسان، قالوا: مات يا رسول الله.

---

(١) من وصية أبي بكر الصديق لجيش أسامة بن زيد

قال: أفلا اذنتموني، (أي أخبرتُموني) فقالوا: انه كان كذا وكذا قصته- فحقروا من شأنه- قال: فدلوني على قبره، فأتى قبره فصلى عليه).

يقول المعرور بن سويد: رأيت أبا ذر وعليه حلة، وعلى غلامه (أي خادمه) مثلها. فسألته عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله يقول:(هم اخوانكم جعلهم الله تعالى تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه.)

وقال انس رضي الله عنه: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط.

عن أبي مسعود قال: ضربت غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً خلفي فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام).

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص: دخل النبي المسجد، فجلس إلى الفقراء وبشرهم بالجنة، وبدا على وجوههم البشر، فحزنت لأنني لم أكن منهم.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(ابغوني ضعفاءكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم).

روي أنه مر برسول الله رجل، فقال لرجل عنده: (ما رأيك في هذا. فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حريّ إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع، فسكت النبي. ثم مر آخر. فقال النبي: ما رأيك في هذا. فقال: رجل من فقراء المسلمين، هذا والله حرى إن خطب ألا ينكح، وإن قال ألا يسمع لقوله فقال صلى الله عليه وسلم: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا).

(١٧) خلقه مع الحيوان

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يتقوا الله في البهائم، وضرب لذلك مثلاً فقال:(بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، وإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي. فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له) فقال الصحابة: (وان لنا في البهائم لأجرا. قال: في كل كبد رطبة أجر).

وفي مثال آخر قال صلى الله عليه وسلم:(دخلت امرأة في النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من

خشاش الأرض)[1].

كان من عادات العرب في الجاهلية أن يتخذوا من ظهور دوابهم منابر، فنهى عن ذلك وقال: (إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجاتكم).

قال عبد الرحمن بن عبد الله، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فرأينا حمرة (نوع من العصافير) معها فرخان لها، فأخذناها، فجاءت الحمرة تعرش (أي ترفرف) فلما جاء الرسول قال: (من فجع هذه بولدها، ردوا ولدها إليها).

وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد قست على بعير تركبه (من يحرم الرفق يحرم الخير كله).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي)[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة)[3].

---

(١) وفي رواية حتى ماتت

(٢) رواه أحمد

(٣) رواه أبو داود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب ان فلاناً قتلني عبثا ولم يقتلني منفعة)[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن رسول الله من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضا)[2]. أي هدفاً.

وفي ذبح الحيوان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله كتب الاحسان على كل شيء.. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وَلْيُحِدَّ أحدكم شفرته وَلْيُرِحْ ذبيحته)[3].

قال عبد الله بن مسعود: ورأى قرية نمل قد أحرقناها، فقال: من أَحرقَ هذه. قلنا: نحن. قال: (انه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار)[4].

★ ★ ★

(١) رواه النسائي وابن حبان

(٢) رواه البخاري ومسلم

(٣) رواه الطبراني

(٤) اخرجه أبو داود

الخلاصة

وأخيراً فإن الجانب الأخلاقي في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم أكبر من أن تحيطه كتب ومؤلفات، وأوسع من أن تفي بحقه سطور وكلمات..

فالأخلاقية في شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم متلازمة مع دقائق حياته وتفصيلات حياة دعوته.. إنها منسابة فطرياً عبر كل تصرف من تصرفاته وكل خطرة من خطراته فضلاً عن كل عمل من أعماله...

ومن هنا كانت الأخلاقية في المنهج الإسلامي روح ذلك المنهج وشريانه النابض بالحياة.....

ان الأخلاقية في المنهج الاسلامي ليست نظاماً خاصاً، أو مجموعة تعاليم ومثل وقيم منفصلة عن جسم هذا المنهج وأجزائه... إنما هي معطيات خيرة وروح كريمة تنساب انسياباً متوافقاً منسجماً في كل جانب من جوانب المنهج الاسلامي، بل في كل جزئية من جزئياته...

وهنا بالذات يكمن السر في تفرد المنهج الاسلامي، كما يكمن السر في تفرد شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم..

فكما أن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم تتميز في

كل جانب من جوانبها بالعظمة، فإن المنهج الاسلامي- كذلك- يتميز في كل جانب من جوانبه بالعظمة والخلود..

وصدق الله تعالى حيث يقول في وصف نبيه الكريم:(ن، والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وان لك لأجراً غير ممنون، وانك لعلى خلق عظيم).

صدق الله العظيم، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد- سيد ولد آدم- وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الجانب الخلقي للنبيّ الكريم

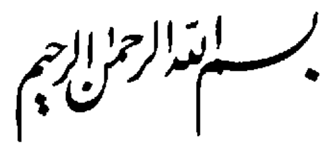
للشيخ محمد يونس عبد الجبّار

« بنجلاديش »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



الحمد لله على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته، المتغمد كافة الخلق بوسيع رحمته، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربي ويرضى، اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك وخيرتك من خلقك، وعلى آله وأصحابه المتأدبين بآدابه وأزواجه وذريته، أبرك الصلوات وأزكاها وسلم تسليما.

حضرة الرئيس

السادة الافاضل.

يسعدني أن أعبر من أعماق قلبي عن تحياتي وتمنياتي الحارة باسم شعب بنجلاديش المسلم وباسم اخواني العاملين في مجالات التعليم الديني والتفكير الاسلامي في جامعة الفتية الاسلامية بدولة بنجلاديش، وأقدر وأشكر لسعادة مدير الشئون الدينيه وزملائه الكرام جهودهم القيمة لإقامة هذا المؤتمر المبارك، وسوف يبقى هذا العمل لامعا وناصعا، ويسطر لهم يراع التاريخ مدى الدهر تاريخا حافلا عبقا.

أيها الاخوة

أنتم تعلمون أن موضوع مؤتمرنا هذا الذي ضمنا الى

ظلاله للبحث عن السيرة النبوية موضوع واسع النطاق، متشعب الجوانب، كل جانب منها تاريخ حافل يستحق الدراسة المفردة - وعلى الرغم من قصور بضاعتي العلمية اخترت من تلك الجوانب جانبا عظيما - وهو «الجانب الخلقي للنبي الكريم» صلى الله عليه وسلم.

لكن نظرا لضيق الوقت الى جانب سعة الموضوع وقداسته أردت أن أتحدث إليكم عن الخلق في ضوء القرآن والحديث دون اطناب الكلام أثناء سردها. لكي يتسنّى لنا التضلع من نمير هذا الورد الصافي في أقرب الفرص، فان خلق نبي الله - صلى الله عليه وسلم - كان القرآن، والقرآن بحر زاخر لا ساحل له، كما روي عن سيدنا علي - رضي الله عنه - أنه قال لو شئت أن أوقر سبعين بعيرا من تفسير القرآن لفعلت[1] وروى الحارث الأعور عن علي عن النبي - صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن «ولا تنقضي عجائبه»[2] فكيف ينقضي الحديث عمن كان خلقه القرآن بمعناه الشامل وتفسيره الحافل.

هو الرسول العربي الصادق الامين، صاحب الخلق

---

(١) مرقاة المفاتيح (كتاب العلم) ج١ ص ٢٤٣

(٢) مشكاة باب فضائل القرآن

العظيم. الهادي الى الصراط المستقيم بقوله وفعله وهديه وسيرته. اصطفاه الله من أكرم دوحة وأطيب أرومة. وتعهده في طفولته وشبابه، وصنعه على عينه، حتى اختاره ليكون للعالمين بشيرا نذيرا، قال عليه الصلاة والسلام: بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه (رواه البخاري عن أبي هريرة)[1] وفي صحيح مسلم عن وائلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - :ان الله اصطفى قريشا من بني اسماعيل، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم، وفي رواية ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل، واصطفى من ولد اسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار.[2]

فالله عز شأنه خلقه فأحسن خلقه وخلقه، وعلمه فأحسن تعليمه، وأدبه فأحسن تأديبه، ووصفه بقوله: (وإنك لعلى خلق عظيم) سورة القلم ٤ فسبحان من أعطى ثم أثنى.

---

(١) فيض القدير ج٣ ص ٧١

(٢) المواهب اللدنية ج١ ص ٢٨٧

لقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - مجبولا على الخلق الحسن في أصل فطرته،ثم نشأ في التربية الروحية الربانية نشأة لم يسبق الى مثلها أحد، حتى بلغ من الخلق قمة الكمال، ومع ذلك كله كان مولعا بالاستزادة منه ومشغوفا به، فكان يقول في دعائه: «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي»، وعند مسلم في حديث دعاء الافتتاح واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها الا أنت»[1].

أيها السادة:

قبل أن نواجه الموضوع ونخوض غماره علينا أن نقف قليلا مع كلمة «الخلق» حيث تعود بعض اخواننا ان يقصروا معناه على أضيق تعبير، ولا يعطوه مكانه اللائق، كما ذهب بعض الفلاسفة الى أن الاخلاق شيء كسبي لا علاقة له بالفطرة، وانما تتكون من تواضع الناس في كل وسط على تحسين أشياء وتقبيح اخرى، مدفوعين الى ذلك بعامل الحفاظ على مصالحهم وبذلك تتصادم هذه المقاييس بين جماعة وجماعة تبعا لاختلاف المصالح، فما كان خيرا في مكان قد يكون شرا في غيره، وما كان حقا في أمة

---

(١) عشرة أيام في حياة رسول الله لخالد محمد خالد.

قــد يصبـح باطـلاً في سواهـا، هؤلاء الماديون لا يرضون بـأن يربطوا بـين الأخـلاق والـدين بأي حال رغم ان التفكير السليم والادلة الشرعية تستنكر رأيهم فان الفطرة البشرية صالحة للسلامة والاعتدال، والفساد والانحراف، والانسان لا يتمكن من الحفاظ على فطرته إلا بقدر ما يبذله من جهد (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) ثم لابد أن يكون الجهد وفقا لمخطط سليم مرسوم من قبل خالق القوى والقدر، ولا شك ان التخطيط الالهي ما زال ولا يزال يصلح لكل فرد وجماعة وبيئة وإقليم وحاشا له أن ينبو عن الإنطباق قط، ومما يدل على أن للاخلاق صلة بالدين وانها قوة نفسية مركوزة في فطرة البشر يعتريها الكون والفساد والتقدم والهبوط وتقبل التغير والتطور قوله تعالى: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها »سورة الشمس وقوله عليه الصلاة والسلام: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه (الحديث، متفق عليه)[1] وقوله عليه السلام: «ان الله قسم

---

(١) المشكاة باب الايمان بالقدر.

، بينكم اخلاقكم كما قسم أرزاقكم »[1]

معنى الخلق:

قال الراغب: الخلق بالفتح وبالضم في الاصل بمعنى واحد كالشرب والشرب لكن خص الْخلَق الذي يفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر، وخص الْخُلق الذي بالضم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة.

وقد اختلف هل حسن الخلق غريزة؛ أو مكتسب، وتمسك من قال بانها غريزة بحديث ابن مسعود: «ان الله قسم بينكم اخلاقكم كما قسم أرزاقكم» (الحديث، رواه البخاري)

وقد قال القرطبي: الخلق جبلة في نوع الانسان وهم في ذلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء منها كان محمودا، والا فهو مأمور بالمجاهدة فيه حتى يصير محمودا، وكذا ان كان ضعيفا فيرتاض صاحبه حتى يقوى، وقد وقع في حديث الأشج أنه صلى الله عليه وسلم قال له: «ان فيك لخصلتين يحبها الله. الحلم والأناة، قال: يا رسول الله قديما كان أو حديثا. قال: قديما. قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبها الله (رواه أحمد والنسائي، وصححه ابن حبان)،

---

(١) المواهب اللدنية ج١ ص ٢٨٧ عن البخاري.

فترديد السؤال وتقريره عليه يشعر بأن في الخلق ما هو جبلي وما هو مكتسب(١)

قال ابن عبد السلام: الصفات الالهية ضربان أحدهما تختص به الأزلية والأبدية والغنى عن الأكوان، والثاني يمكن التخلق به، وهو أيضا ضربان: أحدهما لا يجوز التخلق به كالعظمة والكبرياء، والثاني ورد الشرع بالتخلق به كالكرم والحلم والحياء والوفاء فالتخلق به بقدر الامكان مُرْضٍ للرحمن ومرغم للشيطان(٢).

معنى الخلق في كلام الله وكلام الرسول:

سأل رجل رسول لله - صلى الله عليه وسلم - عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» ثم قال: صلى الله عليه وسلم: «هو ان تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عن ظلمك»(٣)

وجاء رجل الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بين يديه فقال: يا رسول الله، ما الدين؟ قال: حسن

(١) المواهب اللدنية ج١ ص ١٨٧

(٢) فيض القدير شرح جامع الصغير للسيوطي ج٢ ص ٢٥١

(٣) الاحياء ج٣ ص ٤٣

الخلق، فأتاه من قبل يمينه، فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: حسن الخلق، ثم أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ قال: حسن الخلق، ثم أتاه من ورائه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت اليه وقال: أما تفقه هو أن لا تغضب.[١]

اصول الاخلاق

قال الغزالي: فإذن أمهات الاخلاق واصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل، ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية، ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضطبها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها، ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في اقدامها واحجامها، ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع. فمن اعتدال هذه الاصول الاربعة تصدر الاخلاق الجميلة كلها، اذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي واصابة الظن والتفطن لدقائق الاعمال وخفايا آفات النفوس، ومن افراطها تصدر الجريرة

(١) الاحياء ج ٣ ص ٤٣

(الخبث) والمكر والخداع والدهاء، من تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون الى قوله:« وأما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتؤدة وأمثالها وهي أخلاق محمودة، وأما افراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب، وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الواجب.

وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع، وأما ميلها الى الافراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقصير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك، فأمهات محاسن الاخلاق هذه الفضائل الأربعة وهي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقي فروعها، ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الاربع الا رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1]

---

(١) الاحياء ج٣ ص ٤٧

كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، مجبولا على الاخلاق الكريمة:

وقد كان صلى الله عليه وسلم مجبولا على الاخلاق الكريمة في أصل خلقته الزكية النقية لم يحصل له ذلك رياضة نفس بل بجود إلهي، ولهذا لم تزل تشرق أنوار المعارف في قلبه حتى وصل الى الغاية العليا والمقام الأسنى.

وأصل هذه الخصال الحميدة والمواهب الجيدة كمال العقل، لأن به تقتبس الفضائل، وتجتنب الرذائل، وكان - صلى الله عليه وسلم - ارجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا، (رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر).

وعن بعضهم مما هو في عوارف المعارف اللب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون في النبي - صلى الله عليه وسلم - وجزء في سائر المؤمنين، ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحش الشارد والطبع المتنافر المتباعد، وكيف ساسهم واحتمل جفاءهم وصبر على أذاهم الى أن انقادوا اليه واجتمعوا اليه، وقاتلوا دونه أهليهم وآبائهم وأبنائهم، واختاروه على أنفسهم وهجروا في رضاه أوطانهم وأحباءهم من غير ممارسة سبقت له، ولا مطالعة كتب يتعلم

منها سير الماضين تحقق انه أعقل العالمين، ولما كان عقله - صلى الله عليه وسلم - أوسع العقول اتسعت اخلاق نفسه الكريمة اتساعا لايضيق عن شيء، فمن ذلك اتساع خلقه العظيم في الحلم والعفو مع القدرة وصبره - عليه السلام - على ما يكره وحسبك صبره وعفوه عن الكافرين به، المقاتلين والمحاربين له في أشد ما نالوه به من الجراح والجهد بحيث كسرت رباعيته - صلى الله عليه وسلم - وشج وجهه يوم أحد حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف حتى شق ذلك على اصحابه شديدا، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: «اني لم ابعث لعانا ولكني بعثت داعيا ورحمة اللهم اغفر لقومي واهد قومي فانهم لا يعلمون»

قال ابن حبان: اي اغفر لهم ذنبهم في شج وجهي لا أنه أراد الدعاء لهم بالمغفرة مطلقا اذ لو كان كذلك لأجيب، ولو أجيب لاسلموا كلهم (ملخصا عن المواهب ج١)

قال القاضي في الشفاء: وكان فيما ذكره المحققون مجبولا عليها في أصل خلقته وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا برياضة الا بجود الهي وخصوصية ربانية، وهكذا لسائر الانبياء، ومن طالع سيرهم من صباهم الى مبعثهم حقق

ذلك كما عرف من حال عيسى وموسى ويحيى وسليمان- عليهم- السلام - وغيرهم، بل غرزت فيهم هذه الاخلاق في الجبلة واودعوا العلم والحكمة في الفطرة، قال الله تعالى «وآتيناه الحكم صبيا»[1] قال المفسرون: «أعطى الله تعالى يحيى العلم بكتاب الله تعالى في حال صباه، قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث فقال له الصبيان: لم لا تلعب؟ فقال أللعب خلقت!؟. (الى قوله) وقد حكى أهل السير ان آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدا - صلى الله عليه وسلم - ولد حين ولد باسطا يديه الى الأرض رافعا رأسه الى السماء وقال في حديثه - صلى الله عليه وسلم -: لما نشأت بغضت الىّ الاوثان وبغض اليّ الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله الا مرتين فعصمني الله منها، ثم لم أعد، ثم تتمكن الامورلهم وتترادف نفخات الله تعالى عليهم وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الى الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة[2]

---

(١) سورة مريم ١٢

(٢) الشفاء ج١ ص٧٣

فضل الخلق الحسن والترغيب اليه:

عن ابن عباس قال: لما نزلت (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا)[1] دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - معاذا وعليا وقد كان أمرهما ان يخرجا الى اليمن فقال: «انطلقا وبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا فانه قد أنزلت عليَّ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا بالجنة ونذيرا بالنار، وداعيا الى الله بشهادة ان لا اله الا الله باذنه وسراجا منيرا (القرآن)[2]

قال عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى كريم يحب الكرم يحب معالي الاخلاق ويكره سفسافها، أي رديئها[3]

قال عليه السلام «مكارم الاخلاق من أعمال الجنة»[4]

وقال عليه السلام: بعثت بمداراة الناس (البيهقي في شعب الايمان عن جابر) قوله بمداراة الناس أي خفض الجناح ولين الكلمة لهم وترك الاغلاظ عليهم وهي غير

---

(١) سورة الاحزاب ٤٥

(٢) رواه الطبراني. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٧

(٣) البيهقي في شعب الايمان والطبراني وأبو نعيم في الحلية والحاكم عن سهل بن سعد

(٤) طبراني في الاوسط عن أنس

المداهنة[1]

وقال عليه الصلاة والسلام: «انما بعثت لأتمم صالح الاخلاق»[2]

وفي رواية بدل (صالح الاخلاق) (مكارم الاخلاق) قال بعضهم اشار ان الانبياء – عليهم الصلاة والسلام بعثوا بمكارم الاخلاق، وبقيت بقية فبعث المصطفى – صلى الله عليه وسلم بما كان عليهم وبتمامها[3]

قيل لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال: لا خير فيها هي من أهل النار[4]

أوحى الله تعالى الى ابراهيم – عليه السلام –: يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار، كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله في عرشي وان أسكنه حظيرة قدسي وان أدنيه في جواري[5]

---

(١) فيض القدير ج٣ ص ٢٠٣

(٢) ابن سعد، بخاري في الادب والحاكم والبيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة

(٣) فيض القدير ج٢ ص ٥٧٢

(٤) احياء ج٣ ص ٤٣

(٥) طبراني في الاوسط عن أبي هريرة

روى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى :(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال:أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن يأخذ العفو من اخلاق الناس.[1]

وروى البخاري بسنده عن ابن الزبير « خذ العفو وأمر بالعرف » قال ماأنزل الله الا في اخلاق الناس[2]

وقال الامام احمد بسنده عن أبي هريرة قال:قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انما بعثت لأتمم صالح الأخلاق، تفرد به أحمد ورواه الحافظ أبو بكر الخرائطي في كتابه فقال:(انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[3].

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :(ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وان الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء) (أخرجها أبو داود والترمذي) وفي رواية الترمذي (وان صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) بخاري ج١ حسن الخلق.

(٣) البداية والنهاية ج٦ ص٣٥

الصوم والصلاة (والبذاءة الفحش في المنطق)[1]

عن جابر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان من أحبكم الي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا[2]

وصف خلقه في القرآن وبالقرآن:

معنى قوله تعالى: «وانك لعلى خلق عظيم» القلم ٤ وقول السيدة عائشة: «كان خلقه القرآن»

ولما اجتمع فيه - صلى الله عليه وسلم - من خصال الكمال ما لا يحيط به حد ولا يحصره عد، أثنى الله تعالى عليه في كتابه الكريم فقال: «وانك لعلى خلق عظيم» وكلمة على للاستعلاء فدل اللفظ على أنه مستعل على هذه الأخلاق ومستول عليها.

والخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الاتيان بالأفعال الجميلة، وقد وصف الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - بما يرجع الى قوته العلمية بأنه عظيم فقال تعالى: (علمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما)[3]

---

(١) تيسير الوصول الى جامع الاصول

(٢) تيسير الوصول الى جامع الاصول

(٣) سورة النساء ١١٣

ووصف ما يرجع الى قوته العملية بانه عظيم فقال تعالى: (وانـك لعلى خلق عظيم) فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية عظيمة عالية الدرجة كانّها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس ارواح الملائكة.

قال الحليمي وانما وصف خلقه بالعظيم مع أن الغالب وصف الخلق بالكرم، لأن كرم الخلق يراد به السماحة والدماثة، ولم يكن خلقه - صلى الله عليه وسلم - مقصورا على ذلك، بل كان رحيما بالمؤمنين رفيقا بهم شديدا على الكفار غليظا عليهم حبيبا في قلوب الأحباء مهيبا في صدور الأعداء منصورا بالرعب منهم على مسيرة شهر، فكان وصف خلقه بالعظيم أولى ليشمل الانعام والانتقام. وقال الجنيد: وانما كان خلقه صلى الله عليه وسلم عظيما لأنه لم يكن له هم سوى الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الطبراني في الاوسط بسند فيه عمر بن ابراهيم المقدسي، وهو ضعيف. عن جابر ان الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال، وفي رواية مالك في الموطأ (بعثت لأتمم مكارم الاخلاق). فجميع الاخلاق الحميدة كلها كانت

فيه - صلى الله عليه وسلم - فانه أدب بالقرآن، كما قالت عائشة: «كان خلقه القرآن» قال صاحب عوارف المعارف: ولا يبعد ان قول عائشة، «كان خلقه القرآن» فيه رمز غامض وايماء خفي الى الاخلاق الربانية، فاحتشمت عائشة الحضرة الآلهية أن تقول كان متخلقا بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن المعنى بقولها: «كان خلقه القرآن» استحياء من سبحات الجلال وسترا للحال بلطف المقال، وهذا من وفور عقلها وكمال أدبها انتهى،، فكما ان معاني القرآن لا تتناهى فكذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى، اذ في كل حالة من احواله يتجدد له مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم، وما يفيضه الله تعالى عليه من معارفه وعلومه مالا يعلمه الا الله تعالى،[1]

في روح المعاني ج ٢٩ تحت قوله تعالى: (وانك لعلى خلق عظيم) لا يدرك شأوه احد من الخلق ولذلك تحتمل من جهتهم مالا يحتمله أمثالك من أولى العزم، وفي حديث مسلم وابي داود والامام احمد والدارمي وابن ماجة والنسائي عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة يا أم المؤمنين نبئيني عن

---

(١) المواهب ج١ ص ٢٨٨

خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت بلى، قالت فان خلق نبي الله كان القرآن، وأرادت بذلك على ما قيل ان ما فيه من المكارم كله كان فيه - صلى الله عليه وسلم - وما فيه من الزجر عن سفساف الاخلاق كان منزجرا به - عليه الصلاة والسلام - وقال العارف بالله المرصفي أرادت بذلك قولها كان خلقه القرآن تخلقه بأخلاق الله تعالى، لكنها لم تصرح به تأدبا منها[1]

وفي الدر المنثور ج٦ (وإنك لعلى خلق عظيم)[2] عن عائشة ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته الا قال لبيك، فلذلك أنزل الله تعالى: «وإنك لعلى خلق عظيم» وأخرج ابن ابي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن سعد بن هشام، قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: «كان خلقه القرآن» أما تقرأ القرآن؟ (وإنك لعلى خلق عظيم).

---

(١) روح المعاني ج٢٩

(٢) سورة القلم: ٤

وفي البداية والنهاية وقال الله تعالى: (نَ والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وان لك لأجراً غير ممنون، وإنك لعلى خلق عظيم)[1] قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى «وإنك لعلى خلق عظيم» يعني لعلى دين عظيم، وهو الاسلام، وهكذا قال مجاهد وابن مالك والسدي والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال عطية: لعلى أدب عظيم وروى الامام احمد عن عبد الرحمن بن المهدي. والنسائي من حديثه وابن جرير من حديث ابن وهب كلاهما عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فسألتها عن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: «كان خلقه القرآن» ومعنى هذا أنه عليه السلام ما أمره به القرآن امتثله وما نهاه عنه تركه، هذا ما جبله الله تعالى عليه من الاخلاق الجليلة الجبلية الاصيلة العظيمة التي لم يكن أحد من البشر ولا يكون على أجمل منه، وشرع له الدين العظيم الذي لم يشرعه لأحد قبله، وهو مع ذلك خاتم النبيين فلا رسول بعده ولا نبي، فكان فيه من الحياء والكرم والشجاعة والحلم

---

(١) سورة القلم: ٤

والصفح والرحمة وسائر الاخلاق الكاملة مالا يحد ولا يمكن وصفه، وروى البيهقي بسنده عن زيد بن بابنوس قال قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت: كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن، ثم قالت: أتقرأ سورة المؤمنون؟ أقرأ (قد أفلح المؤمنون) الى العشر، قالت: هكذا كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهكذا (رواه النسائي عن قتيبة)

وصف خلقه في التوراة والانجيل:

روى البخاري من حديث فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - موصوف في التوراة بما هو موصوف في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا)، وحرزاً للاميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبض حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا «لا اله الا الله» ويفتح اعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، وقد

روى عن عبد الله بن سلام وكعب الاحبار: وكذلك نعْتُه في الانجيل[1].

تعليمات الرسول نحو تحسين الاخلاق:

قال ابن اسحاق بسنده عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: قالت لما نزلت أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي (الى قوله) ثم أرسل الى أصحاب رسول الله -ﷺ - فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل اذا جئتموه؟ قالوا والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته[2] فنشروا مصاحفهم حوله سألهم - فقال لهم ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟ قالت فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيىء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، وكنا

---

(١) البداية والنهاية ج٣٣٦

(٢) جمع أسقف وهو العالم في النصرانية

على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فقالت فعدد عليه أمور الاسلام (الى قولها) فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله تعالى من شيء؟ قالت فقال جعفر: نعم. فقال له النجاشي فاقرأه عليّ، قالت فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا هو الذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة[١].

اخلاقه الكريمة قبل النبوة واعتراف الاعداء:

روى البخاري بسنده عن عائشة في حديث بدء الوحي: فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت

---

(١) بخاري، باب بدء الوحي،

خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق[1]

كان آمن الناس وأعدل الناس وأعف الناس وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك محادوه وأعداؤه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين، قال ابن اسحاق كان يسمى الامين بما جمع الله فيه من الاخلاق الصالحة، وقال تعالى:(مطاع ثم أمين)[2]

أكثر المفسرين على أنه محمد صلى الله عليه وسلم، ولما اختلفت قريش وتحاربت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكموا أول داخل عليهم فاذا بالنبي - صلى عليهم وسلم - داخل. وذلك قبل نبوته، فقالوا: هذا محمد هذا الامين قد رضينا به، قال - صلى الله عليه وسلم - والله اني أمين في السماء وأمين في الأرض[3]

عن علي أن أبا جهل قال للنبي - صلى الله عليه وسلم -: انا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله

---

(١) بخاري باب بدء الوحي

(٢) التكوير ٢١

(٣) بخاري باب بدء الوحي

تعالى، «فانهم لا يكذبونك»[1] الآية، وقيل ان الاخنس ابن شريق لقي أبا جهل يوم بدر فقال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلا منا: تخبرني عن محمد صادق هو أم كاذب، فقال ابو جهل: والله ان محمدا لصادق وما كذب محمد قط، سأل هرقل عنه أبا سفيان فقال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال؟ قال لا[2]

وكان قبل بعثته وبعدها وقبل هجرته ملجأ الفقراء والأرامل والأيتام والضعفاء والمساكين، كما قال عمه أبو طالب في قصيدته المشهورة نقلها ابن هشام بطولها منها قوله:

وما ترك قوم لا أبا لك سيدا
يحوط الذمار غير ذرب مؤكل
وأبيض يستقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى، عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاّك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل

كان أبو ذر لما بلغه مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لاخيه (انيس) اركب الى هذا الوادي (مكة)

---

(١) الانعام ٣٣

(٢) بخاري باب بدء الوحي

فاسمع من قوله فرجع فقال: رأيته يأمر بمكارم الاخلاق.

أخلاقه الكريمة وتأثيرها في جلسائه:

عن هند بن أبي هالة في حديث طويل: الذين يلونه الناس خيارهم. أفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة مؤازرة، كان لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه. من جالسه، أو أقامه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن يسأله حاجة لم يردّه إلاّ بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا له أبناء، عنده في الحق سواء مجلسه مجلس حلم، وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تفشى فلتاته، متعادلين متواصين فيه بالتقوى متواضعين، يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ويؤثرون ذوي الحاجة ويحفظون الغريب، كان دائم البشر سهل الخلق ليِّن الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح

يتغافل عما لا يشتهي ولا يوئس منه راجيه، ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والاكثار[1] ومالا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم الا فيما رجا ثوابه، واذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير، (الى آخر ما سرد الحديث) وكان هند وصافا للنبي - صلى الله عليه وسلم -[2]

وفي رواية عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال قال الحسين بن علي - رضي الله عنهما - سألت أبي عن سيرة رسول الله -ﷺ- في جلسائه فقال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- دائم البشر، سهل الخلق لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، فسرد الحديث مثل ما سرد هند، حتى قال: واذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فاذا سكت تكلموا ،لا يتنازعون عنده (الحديث) وإذا تكلم أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى أن كان

---

(١) وفي نسخة الاكبار أي استعظام نفسه في الجلوس والمشي وغيره.

(٢) الترمذي في الشمائل.

أصحابه ليستجلبونهم ،ويقول:اذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه، لا يقبل الثناء الا من مكافيء، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز (أي يتجاوز عن الحد) فيقطعه بنهي أوقيام (الترمذي في الشمائل).

عفوه مع القدرة وحلمه وصبره:

قال القاضي في الشفاء: وأما الحكم والاحتمال والعفو مع القدرة والصبر على ما يكره فبين هذه الالقاب فرق ،فان الحلم حالة توفر وثبات عن الأسباب المحركات، والاحتمال حبس النفس عند الآلام والمؤذيات، ومثلها الصبر ومعانيها متقاربة، وأما العفو فهو ترك المؤاخذة، وهذا كله مما أدب الله تعالى به نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال تعالى: « خذ العفو وأمر بالعُرْف » (الآية)،روي ان النبي - صلى الله عليه وسلم - لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل -- عليه السلام - تأويلها فقال له حتى أسأل العالم، ثم ذهب فأتاه فقال: يا محمد ان الله يأمرك ان تصل من قطعك ،وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وقال له: « واصبر على ما أصابك » (الآية) وقال تعالى:« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وهو صلى الله عليه وسلم لا يزيد مع كثرة الأذى الا

صبرا، وعلى اسراف الجاهل الا حلما (الشفاء ج١ ص٧٨ »

قال علي القاري: ومن عظيم عفوه حتى عن أعدائه المحاربين له حتى كسروا رباعيته وشجوا وجهه يوم أحد، فشق ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: اني لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة، اللهم اغفر لقومي واهد قومي فانهم لا يعلمون، اي اغفر لهم ذنب الكسرة والشجة، والا اسلموا كلهم (ذكره ابن حبان).

وأما قوله - صلى الله عليه وسلم - يوم الخندق: شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر اللهم املأبطونهم نارا، فلأنه كان حق الله فلم يعف عنه، وما سبق حقه فسامحه، وقد روى الطبراني وابن حبان والحاكم والبيهقي عن أجل أحبار اليهود الذين أسلموا انه قال: لم يبق من علامات النبوة الا وقد عرفته في وجه محمد - صلى الله عليه وسلم - حين نظرت اليه إلا اثنتين لم اخبرهما (اي لم امتحنهما) -١ - يسبق حلمه جهله (اي لو تصور منه جهل او مراده بالجهل الغضب) -٢ - ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلطف له لان أخالطه فاعرف حلمه وجهله، فابتعت منه تمرا الى أجل فأعطيتُه الثمن،

فلما كان قبيل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، نظرت اليه بوجه غليظ ، ثم قلت ألا تقضيني يا محمد حقي ، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل ، فقال عمر : أي عدو الله أتقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أسمع ، فوالله لولا ما أحاذر قربَهُ لضربْتُ بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر الى عمر في سكون وتؤدة وتبسم ، ثم قال : أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا منك يا عمر ، أن تأمرني بحسن الاداء وتأمره بحسن التقاضي ، اذهب فاقضه وزده عشرين صاعا مكان منازعته ، فقلت : يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين لم أخبرهما ، يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه الا حلما فقد خبرتها ، أشهدك اني رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ، (انتهى) فكان سبب اسلامه ، وتصدق بنصف ماله على أمته - صلى الله عليه وسلم - وساهم في كثير من الغزوات ، واستشهد في غزوة تبوك - رضى الله عنه وارضاه[١]

---

(١) جمع الوسائل في شرح الشمائل ، لعلي القاري ، والمواهب اللدنية ج١

وقال مالك عن اسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع النبي - صلى الله عليه وسلم وعليه برد غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذا شديدا، حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله - صلى الله عليه وسلم، فاذا قد اثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، قال: فالتفت اليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فضحك ثم أمر له بعطاء[1]

أخرج أحمد عن أنس قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لقد أوذيت في الله وما يؤذى احد، وأخفت في إلله وما يخاف أحد، لقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال ما يأكله ذو كبد الا ما يواري ابط بلال[2]،

قال القاضي في الشفاء: لما قال له الرجل: اعدل فان هذه القسمة ما اريد بها وجهه الله تعالى، قال: ويحك فمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل فلم يزده في جوابه

---

(١) بخاري ومسلم من حديث مالك

(٢) حياة الصحابة ج١ ص٢٤٢

ان بين له ما جهله ووعظ نفسه. ونهى من أراد من أصحابه قتله ولما تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - منتبذ تحت شجرة وحده قائلا والناس قائلون في غزاة، فلم ينتبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا وهو قائم، والسيف مصلت في يده، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله! فسقط السيف من يده، فأخذه النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال: من يمنعك مني؟ قال كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه، فجاء الى قومه، فقال جئتكم من عند خير الناس. ومن عظيم خبره في العفو، غفوه عن اليهودية التي سمته في الشاة بعد اعترافها (على الصحيح من الرواية).

وانه لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره وقد أعلم به وأوحى اليه بشرح أمره، ولا عتب عليه فضلا عن معاقبته، ومن عظيم صبره - صلى الله عليه وسلم - صبره على مقاساة قريش وأذى الجاهلية ومصابرة الشدائد الصعبة معهم الى ان أظفره الله تعالى عليهم، وحكمه فيهم، وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم وابادة خضرائهم فما زاد ان عفا. وصفح، وقال: ما تقولون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرا أخ

كريم وابن أخ كريم ،فقال: أقول كما قال أخي يوسف «لا تثريب عليكم اليوم» اذهبوا فانتم الطلقاء[1]

رحمته بأمته:قال الله تعالى: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» (سورة التوبة)

ومن شفقته على أمته تخفيفه وتسهيله عليهم وكراهة أشياء مخافة أن تفرض عليهم، كقوله عليه الصلاة والسلام: «لولا أن أشق على أمتي لامرتهم بالسواك مع كل وضوء»[2] وخبر صلاة الليل ونهيهم عن الوصال، وانه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته[3]. ومن شفقته أن دعا ربه وعاهده، فقال: أيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاة وطهورا وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة[4]

قال ابن مسعود: وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا (متفق عليه)[5]

---

(١) الشفاء ج١ ص ٨٢
(٢) الشفاء ج١ ص ٩٤
(٣) نفس المرجع
(٤) نفس المرجع
(٥) مشكاة كتاب العلم

عن جابر قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وانا آخذ بحجزكم عن النار وانتم تفلتون من يدي[1]

رحمته بالمشركين:

ولما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: مرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: بل أرجو أن يخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئا، وروى ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبي - صلى الله عليه وسلم -: إن الله تعالى أمر السماء والارض والجبال ان تطيعك، وقال أوخر عن أمتي لعل الله ان يتوب عليهم[2]

عن نافع عن ابن عمر أخبره ان امرأة وجدت في مغازي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقتولة، فأنكر رسول

---

(١) مسلم في الفضائل

(٢) القاضي في الشفاء ج١ ص ٩٥

الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان،[1]

رحمته بالمنافقين:

ومما روى من اتساع خلقه وحلمه - صلى الله عليه وسلم - اتساع خلقه لطائفة المنافقين الذين كانوا يؤذونه اذا غاب، ويتملقون له اذا حضر، وكان عليه السلام -كلما اذن له بالتشديد عليهم فتح لهم بابا من الرحمة فكان يستغفر لهم ويدعو لهم، حتى أنزل الله عليه «استغفر لهم أولا تستغفر لهم» فقال عليه السلام: خيرني ربي فاخترت ان استغفر لهم، ولما قال تعالى: «ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» فقال صلى الله عليه وسلم لأزيدن على السبعين. وأمر ولد الذي تولى كبر النفاق والأذى منهم ببر أبيه، ولما مات كفنه في ثوبه خلعه عن بدنه وصلى عليه وعمر ابن الخطاب يجذبه بثوبه ويقول: يا رسول الله اتصلي على رأس المنافقين؟ فنثر ثوبه من عمر وقال: اليك عني يا عمر، فخالف مؤمنا وليا في حق منافق عدو، وقال النووي قيل انما أعطاه قميصه وكفنه تطييبا لقلب ابنه فانه كان

---

(١) ترمذي. أبواب السير

صحابيا صالحا وقد سأل ذلك فأجابه اليه، وقيل مكافأة لعبد الله المنافق الميت، لأنه كان ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصا[1]

رحمته بالشرار وأهل الكبائر:

ومن مظاهر رحمته اشفاقه - صلى الله عليه وسلم - على أهل الكبائر من أمته، وأمره اياهم بالستر، فقال: من بلي بهذه القاذورات يعني المحرمات فليستتر وأمر أمته أن يستغفروا للمحدود ويترحموا عليه، لما حنقوا عليه فسبوه ولعنوه فقال: قولوا اللهم اغفر لهم، اللهم ارحمهم، وقال لهم في رجل كثيرا ما يؤتى به سكران بعد تحريم الخمر فلعنوه مرة، فقال: لا تلعنوه فانه يحب الله ورسوله[2]

رحمته بالأرقاء

خرج أبو ذر الغفاري الى الناس يوما ومعه غلام يرتدي حلة مثل حلته فسئل في ذلك، فقال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: هم اخوانكم وخولكم، جعلهم الله تعالى تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما

---

(١) المواهب ج١ ص ٢٨٩

(٢) المواهب ج١ ص ٢٩٠

يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فان كلفتموهم فاعينوهم[1]

وأوصى لهم في آخر خطبته: «اتقوا الله في ما ملكت ايمانكم» وكان آخر كلامه «الصلاة الصلاة» (ابو داود وابن ماجة عن علي)[2].

وجاء في وصيته قوله: فما احببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم، ولو شاء لملكهم اياكم[3]

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقبل بوجهه وحديثه على شر القوم يتألفه بذلك[4]

رحمته بالصبيان والنساء والضعفاء:

كان يداعب الاطفال ويجلسهم في حجره، وكان يَصُفّ عبد الله وعبيد الله وغيرهما من أولاد عمه العباس، ويقول: من سبق الي فله كذا، فيستبقون اليه فيقعدون على صدره

(١) فتح المبدي ج١ ص ٦٢

(٢) كنز ج ٧ ص ٨٩

(٣) الاحياء ج٢ ص ١٩٥

(٤) طبراني في الكبير عن عمرو بن العاص كنز.

فيقبلهم ويلتزمهم[١]

لما قتل جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة حزن النبي وأسرع الى دار جعفر فدخل على زوجته أسماء بنت عميس فوجدها قد عجنت عجينها، وغسلت بنيها، ونظفتهم ودهنتهم فقال لها: إيتيني ببني جعفر، فلما أتته بهم تشممهم وذرفت عيناه، فقالت أسماء في لهفة وقد ادركت ماأصابها: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، اصيبوا هذا اليوم، وانهمر الدمع من عينيه، فجعلت أسماء تصيح، حتى اجتمع النساء اليها، وخرج النبي الى أهله، فقال: لا تغفلوا عن آل جعفر، واصنعوا لهم طعاما، فانهم قد شغلوا بأمر صاحبهم[٢]

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار بأصبعيه يعنى السبابة والوسطى[٣]

وكان يؤتى بالصبي الصغير، ليدعو له بالبركة وليسميه

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص ٣٧٧

(٢) سيرة ابن هشام ج٤ ص٢٢

(٣) ترمذي.

فيأخذه فيضعه في حجره، فربما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه، فيقول النبي لا تزرموا الصبي بوله، فيدعه حتى يقضي بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته، ويسر أهله به، لئلا يروا أنه تأذى ببوله فاذا انصرفوا غسل ثوبه بيده[1]

كان يزور الانصار ويسلم على صبيانهم ويمسح على رؤوسهم[2] (النسائي وابن ماجة عن أنس).

كان ارحم الناس بالصبيان والعيال (ابن عساكر عن أنس)[3]

كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم (أبو يعلى في مسنده، ابن ماجة، طبراني في الكبير، حاكم عن سهل بن حنيف)[4]

كان يمر بالنساء ويسلم عليهن (احمد في مسنده عن جرير)[5].

رحمته بالحيوان:

روى الدار قطني من حديث عائشة عن النبي - صلى

---

(١) الاحياء ج٢ ص ١٨٣

(٢) كنز العمال ج٤ ص ٣٠،

(٣) (٤) (٥) نفس المرجع.

الله عليه وسلم - انه كان يصغي الى الهرة الاناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها[1].

= رأى حمارا قد وسم في وجهه فأنكر ذلك ونهى عن وسم الحيوان في وجهه وعن ضربه على وجهه.[2]

= كانت السيدة عائشة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا، فقال لها: يا عائشة عليك بالرفق، فانه لا يدخل في شيء الا زانه ولا ينزع من شيء الا شانه[3]

كثيرا ما أوصى برحمة الحيوان والاشفاق عليه، كقوله: -

١ - اذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حقها من المنازل، ولا تكونوا عليها شياطين.

٢ - لعن الله من مثل بالحيوان.

٣ - نهى عن التحريش بين البهائم.

٤ - اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة[4].

٥ - ان امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف

---

(١) مواهب ج ١

(٢) تيسير الوصول

(٣) الاحياء ج ٣ ص ١٦١

(٤) كنز العمال ج ٥ ص ١٥

ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فغفر لها به.

٦ - دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض[١].

رحمته بذوي الحاجات:

عن أنس ان امرأة كان في عقلها شيء جاءت، فقالت ان لي اليك حاجة، قال اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت أجلس اليك حتى أقضي حاجتك قال فجلست، فجلس النبي - صلى الله عليه وسلم - اليها حتى فرغت من حاجتها[٢].

= وإذا قدم عليه أحد وهو يصلي خفف صلاته وأقبل عليه وقال ألك حاجة؟ فاذا فرغ من حاجته عاد الى صلاته[٣].

رفقه ومداراته:

عن عائشة أن يهود أتوا النبي - صلى الله عليه

---

(١) تيسير الوصول

(٢) الشفاء جـ ١ ص ٩٨. والترمذي في الشمائل.

(٣) الاحياء ج ٢ ص ٣٢٢

وسلم - فقالوا السام عليكم فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم ،قال: مهلا يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش، قالت أولم تسمع ما قالوا ؟ قال أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في، وفي رواية مهلا يا عائشة ان الله يحب الرفق في الأمر كله.[1]

= عن أنس بن مالك أن أعرابيا بال في المسجد فقاموا اليه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:لا تزرموه ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه.[2]

= عن عائشة أن رجلا استأذن على النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما رآه قال بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلـق - (أي ابـدى لـه طلاقـة الوجـه) - النبي - صلى الله عليه وسلم - في وجهه وانبسط اليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت[3] في وجهه وانبسطت اليه، فقال رسول الله - صلى الله عليه

(١) بخاري في الادب

(٢) بخاري في الادب

(٣) وفي صحيح مسلم:ثم ألنت له القول

وسلم - يا عائشة متى عهدتني ،فحاشا ،ان شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره[1]

طيب العشرة وحسن المخالطة

(١) مع أهله وعياله:

عن عمرة قالت سألت عائشة كيف كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذا خلا مع نسائه، قالت: كان كالرجل من رجالكم، الا انه كان أكرم الناس، وألين الناس ضحاكا بساما، (الخرائطي، ابن عساكر)[2].

= كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوما وسبقها يوما فقال هذه بتلك[3].

= روى البخاري ومسلم ان أبا بكر دخل على عائشة وعندها جاريتان تدقان وتضربان، والنبي - صلى الله عليه وسلم - متغش بثوبه، فانتهرها أبو بكر فكشف النبي عن وجهه، وقال دعها يا أبا بكر فانها أيام عيد.

= كانت أزواجه يراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن يوما الى الليل ،وكان يقول لعائشة: اني لأعرف غضبك

---

(١) بخاري في الادب

(٢) كنز العمال

(٣) الأحياء

من رضاك ،قالت: وكيف تعرفه؟ قال: اذا رضيت قلت لا وإله محمد، واذا غضبت لا واله ابراهيم، قالت: صدقت، انما أهجر اسمك[١]

= كان يعدل بين زوجاته في العطاء والمبيت ،ويقول: اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك، يعني الحب[٢].

= وفي صحيح مسلم عن أنس قال: ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [٣].

= كان أرحم الناس بالصبيان والعيال (ابن عساكر عن أنس)[٤]

(٢) مع أصحابه:

وكان يبدأ من لقيه بالسلام، واذا لقي أحدا من اصحابه بدأ بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد فقبض عليها[٥].

= وكان يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه، وآثره بالوسادة التي تحته ليجلس عليها، فان أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يقبل[٦]

---

(١) (٢) الاحياء
(٣) المواهب اللدنية
(٤) كنز العمال
(٥) (٦) الاحياء

= عن أنس كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزعها، ولم يعرض بوجهه عنه، ولم ير مقدما ركبتيه بين يدي جليسه. (الروياني، وابن عساكر)[1]

= كان اذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، واذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله اياها، فلم ينزع يده منه، حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه (ابن سعد عن أنس)[2]

★ كان اذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فان كان غائبا دعا له وان كان شاهدا زاره، وان كان مريضا عاده، (أبو يعلى في مسنده عن أنس)[3]

★ في حديث زيد بن ثابت فكنا اذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، واذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، واذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، فكل هذا أحدثه عن النبي - صلى الله عليه وسلم -[4]

---

(١) (٢) كنز العمال
(٣) كنز العمال
(٤) ترمذي في الشمائل

★ روى أنس أنه دخل عليه رجل به أثر صفرة فلم يقل له شيئا ، وكان لا يواجه أحدا بما يكره فلما خرج قال: لو قلتم له يغسل هذا[١].

★ كان لا يواجه احدا في وجهه بشيء يكرهه (أحمد في مسنده، بخاري في الأدب) [٢].

★ كان اذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل ما بال فلان يقول، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون كذا وكذا (أبو داود عن عائشة)[٣].

★ كان يقول لأحدهم عند المعاتبة: ماله ترب جبينه، (أحمد في مسنده، بخاري عن أنس) [٤].

★ عن عائشة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقبل الهدية ويثيب عليها[٥].

★ عن عائشة قالت ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء ، فاذا انتهك من محارم الله تعالى شيء كان من أشدهم في ذلك غضبا ، وما خير بين أمرين الا

---

(١)(٢) قاضي في الشفاء

(٣) (٤) (٥) كنز العمال

اختار أيسرهما ما لم يكن اثما ،[1]

(٣) مع خدمه:

★ عن أنس قال خدمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عشر سنين فلا والله ما قال لي لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء لم أصنعه ألا صنعته، ولا لامني، وان لامني بعض أهله قال: دعه وما قدر فهو كائن أو ما قضي فهو كائن، (عبد الرزاق في الجامع)[2].

★ عن عائشة - رضي الله عنها - قالت ما ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده شيئا إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادما ولا امرأة[3].

= عن أنس بن مالك خدمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عشر سنين فما قال أف قط، وما قال لي لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أحسن الناس خلقا، ولا مسست خزا ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا شممت مسكا قط ولا

(١) ترمذي في الشمائل
(٢) كنز العمال
(٣) ترمذي في الشمائل

عطرا كان أطيب من عرق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -[1]

= وفي صحيح مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن اسحاق، قال أنس: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أحسن الناس خلقا، فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق فاذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قبض بقفاي من ورائي، قال فنظرت اليه وهو يضحك، فقال: يا أنس ذهبت حيث أمرتك؟ فقلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله[2].

= كان مما يقول للخادم: ألك حاجة؟ (أحمد في مسنده)[3]

حضه على طيب العشرة:

= كل معروف صدقة ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في انائه[4].

---

(١) ترمذي في الشمائل
(٢) البداية والنهاية.
(٣) كنز العمال
(٤) ترمذي

= لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1].

= من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فلا يؤذي جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت.[2]

= عن مجاهد أن عبد الله بن عمرو ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم لله يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه[3].

طيب الكلام:

= قال تعالى: «قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى[4]» عن عدي بن حاتم قال ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه، ثم ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه، قال شعبة: اما مرتين، فلا أشك، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمره فان لم تجدوا فبكلمة طيبة.[5].

---

(١) بخاري
(٢) بخاري
(٣) ترمذي ج ٢
(٤) سورة البقرة آية ٢٦٣
(٥) بخاري في الادب

= كان لا يحدث حديثا الا تبسم (أحمد في مسنده عن أبي الدرداء)[١]

= كان كلامه كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه، (أبو داود عن عائشة)[٢]

= كان يحدث حديثا لوعده العاد لأحصاه (بخاري ومسلم وابو داود عن عائشة[٣])

كرمه وجوده:

عن أنس قال قال رسول الله: ألا أخبركم عن الأجود الأجود، الله الأجود الأجود وأنا أجود ولد آدم.[٤]

= عن جابر قال: ما سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم شيئا قط، فقال لا[٥]

= عن علي قال: كان النبي اذا سئل شيئا فاراد ان يفعله قال نعم: واذا أراد أن لا يفعل سكت، وكان لا يقول لشيء لا[٦]

= وثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال: كان رسول

---

(١) (٢) (٣) كنز العمال ج٧
(٤) مجمع الزوائد ج ٩
(٥) ابن جرير
(٦) مجمع الزوائد ج ٩

الله - صلى الله عليه وسلم - أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فَلَرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أجود بالخير من الريح المرسلة[1].

= قال الامام احمد بسنده عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يسأل شيئا على الاسلام الا أعطاه، قال فأتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاءِ الصدقة، قال فرجع الى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فان محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، ورواه مسلم عن عاصم بن النضر عن خالد بن الحارث عن حميد وفي رواية زياد: فان كان الرجل ليجيء الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يريد الا الدنيا فما يمسِي حتى يكون دينه أحب اليه وأعز عليه من الدنيا وما فيها (رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة)[2]

= كان رحيما وكان لا يأتيه أحد الا وعده وأنجز له ان كان عنده (بخاري في الأدب عن أنس)[3]

---

(١) البداية والنهاية
(٢) البداية والنهاية.
(٣) كنز العمال

= عن عمر قال: جاء رجل الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسأله ان يعطيه فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ما عندي شيء، ولكن استقرض حتى يأتيني شيء فنعطيك، فقال عمر: يا رسول الله هذا أعطيته ما عندك، ما كلفك ما لا تقدر عليه، فكره النبي - صلى الله عليه وسلم - قول عمر، حتى عرف في وجهه، فقال رجل من الانصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش اقلالا، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى عرف البشر في وجهه لقول الأنصاري، ثم قال: بهذا أمرت (ترمذي في الشمائل والبزار وابن جرير).

عدله:

أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالعدل في كثير من الآيات مثل قوله: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»[1] الآية، وبالأخص منهم أمر رسوله في قوله: «وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنَّ الله يحب المقسطين» الى قوله «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا

---

(١) سورة النساء ٥٨

عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله»[١] (الآية) وحاشا لله أن لا يأتمر الرسول بما أمر في كتاب ربه، استقى النبي - صلى الله عليه وسلم - العدل من التربية الالهية حق الاستقاء، وكانت فطرته السليمة مهيأة للعدل منذ شبابه.

= وجد من خيار أصحابه قتيلا بين اليهود، هو عبد الله بن سهل الانصاري فلم يجبر على اليهود في تقدير الدية، ولم يزد على الحق والعدل بل طلب ديته مائة ناقة، كما كان العرب يفعلون، في الوقت الذي كان أصحابه في حاجة الى بعير واحد يتقون به[٢].

= كان يصل ذوي الارحام من غير أن يؤثرهم على من هم أحق منهم فكان يجل العباس اجلال الوالد والوالدة ولكنه لم يفضله في عطاء[٣].

= وقال عليه الصلاة والسلام: ان ربكم واحد ولا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟ فليبلغ الشاهد الغائب.[٤]

---

(١) المائدة ٤٢ - ٤٨
(٢) الاحياء
(٣) الاحياء
(٤) كنز العمال

شجاعته:

لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شجاعا فحسب، بل كان المثل الاعلى في الشجاعة والبطولة والحماس والحمية، لا يستحق أحد ممن يضرب بهم المثل في الشجاعة أن يذكر اسمه دون شجاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذ كان شجاعا في السلم والحرب، في وحدته وجماعته، وفي قلة أنصاره وكثرة أعوانه وشجاعا في جهده بالحق، واعلاء كلمة الله، وفي دفاعه عن الحسب، والذب عن دينه، على حد سواء، لا يستطيع التاريخ القديم والحديث أن يسجل في صفحاته لأحد ما سجله لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ضروب الشجاعة المثلى.

وأوراق التاريخ والسير والمغازي حافلة بمظاهر شجاعته منها:

★ لما ضاقت قريش بدعوته الى الاسلام وتسفيه أحلامها وعيب الهتها فمشوا الى عمه ابي طالب (وراجعوه مرارا، حتى ضيقوه) فقال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي ان قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الامر ما لا أطيق، فظن رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - أنَّ عمه تخلى عنه وأنه خاذله وانه قد ضعف عن نصرته، فقال: يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته[1]

★ وقد سئل البراء بن عازب أفررتم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم حنين؟ فقال: ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يفر، كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم فاستقبلنا بالسهام، ولقد رأيته على بغلته البيضاء وان أبا سفيان ابن الحارث آخذ بزمامها وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب[2].

★ عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن الناس وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع اهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راجعا وقد سبقهم الى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي في عنقه السيف، وهو يقول لم تراعوا لم تراعوا[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ملخصا
(٢) بخاري
(٣) بخاري ومسلم ج ٢

★ قال علي : كنا اذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما يكون احد أقرب الى العدو منه.[1]

★ عن علي قال: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أقربنا الى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا (رواه احمد والطبراني في الاوسط)[2]

حسن العهد ووفاؤه:

روى القاضي بسنده عن أبي الحمساء قال: بايعت النبي - صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته ان آتيه بها في مكانه، فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت، فاذا هو في مكانه، فقال: يا فتى لقد شققت علي، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك.(شفاء).

★وعن أنس كان النبي - صلى الله عليه وسلم - اذا أتى بهدية قال: اذهبوا بها الى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة، انها كانت تحب خديجة، (شفاء).

---

(١) الاحياء وعن مسلم نحوه

(٢) مجمع الزوائد

★ وعن أبي قتادة وَفَدَ وَفْدٌ للنجاشي فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - يخدمهم فقال له أصحابه: نكفيك، فقال: انهم كانوا لاصحابنا مكرمين، واني أحب أن أكافئهم (شفاء)

★ قال أبو الطفيل رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وانا غلام، اذ أقبلت امرأة حتى دنت منه، فبسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته، ولما جيء بأخته من الرضاعة الشيماء في سبايا هوازن وتعرفت له بسط لها رداءه، وقال لها ان احببت اقمت عندي مكرمة محببة، أو متعتك ورجعتك الى قومك، فاختارت قومها، فمتعها. (شفاء)

★ بينما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتب معاهدة الحديبية مع قريش جاءه أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده ويعلن اسلامه، فرده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى قريش وفاء بالعهد الذي لم يتم توقيعه، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين كيف أرد الى قريش وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما لقيت؟ وقد كان عذب عذابا شديدا، فاشتد الامر على المسلمين، وقالوا كيف نرد الى المشركين من جاءنا مسلما وهم لا يردون الينا

من جاءهم مرتدا؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له مخرجا، (سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٢٢).

★ وروى ان ابا بصير «عتبة بن أسيد» فر الى المدينة بعد عهد الحديبية وكان ممن حبستهم قريش في مكة فبعثت قريش الى رسول الله تطلب رده فقال له الرسول: يا أبا بصير انا قد اعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر وان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق الى قومك (سيرة ابن هشام ج ٣)

اكرام الكبير وكريم القوم:

كان يجل العباس اجلال الولد لوالده (كنز العمال) كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده يعظمه ويفخمه ويبر قسمه، (كنز العمال).

★ عن جرير بن عبد الله البجلي انه جاء الى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في بيت مزحوم، فقام بالباب فنظر النبي - صلى الله عليه وسلم - يمينا وشمالا فلم ير برحاء، فأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - رداءه، فلفه

ثم رمى به اليه، فقال اجلس عليه، فأخذه جرير فضمه ثم قبله ثم رده على النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال: أكرمك الله يا رسول الله كما أكرمتني، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، (رواه الطبراني في الصغير والاوسط).

تواضعه:

التواضع تَنَزُّلٌ بالنفس في غير ابتذال لها ولا تهاون بقدرها، قال بعض المشائخ حقيقة التواضع ان ترضي لنفسك بأدنى مكانة.

★ عن أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا، وما تواضع احد لله الا رفعه الله[1].

« عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلف الناضح ويعقل البعير ويقيم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه اذا تعب ويشتري الشيء من السوق فيحمله الى أهله، ويصافح الغني والفقير والكبير والصغير،

---

(١) مسلم، باب استحباب العفو والتواضع

ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أو أسود أو أحمر أو عبد.[١]

★ وكان يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة ومرة حمارا، واحيانا يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة[٢]

★ عن ابن عباس قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأكل على الارض ويعقل الشاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير، (ابن النجار)[٣].

★ ومن تواضعه - عليه الصلاة والسلام انه لم يكن له بواب، كما جاء عن أنس أنه قال: مر النبي - صلى الله عليه وسلم بامرأة وهي تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري قالت: اليك عني، فانك خلو من مصيبتي، قال: فجاوزها ومضى، فمر بها رجل فقال لها: ما قال لك رسول الله؟ - صلى الله عليه وسلم - قالت: ما عرفته، قال: انه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، قال: فجاءت الى بابه فلم تجد عليه بوابا (الحديث)[٤]

---

(١) احياء ج ٣ ص ٣٠٦
(٢) الاحياء
(٣) كنز العمال
(٤) البخاري

لكن في حديث أبي موسى أنه كان بوابا للنبي - صلى الله عليه وسلم - لما جلس على القف وجمع بينهما بأنه كان عليه الصلاة والسلام اذا لم يكن في شغل من أهله وانفراد من أمره أنه كان يرفع الحجاب بينه وبين الناس ويبرز لطالب الحاجة اليه[1]

★ عن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متوكئا على عصا فقمنا له، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا، وقال: انما أنا عبد آكل ما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد، وكان - صلى الله عليه وسلم - يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس[2].

★ دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة، فقال له: هون عليك فاني لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[3].

البشر والفكاهة:

البشر وطلاقة الوجه من الاوصاف الحميدة التي يمدح

(١) المواهب اللدنية.
(٢) قاضي في الشفاء، ترمذي في الشمائل
(٣) شفاء

بها الرجل والعبوسة وقطوب الجبين خلافها ، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - أولى بهذا الوصف الجميل إذ نشأ على كافة الأخلاق الفاضلة من صباه.

★ذكر علي بن أبي طالب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان دائم البشر سهل الخلق وكان أكثر الناس ابتساما في وجوه أصحابه.[1]

★ وقد وصفته السيدة عائشة كما ذكرنا بأنه اذا خلا في بيته كان ألين الناس بساما ضحاكا.

★ كان فيه دعابة قليلة. (ابن عساكر عن ابن عباس)[2]

★ روى الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك أن رجلا أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فاستحمله فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إنا حاملوك على ولد ناقة، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد ناقة؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: وهل تلد الابل الا النوق؟[3]

★ روى الترمذي في شمائله بسنده عن الحسن قال: أتت عجوز النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت يا رسول الله

---

(١) الاحياء

(٢) كنز العمال

(٣) البداية والنهاية

ادع لي ان يدخلني الله الجنة ،فقال: يا أم فلان إنَّ الجنة لا تدخلها عجوز، قال: فولت باكية، فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إنَّ الله تعالى يقول: «إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا.[1] سورة الواقعة ٣٥ - ٣٦.

صدقه وأمانته:

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصدق الناس لهجة وآمن الناس.اجمع الذين عرفوا النبي وخالطوه منذ صباه انه صادق أمين، لم يسمعوا من فمه اكذوبة قط، ولم يجربوا عليه كذبا أو خيانة قط، ولم يستريبوا في قول من أقواله.

★ ومن أعظم مظاهر أمانته نهوضه بتبليغ الرسالة التي ائتمنه الله عليها، وكلفه أن يقوم بها، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ، وقام بأدائها ابلغ ما يكون القيام، واحتمل في سبيلها أشق ما يحتمله بشر.

★ قالت السيدة خديجة حين أتاها النبي خائفا بعد أن تنزل عليه ملك، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتحمل الكل

(١) ترمذي في الشمائل

وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.[1]

★ قال الأخنس بن شريق لأبي جهل يوم بدر: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا أخبرني عن محمد صادق أم كاذب؟ فقال ابو جهل: والله ان محمدا لصادق وما كذب قط[2]

★ وقد عرف العرب أمانة الرسول قبل بعثته فكانوا يسمونه الامين[3].

عفته:

العفة تمنع الانسان من ارتكاب ما لا يحل، وقد ورد الحض على العفة بمعناها الشامل في مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله »[4] وقوله تعالى: « وان يستعففن خير لهن والله سميع عليم »[5]، وقوله تعالى: « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف »[6] وقد بلغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم من العفة قمتها العليا في جميع ضروبها.

★ وقد عصمه الله من الفواحش منذ طفولته، فلم يزل

---

(١) تاريخ الطبري
(٢) الشفاء ج ١
(٣) تاريخ الطبري
(٤) سورة النور ٣٣
(٥) سورة النور
(٦) البقرة

قط، ولم يهم بفاحشة قط، حتى أن يده لم تمس يد امرأة الا اذا كانت زوجة أو ذات محرم، أو ملك يمين[١]. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد، ثم ما هممت بسوء، حتى أكرمني الله عز وجل برسالته[٢] (تاريخ الطبري).

★ كان لا يصافح النساء في البيعة (أحمد في مسنده عن ابن عمر)[٣]

حياؤه:

الحياء انقباض النفس عن القبائح وعما يشينها من قول أو فعل، وهو شديد الصلة بالعفة وكرم الطبع، كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حييا أشد الحياء، ولكن ما كان يحجزه حياؤه عن تبليغ الدعوة الى الله والنهوض برسالته واقامة العدل وتنفيذ الاحكام الالهية.

وصفه الله تعالى بذاك الحياء الحميد في كلامه المجيد فقال: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن

---

(١) الاحياء
(٢) اخلاق النبي
(٣) كنز العمال

يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه، ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا، ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق[١] ».

كان لا يثبت بصره في وجه أحد ويعرض عمن يتكلم بغير جميل، ويتغافل عما لا يشتهي من الحديث[٢].

عن ابي سعيد الخدري قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشد حياء من العذراء في خدرها وكان اذا كره شيئا عرفناه في وجهه[٣].

زهده وقناعته:

قال الراغب: الزهيد الشيء القليل، والزاهد الراغب عنه والراضي منه بالزهيد أي القليل قال تعالى: « وكانوا فيه من الزاهدين،[٤] كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أزهد الناس وأقنعهم.

عن أبي هريرة قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا،[٥]

---

(١) سورة الاحزاب
(٢) الاحياء
(٣) ترمذي في الشمائل
(٤) سورة يوسف
(٥) مسلم كتاب الزهد

وعن عائشة قالت ما شبع آل محمد - صلى الله عليه وسلم - منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض،[1].

أتي بمال من البحرين وكان اكثر مال أتي به، فخرج الى الصلاة، ولم يلتفت اليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس اليه، فقلما رأى أحدا الا أعطاه.[2]

روى مسروق عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله الا تستطعم الله فيطعمك، قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع، فقال: يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي ان يجري معي جبال الدنيا ذهبا لاجراها حيث شئت من الارض، ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها، يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض لاولى العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا، والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض لي الا إن يكلفني ما كلفهم، فقال: « فاصبر كما صبر أولى العزم من الرسل » والله ما لي بد من

---

(١) مسلم

(٢) الاحياء ج ٤

طاعته واني والله لاصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة الا بالله»[1].

كان لا يأخذ مما آتاه الله الا قوت عامه فقط من البر ما يجد من التمر والشعير ويضع ذلك في سبيل الله، (متفق عليه بنحوه من حديث عمر)[2].

ايثاره:

عن سهل بن سعد قال: جاءت امرأة الى النبي - صلى الله عليه وسلم - ببردة، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي الشملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله - أكسوك هذه فأخذها النبي - صلى الله عليه وسلم - محتاجاً اليها فلبسها فرآها عليه رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها، فقال: نعم (الحديث)[3] - فآثره النبي صلى الله عليه وسلم - ببردة مع كونه في حاجة اليها.

عن ابي هريرة ان رجلا من الانصار بات به ضيف فلم يكن عنده الا قوته وقوت صبيانه، فقال لامرأته نوّمي

---

(١) الاحياء جـ ٤. الزهد

(٢) الاحياء

(٣) بخاري في الادب

الصبية وأطفئي السراج وقربي للضيف ما عندك، قال: فنزلت هذه الآية «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»[1]

فهذه وأمثالها كثيرة وهي مظاهر الايثار منه ومن أصحابه الذين تأدبوا بآدابه.

خلقه في شئون شتى:

كان إذا سر استنار وجهه، كأن قطعة قمر[2]، (البخاري ومسلم عن كعب بن مالك).

كان اذا أتاه الامر يسره قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أتاه الامر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال، (حاكم في المستدرك عن عائشة)[3]

كان اذا كره شيئا رأى في وجهه ذلك (طبراني في الاوسط)[4]

كان اذا عطس حمد الله فيقال له: يرحمك الله، فيقول: يهديكم الله ويصلح بالكم (طبراني في الكبير عن عبد الله ابن

---

(١) مسلم باب اكرام الضيف وفضل ايثاره. بخاري تفسير سورة الحشر.
(٢) كنز العمال
(٣) كنز العمال
(٤) كنز العمال

جعفر)[١].

اذا عطس غض صوته واستتر بثوبه او بيده او غطى وجهه وفمه[٢].

عن عائشة قالت: ما خير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أمرين الا أخذ أيسرهما، ما لم يكن اثما، فان كان اثما كان أبعد الناس منه.[٣]

ما ذم طعاما قط، فاذا أعجبه أكله، وان لم يعجبه تركه،[٤]

أيها الاخوة:

هذه أشعة من الجانب الخلقي لرسول الانسانية الذي يجب ان يقتدي به كل بشر.

- وهذا عفوه عن مظالم أعدائه.
- وهذا حلمه وصبره على الجفوة والاذى.
- وهذه رحمته بالمشركين والمنافقين الذين آذوه وآذوا من صحبه، حتى شردوهم من وطنهم مكة مرة بعد مرة.
- وهذا عدله ومساواته.

---

(١) كنز العمال
(٢) السيرة الحلبية ج ٣
(٣) بخاري ومسلم من حديث مالك
(٤) الاحياء جـ٢

- وهذا سخاؤه وايثاره.

- فهل لبعض الدول المعاصرة التي تدعي الثقافة والحضارة والتقدم آذان تسمع أو قلوب تعقل؟؟

- أما بان لها بعد طلوع هذا الفجر الجديد ان علمها جهل بشع، وتقدمها تأخر شنيع، وحضارتها تدهور خلقي كبير؟؟

- أما آن لها ان تصلح شأنها وتعالج ضميرها؟؟

- وهل لابناء الاسلام عموما ولنشئنا الجديد خصوصا عودة الى الاسلام والاخلاق الاسلامية؟؟

- وهل لاخواننا الذين قلدوا الأجانب تقليدا أعمى واقتفوا آثارهم من عمى؟ وفقدوا قدوتهم الصالحة الخالدة أن ينشدوا ضالتهم؟؟ ويتبعوا رائدهم الأكبر، ويتسابقوا الى الاستنان بسنته ويتخذوا لسلوكهم من سيرته المثل الاعلى، قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)[1] فإنهم إن اتبعوا الرسول وتقاربوا إليه بكل ما وسعهم من جهد، وان عجزوا عن الوصول الى قمة الكمال واللحوق به، وهم عاجزون حتما، فحسبهم انهم وراء خطواته لا ينكصون ولا

---

(١) سورة الأحزاب

يلتفتون يمينا وشمالا ، عسى ان يتداركهم الله برحمته ويهديهم سبيلا .

وأخيرا نشكر سمو أمير دولة قطر والقائمين على الشئون الدينية ومديرها الفاضل حيث أتاحوا لنا هذا اللقاء الحافل في هذا المؤتمر الكبير.

ونسأل الله الرحيم الكريم ان يخرجنا من الظلمات الى النور، ويلهمنا التوفيق والسداد في انجاح مقترحات وتوصيات المؤتمر واعلاء راية الاسلام أينما كنا ، والله يحفظكم ويرعاكم ، ودمتم في خدمة الاسلام والمسلمين.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وبارك وسلم والحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث

(١) احياء علوم الدين « الغزالي »

(٢) اخلاق النبي « الدكتور احمد الحوفي »

(٣) البداية والنهاية « للمؤرخ عماد الدين القرشي الدمشقي »

(٤) تاريخ الامم والملوك « للطبري »

(٥) تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول « ابن الديبع الشيباني »

(٦) الجامع « للترمذي » والشمائل له

(٧) جمع الوسائل في شرح الشمائل « للقاري »

(٨) حياة الصحابة ، للداعية الكبير « الشيخ محمد يوسف الهندي »

(٩) الدر المنشود

(١٠) روح المعاني « للعلامة الالوسي »

(١١) السيرة الحلبية

(١٢) السيرة النبوية « لابن هشام »

(١٣) الشفاء ، بتعريف حقوق المصطفى « للقاضي عياض »

(١٤) صحيح البخاري

(١٦) الطبراني

(١٧) عشرة أيام في حياة الرسول « لخالد محمد خالد »

(١٨) فتح المبدي« للشيخ عبد الله الشرقاوي »

(١٩) فيض القدير شرح جامع الصغير « للسيوطي »

(٢٠) كنز العمال ،« للشيخ علاء الدين علي المتقي الهندي »

(٢١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، « للحافظ نور الدين ابي بكر الهيثمي »

(٢٢) مرقاة المفاتيح ، شرح المشكاة ، « للقاري »

(٢٣) مشكاة المصابيح

(٢٤) المفردات في غريب القرآن ، « للامام الراغب الاصفهاني »

(٢٥) المواهب اللدنية ، « للخطيب القسطلاني »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

العسكرية الإسلامية

تاريخ

جَيْش النّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّم

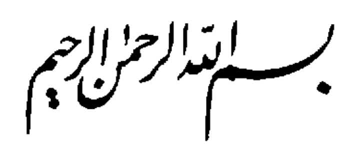
للواء الركن محمود شيت خطّاب

« العراق »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



العسكرية الاسلامية

تاريخ

جيوش النبي صلى الله عليه وسلم.

- ١-

تتلخص سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته المباركة في: التوحيد والجهاد.

لقد وحد النبي صلى الله عليه وسلم منذ مبعثه في مكة المكرمة الى هجرته الى المدينة المنورة من أجل الجهاد: وحد الأفكار بالتوحيد، ووحد الصفوف بالتوحيد، ووحد الأهداف بالتوحيد، وجمع الشمل بالتوحيد، وبنى الانسان بالتوحيد، وأزال نعرات الجاهلية بالتوحيد، وغرس التضحية والفداء بالتوحيد، وجعل المسلمين كافة كالبناء المرصوص بالتوحيد.

لقد كانت حياته المباركة في مكة المكرمة عبارة عن توحيد من أجل الجهاد. وجاهد النبي صلى الله عليه وسلم

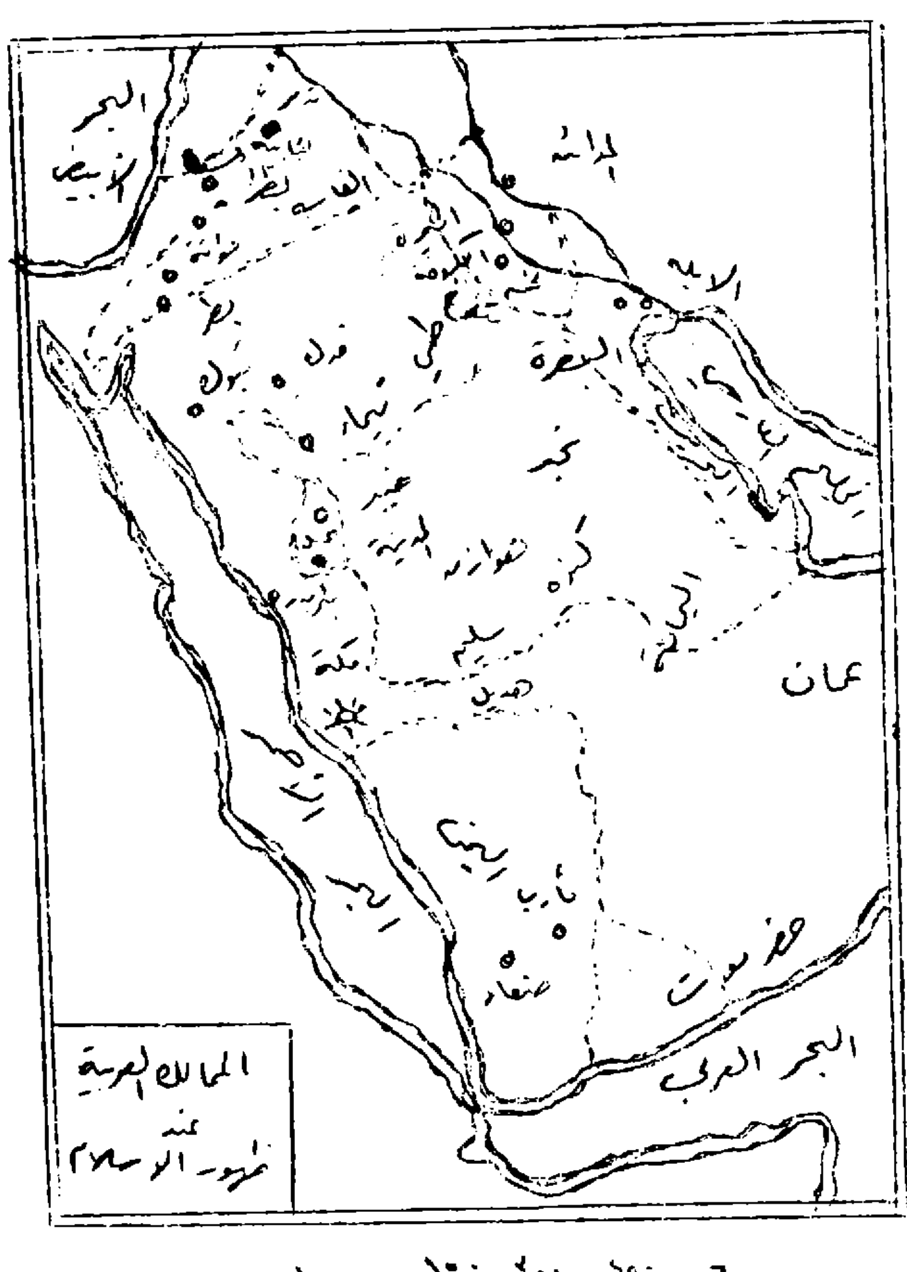
منذ هجرته الى المدينة المنورة من مكة المكرمة الى أن التحق بالرفيق الأعلى من أجل التوحيد، فكان جهاده لتبليغ الدعوة الى الناس كافة، ولتكون كلمة الله هي العليا في الأرض.

وكانت همته العالية منصرفة بكل طاقاتها المادية والمعنوية، بتأييد من الله وتوفيقه، الى غاية سامية واضحة المعالم هي: (بناء الانسان المسلم)، ليكون قدوة للآخرين في السلم والحرب، أخلاقا وسلوكا، ومعاملة ومنهجا، وأسلوبا للحياة الدنيا والآخرة معا.

وكان سبيله الى بناء الانسان المسلم، هو التوحيد من أجل الجهاد، والجهاد من أجل التوحيد.

بالتوحيد، أشاع الانسجام الفكري لأول مرة بين المسلمين في التاريخ، وهذا الانسجام جعل التعاون الوثيق بينهم ممكنا، اذ لا تعاون وثيقا مؤثرا بدون انسجام فكري يذيب الاختلافات ويقضي على النزعات ويحمي من الأهواء.

كما أن هذا الانسجام جعل الجهاد ممكنا أيضا، يقود الى النصر ويؤدي الى الظفر، اذ أن التعاون الوثيق والجهاد



ميل ٦٠٠ ٤٥٠ ٣٠٠ ١٥٠ ٥٠ ١٠ ميل

١ العقدة = ٢٠٠ ميل

المقدس الذي تستثيره العقيدة الراسخة الواحدة، جعل من المسلمين قوة لا تقهر أبدا، فوحد الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام في أيامه شبه الجزيرة العربية كلها تحت لواء الاسلام، ولا نعرف لها وحدة بأي شكل من الأشكال وبأية صورة من الصور قبله أبدا، فكان جيش النبي صلى الله عليه وسلم الذي انشأه وأرسى دعائمه خلال عشر سنوات من عمره المبارك، هو الذي حمل رايات المسلمين شرقا وغربا من بعده، وتحمل أعباء الفتح الاسلامي العظيم الذي شمل خلال تسع وثمانين عاما (١١ هـ - ١٠٠هـ) من الصين شرقا الى قلب فرنسا غربا، ومن سيبيريا شمالا الى المحيط جنوبا، فكان هذا الفتح فتحا مستداما، الا عن الأندلس الذي انحسر عنها انحسارا سياسيا وعسكريا، وبقي ثابتا راسخا فيها فكريا وثقافيا واجتماعيا حتى اليوم.

- ٢ -

وتاريخ جيش النبي صلى الله عليه وسلم، يبدأ من يوم مبعثه عليه الصلاة والسلام، فقد عمل جاهدا في ميدان بناء الانسان المسلم، الذي هو المجاهد المسلم قائدا وجنديا، ولكن تاريخه في التطبيق العملي للجهاد عشر سنوات فقط

بدأت في المدينة المنورة.

وحين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة الى المدينة المنورة وأمر أصحابه بالهجرة اليها، بدأ تنظيم الجيش الاسلامي وتسليحه وتجهيزه وقيادته (عمليا) جيشا نظاميا له كيان واحد، وهدف واحد، وفكر واحد، وقيادة واحدة.

ومعنى الهجرة الى المدينة المنورة، من الناحية العسكرية، هو حشد المجاهدين في قاعدة أمينة، تمهيدا للنهوض بأعباء الجهاد.

وبادر النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، بعد استقراره في المدينة المنورة، الى اختيار مكان مناسب لبناء مسجده، وبدأ ببنائه باللبن، وشارك أصحابه في حمل اللبنات والأحجار على كواهلهم، فتم للمسلمين بناء المسجد فراشه الرمل والحصى، وسقفه الجريد، وأعمدته الجذوع[1].

وتم ببناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (١/٢٣٩ - ٢٤٠) وسيرة ابن هشام (١/١١٤) والطبري (٢/٣٩٧) وابن الأثير (٢/١٠٩) والبداية والنهاية (٢١٤١٣) وابن خلدون (٢/٧٤٠ - ٧٤١) ومختصر تاريخ البشر (١/١٢٧) وعيون الأثر (١/١٩٥) وخلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (١٤٦). ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (٢٤).

المنورة، بناء: الثكنة الأولى لجيش النبي صلى الله عليه وسلم، والثكنة الأولى في الاسلام.

وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، أخذ بناء الانسان المسلم يؤتي أكله مرتين: غير القادرين على الجهاد من أولاد المسلمين الصغار ليكونوا جيش المستقبل وجنود الفتح الاسلامي وقادته، والقادرون على الجهاد من شباب المسلمين وكهولهم وشيوخهم أيضا ليكونوا جيش الحاضر والمستقبل وجنود الفتح الاسلامي وقادته، والقادرون وغير القادرين على الجهاد من المسلمين يحقنون في المسجد النبوي الشريف بمصل الجهاد ماديا ومعنويا، ليصبح الانسان المسلم مجاهدا من الطراز الأول بماله ونفسه في سبيل الله.

ولم يؤذن للمسلمين بالقتال وهو الجهاد الأصغر قبل الهجرة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة، بالرغم مما تحملوه من تعذيب وتشريد وعناء واضطهاد. وفي مكة المكرمة اجتمع النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين رجلا من مسلمي المدينة المنورة ليلا في (العقبة)[1] في بيعة العقبة

---

(١) العقبة: الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه، وهو طويل صعب الى صعود الجبل. وأما العقبة التي بويع فيها النبي صلى الله عليه وسلم، فهي عقبة بين (منى) ومكة. بينها وبين مكة نحو ميلين. وعندها مسجد ومنها ترمى جمرة العقبة. انظر =

الثانية، فاستمع أحد المشركين وهو يتجول بين مضارب الخيام ومنازل الحجيج ما دار في اجتماع (العقبة) من حديث بين النبي صلى الله عليه وسلم وأولئك المسلمين القادمين من المدينة المنورة، فصرخ ينذر أهل مكة بأعلى صوته: «ان محمدا والصباء[1] معه، قد اجتمعوا على حربكم».

ولم يكترث مسلمو المدينة من أهل العقبة الثانية بانكشاف أمرهم، بل أرادوا مهاجمة المشركين من قريش وغيرهم بأسيافهم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالتفرق والعودة الى رحالهم، اذ لم يأذن الله لهم بعد بالقتال[2].

وبعد الهجرة الى المدينة المنورة، نزلت أول آية من آيات القتال: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير).(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا: ربنا الله)[3]، فخرج الرسول القائد عليه أفضل

= التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٩٢-١٩٣) والمشترك وضعا والمتفق ضعفا (٣١١).

(١) الصباء: جمع صابيء. وصبأ الرجل ترك دينه. وكان المشركون يقولون لمن أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصابي.

(٢) انظر التفاصيل في سيرة بن هشام (٢/٥٤ - ٥٧).

(٣) الآيتان الكريمتان من سورة الحج (٢٢ : ٣٩ - ٤٠).

الصلاة والسلام غازيا في شهر « صفر » على رأس اثني عشر شهرا من مقدمه الى المدينة المنورة، وبذلك بدأ الجهاد الأصغر عمليا في الاسلام[1].

- ٣ -

لقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة من عمره المبارك في مكة المكرمة وسنة واحدة في المدينة المنورة بعد هجرته اليها يعمل جاهدا في ميدان بناء الانسان المسلم، منفذا رسالة الله في مجال الجهاد الأكبر.

وقضى عشر سنوات في المدينة من عمره المبارك، من بداية الجهاد الأصغر حتى التحق بالرفيق الأعلى منفذا رسالة الله في مجال الجهاد الأكبر وهو بناء الانسان المسلم، وفي مجال الجهاد الأصغر، وهو الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله.

وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم في الأربعين من عمره المبارك، والتحق بالرفيق الأعلى عن ثلاث وستين سنة، فكان نبيا ورسولا، ومعلما ورائدا وقدوة واسوة ثلاثا

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٣) والدرر (١٠٣) وانظر كتابنا: الرسول القائد (٢٧ - ٢١).

وعشرين سنة، وكان نبيا ورسولا ومعلما ورائدا، وزعيما وقائدا عشر سنوات، بلغ الرسالة وأدى الامانة، خلال عمره المبارك من مبعثه الى وفاته في مجالين حيويين: مجال الجهاد الأصغر، ومجال الجهاد الأكبر، فعلمنا أن الجهاد الأكبر هو الأصل، ولكن هذا الجهاد لا يبلغ غايته ويحقق أهدافه ويصان ويحمى الا بالجهاد الاصغر، فلاحق بغير قوة، ولا قوة بغير مجاهدين صادقين، يجاهدون أنفسهم أولا بالعقيدة الراسخة، لينتصروا على أعداء الاسلام بالأنفس الطاهرة ذات الأخلاق المحاربة، لا بضخامة الْعَدَدِ والْعُدَدِ، اذ لم ينتصر المسلمون على أعدائهم بالتفوق العددي والعددي في أيام النبي صلى الله عليه وسلم ولا في أيام الفتح الاسلامي العظيم، بل انتصروا بتطبيق تعاليم الدين الحنيف نصا وروحا، فلما بدلوا ما بأنفسهم وتغلبت عليهم نفوسهم الأمارة بالسوء، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.، أصبحت انتصاراتهم هزائم، ولم يفلحوا أبدا.

إن تاريخ جيش النبي صلى الله عليه وسلم، بدأ من أول نزول الوحي على المصطفى عليه الصلاة والسلام، فأعد جنوده وقادته بالتدريج (أفراداً) في مكة المكرمة ببناء

الانسان المسلم، فلما هاجر الى المدينة المنورة وشيد مسجده فيها، بدأت مرحلة جديدة من مراحل ذلك الجيش هي مرحلة تنظيم (الأفراد) قادة وجنودا استعدادا للجهاد الأصغر، ولم تمض سنة كاملة على اكمال تشييد المسجد النبوي الشريف، الا وأصبح جيش النبي صلى الله عليه وسلم متكامل التنظيم، قليل العدد ولكنه كثير المدد، في قاعدة أمينة هي المدينة المنورة، يرتكز عليها في جهاده، وينطلق منها لتحقيق أهدافه، ويعود اليها من ... غزواته، ويحشد فيها الرجال والمعدات.

واتخذ النبي صلى الله عليه وسلم من مسجده النبوي الشريف مقرا للقيادة: يعد فيه الخطط العسكرية، ويعقد في رحابه مجالس الجهاد، ويهيىء فيه المجاهدين الصادقين، ويصدر فيه القرارات والأوامر والوصايا، وينصت فيه الى آراء أصحابه، لأن أمرهم بينهم شورى.

وكان يحشد أصحابه في المسجد، ليشحنهم بطاقات مادية ومعنوية لا ينضب معينها، ويحرض المؤمنين على القتال، ويأمرهم بالثبات وينهاهم عن الفرار، ويحذرهم الفرقة والنزاع، ويأمرهم بالطاعة والنظام، ويشيع فيهم المحبة والألفة والتآخي.

وكانت الغزوات والسرايا تنطلق من المسجد، وتعقد الرايات والأعلام والبنود للمجاهدين في المسجد، وتوزع فيه الأسلحة والمعدات. وكان أصحابه يجتمعون في المسجد، حين يداهمهم الخطر، ويعود المجاهدون من الغزوات والسرايا الى المسجد، وتضمد جروح المصابين في المسجد، ويتعلم المسلمون أحكام الجهاد في المسجد.

والفرق بين الغزوات والسرايا، أن الغزوات يقودها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، والسرايا يقودها قادة النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه الغر الميامين.

أخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن أنس رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، أجود الناس وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وقد سبقهم الى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة رضي الله عنه، يجري في عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا.. لم تراعوا..»

سبق النبي صلى الله عليه وسلم جماعة الاستطلاع الى الصوت، وكان الصحابة رضي الله عنهم قد تحشدوا في

المسجد انتظارا لأوامر الرسول القائد عليه الصلاة والسلام وتوجيهاته.

لقد كان المسجد في أيام النبي صلى الله عليه وسلم(مثابة) للمجاهدين.. قادة وجنودا، والمثابة في المصطلحات العسكرية، هي: مكان اجتماع القائد برجاله لاصدار الأوامر اليهم ومكان استلام الأوامر، وكان المنادى ينادي حين يتعرض المسلمون لخطر داخلي أو خارجي: الصلاة جامعة.. الصلاة جامعة.. فيتقاطر المجاهدون الى المسجد زرافات ووحدانا تلبية للنداء، عليهم السلاح كاملا، ويجهز لهم من وراءهم الخيل والدواب والابل أو يجهزونها لأنفسهم ويربطونها خارج المسجد، وتعد لهم الأمتعة اللازمة والتجهيزات، ليصاولوا الْعَدُوّ فورا ويقضوا على الخطر الداهم، تنفيذا لخطة قائد واحد، تحقيقا لغاية واحدة، هي الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

- ٤ -

وقد استطاع النبي صلى الله عليه وسلم، بناء الانسان المسلم على ثلاث دعائم: العقيدة الراسخة، والقدوة الحسنة،

واختيار الرجل المناسب للعمل المناسب.

أما العقيدة الاسلامية، فهي عقيدة منشئة بناءة، صالحة لكل زمان ومكان، لأنها تهتم بالمادة اهتمامها بالروح، وتعنى بالحياة الدنيا عنايتها بالدار الآخرة، وتغرس الضبط والنظام في القلوب والنفوس معا، وتلتزم بالخلق الكريم والمعاملة الحسنة والمثل العليا الأخرى، وتأمر بالشجاعة والثبات، وتنهى عن الجبن والفرار.

أما القدوة الحسنة، فقد كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، وكأن تعاليم الاسلام تمشي على الارض بشرا سويا، لا يأمر بشيء الا طبقه على نفسه أقوى ما يكون التطبيق، ولا ينهى عن شيء الا ابتعد عنه أشد البعد، وكان مثالا عاليا للشجاعة والاقدام، وكان كالقمة العالية في عمله ومعاملته بالنسبة لأصحابه وكلهم قمم عالية، وكان يؤثر رجاله بالخير والأمن ويستأثر دونهم بالخطر والمشقة، وكان مثالا شخصيا لأصحابه في كل عمل يبتغي به وجه الله والدار الآخرة، فكان قرنه خير القرون، لأن تأثيره المباشر في أصحابه كان عظيما.

أما اختياره الرجل المناسب للعمل المناسب، فقد كان

مثالا رائعا حقا في الالتزام بالعمل الصالح والايمان العميق والخدمة المثمرة والكفاية العالية والماضي الناصع في اختيار قادته وعماله وقضاته وجباته.

وكل من قرأ سير عظماء الأمم في مختلف العصور، وفكر كثيرا في طرق اختيارهم للذين يوكلون اليهم المناصب العامة، لا يمكن أن يجدوهم شيئا مذكورا بالنسبة لأسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في اختيار الذين يوكل اليهم المناصب العامة عسكرية أو مدنية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ولي من أمر المسلمين شيئا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله» وفي رواية «من قلد رجلا عملا على عصابة[1] وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين» رواه الحاكم في صحيحه[2].

لقد دلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن الولاية أمانة يجب أداؤها. قال لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه في الامارة: «إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من

(١) العصابة: الجماعة من الناس.
(٢) السياسة الشرعية للامام ابن تيمية(١٠).

أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها » رواه مسلم[١].

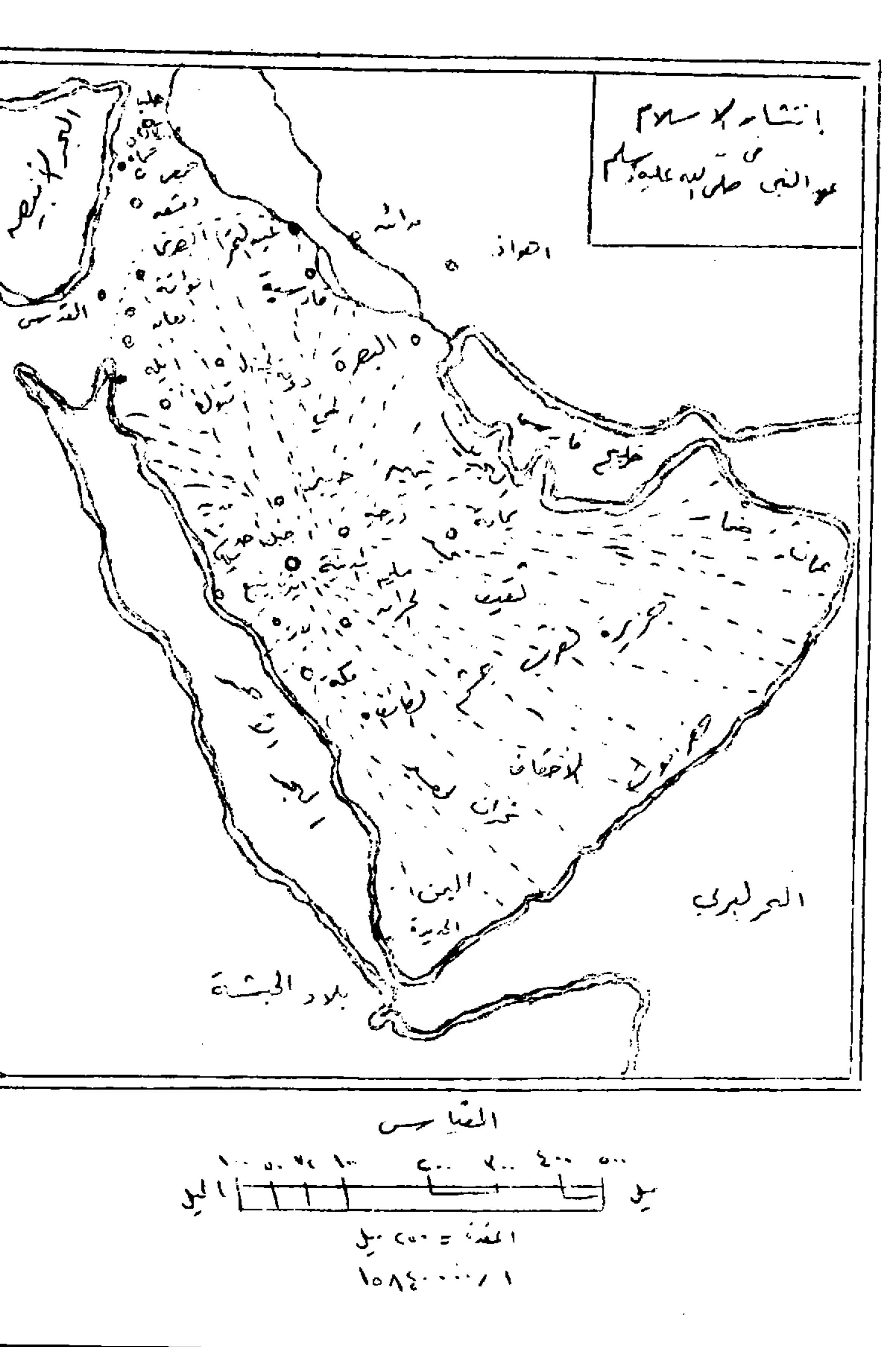
وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة، قيل: يا رسول الله وما اضاعتها؟! قال: اذا وُسِّد[٢] الأمر الى غير أهله، فانتظر الساعة[٣].

لم يكن عليه الصلاة والسلام يقدم رجلا على رجل الا بالحق، وكان يختار الرجل المناسب للعمل الذي يناسبه، فولى قيادة الجيش صاحب الطبع الموهوب والعلم.. المكتسب والخبرة العملية، لذلك انتصر قادته في السرايا التي تولوا قيادتها في حياته المباركة، فلما رحل الى لقاء الله، أصبح قادته أبرز قادة الفتح الاسلامي لأنهم من خريجي مدرسته في اختيار الرجال.

قال ابن تيمية رضي الله عنه في حق السلطان الذي يخالف عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم في اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب: فان عدل عن الأحق الأصح الى غيره، لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو

---

(١) السياسة الشرعية (١٣).
(٢) وسد الأمر الى فلان: أسند اليه القيام بتصريفه.
(٣) السياسة الشرعية (١٣)



انتشار الإسلام
عهد النبي صلى الله عليه وسلم
دمشق
القدس
العراق
البصرة
يثرب
مكة
الطائف
اليمن
عمان
البحر العربي
بلاد الحبشة
المقياس
ميل
الميل
١ / ١٥٨٤٠٠٠٠

موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس، كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن[١] في قلبه على الأحق، أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا، لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)[٢]. ثم قال: (واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة، وأن الله عنده أجر عظيم)[٣].

فان الرجل لحبه لولده، أو لعتيقه، قد يؤثره[٤] في بعض الولايات، أو يعطيه مالا يستحقه، فيكون قد خان أمانته، وكذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حفظه، يأخذ مالا يستحقه، أو محاباة من يداهنه[٥] في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله، وخان أمانته[٦].

لقد ولى النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد قيادة

---

(١) ضغن: حقد.

(٢) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ - ٢٧).

(٣) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ - ٢٨).

(٤) يؤثره يفضله ويقدمه.

(٥) المداهنة: المصانعة والمواربة.

(٦) السياسة الشرعية (١١).

الصحابة بعد اسلام خالد مباشرة[1].

وما يقال عن خالد بن الوليد يقال عن عمرو بن العاص، فقد ولاه قيادة الصحابة بعد اسلام عمرو مباشرة[2].

وقال عنهما لأصحابه الذين كانوا من حوله: «ألقت اليكم مكة أفلاذ كبدها»[3]

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه غنيا، فأفاد المسلمون من ثرائه، ولم نسمع[4] أن الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام كلف عثمان بمنازلة الأقران يوم الطعان.

وكان حسان بن ثابت الأنصارى رضي الله عنه شاعرا مجيدا، فاستفاد االمسلمون من قابليته الشعرية، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجعله مع النساء عندما يتوجه للجهاد.

وكان كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) أسد الغابة (٣/٣٨٢) والاستيعاب (٧/١٠٣٤).

(٢) أسد الغابة (٣/٣٨٢) والاستيعاب (٧/١٠٣٤)

(٣) أسد الغابة (٣/٣٨٢) والاستيعاب (٧/١٠٣٤).

(٤) سنن النسائي (٢/١٢٤)، وانظر حاشية السندي على هامش سنن النسائي (٢/١٢٤).

يعدون من أشجع الشجعان، ولكنهم بقوا جنودا في جيش المسلمين، ولم يتولوا مناصب قيادية، لأنهم كانوا جنودا متميزين، ولم يكونوا قادة متميزين.

وكان من بين أصحابه من يحسن القراءة والكتابة، فجعلهم كتابا للوحي ومحررين لرسائله الى الملوك والأمراء.

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف حق المعرفة كل مزايا أصحابه، فيفيد من تلك المزايا ويبرزها للعيان، ويشجع أصحابها ويثني عليهم أطيب الثناء.

ولكنه في الوقت نفسه، يغض الطرف عن النواقص ويتستر عليها ويبذل جهده لأصلاحها، ولا يذكرها بل يذكر المزايا حسب، ويأمر أصحابه بذكر مزايا اخوانهم حسب أيضا.

واستفادته عليه الصلاة والسلام من كل مزية لكل مسلم، واستقطاب تلك المزايا لبناء المجتمع الاسلامي الجديد، فلا يضع لبنة الا في مكانها اللائق بها والمناسب لها، جعل هذا البناء يرتفع ويتعالى سليما مرصوصا يشد بعضه بعضا.

وكان ذلك سببا من أهم أسباب انتصار النبي صلى الله

عليه وسلم عسكريا وسياساً واجتماعيا واقتصاديا ، وفي أيام الحرب وأيام السلام.

فلما التحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى ، خلف بين المسلمين عددا لا يكاد يعد ولا يحصى من القادة والأمراء ، والولاة والجباة والعلماء والفقهاء والمحدثين ، قادوا الأمة الاسلامية عسكريا وسياسيا واداريا وماليا واجتماعيا وفكريا الى المجد والسؤدد والخير ، والى الفتح والنصر والتوفيق ، والى طريق الحق وسبيل الرشاد.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم[1] » ، فهؤلاء هم القادة الرواد ، من خريجي مدرسة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام.

لقد نسي النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، وركز على تفكيره عملا دائبا لمصلحة المسلمين.

استطاع بالدعامة الأولى: العقيدة الراسخة ، أن يجعل من ضمير الفرد رقيبا عتيدا عليه ، يأمره بالمعروف وينهاه

---

(١) رواه البيهقي في السنن، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوى - مصطفى محمد عمارة - (١/٣٨٩).

عن المنكر، وأن يجعل من المجتمع الاسلامي أخوة متحابين في الله: (انما المؤمنون أخوة)[1].

واستطاع بالدعامة الثانية: القدوة الحسنة، أن يجعل من الفرد المسلم مؤمنا بأن العقيدة الاسلامية قابلة التطبيق عمليا، وأن مالا يمكن أن يكون، يمكن فعلا أن يكون، وأن يجعل المجتمع الاسلامي مؤمنا بأنه المجتمع المثالي الذي يؤمن بعقيدة مثالية جاءت لمصلحة المؤمنين والناس جميعا: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا)[2].

واستطاع بالدعامة الثالثة: اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب، أن يجعل الفرد المسلم يعتمد على قدرته وكيفياته وايمانه للتقدم لا على حسبه ونسبه وانحرافه عن مبادئه،، ويجعل المجتمع الاسلامي يثق بعدل القيادة وترفعها عن التحيز والأهواء.

هكذا أعد الرسول القائد الفرد المسلم، وكل فرد مسلم جندي مجاهد في جيش المسلمين، مؤمنا بعقيدته الراسخة، واثقا بقيادته الأمينة، لا يخشى على مستقبله الظلم

(١) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ :١٠).

(٢) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٤٣).

والانحراف، مطمئنا على حاضره غاية الاطمئنان.

وهؤلاء الأفراد يؤلفون المجتمع الاسلامي، وهو جيش المسلمين المجاهدين في سبيل اعلاء كلمة الله، يشيع فيه الانسجام الفكري بالعقيدة الراسخة، يثق بقادته، ويتولى أمره الزبدة المختارة من أبنائه من أصحاب الكفايات العالية والقابليات المتميزة والايمان العميق والماضي المجيد.

هذا المجتمع الذي يدافع عن عقيدته ويحملها الى الناس كافة لا يحملهم عليها، ويدافع عن أرضه وعرضه - ولا أقول عن أعراضه، لأن عرض كل مسلم عرض المسلمين جميعا، كل أفراده يتساوون بالحقوق والواجبات، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم قوة على سواهم، ليس بينهم تمييز طبقي ولا عرقي، هو جيش النبي صلى الله عليه وسلم، ومثل هذا الجيش لا يقهر أبدا ولا يتقهقر أبدا.

- ٥ -

وجيش المسلمين الأول في تاريخه، يتلخص بأربعة أدوار، تدرج بها من الضعف الى القوة، ومن الدفاع الى الهجوم، فأصبح بالتدريج قوة ضاربة ذات عقيدة راسخة ومعنويات عالية، تعمل تحت قيادة واحدة، لتحقيق غاية واحدة.

وهـذه الأدوار الأربعـة هي بحسب تسلسلها الزمني وتطورها التدريجي: الدور الأول هو دور الحشد: من بعثته صلى الله عليه وسلم سنة (٦١٠م)، الى هجرته من مكة المكرمة الى المدينة المنورة سنة (٦٢٢م) واستقراره هناك.

وفي هذا الدور، اقتصر النبي صلى الله عليه وسلم على الدعوة ونشرها:

يبشر وينذر، ويرسخ العقيدة، ويجاهد بكل طاقاته لتبليغ الدعوة ونشر الاسلام.

وبهـذا الجهـاد الأكـبر، كون الخمـيرة الأولى لجيش المسلمـين، ثم حشدهم في المدينة المنورة بالهجرة اليها، فكانت المدينة هي القاعدة الأمينة الأولى لجيش المسلمين.

والدور الثاني، هو دور الدفاع عن العقيدة: وقد اقتصر في السنة الأولى من الهجـرة على تنظيم الجيش الاسلامي واعداده للجهاد.

وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول آية الاذن بالجهاد الأصغر:

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا

الله)[1]، يرسل السرايا بقيادة القادة من أصحابه، وقاد بنفسه الغزوات، وانتهى هذا الدور: دور الدفاع عن العقيدة، بانسحاب الأحزاب عن المدينة المنورة بعد «غزوة الخندق» في شوال من السنة الخامسة الهجرية[2]، وقيل في ذي القعدة سنة خمس الهجرية[3]........ ومعنى هذا، أن هذا الدور استمر أربع سنوات.... تقريبا.

وفي هذا الدور كان مولد الجيش (تنظيميا)، مولد الجيش الاسلامي جيشا مجاهدا في ظل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فازداد تعداد المسلمين وأحرزوا انتصارا حاسما في غزوة (بدر الكبرى) في رمضان المبارك من السنة الثانية الهجرية[4]، وأثبت جدارته في الدفاع عن العقيدة الاسلامية، وعن الدعوة الاسلامية، وعن حرية انتشارها بين الناس، تجاه أعداء المسلمين من المشركين والمنافقين ويهود، المتفوقين على المسلمين عَدَدا وَعُدَدا.

---

(١) الآيتان الكريمتان من سورة الحج (٢٢ : ٣٩ - ٤٠).
(٢) الدرر (١٧٩) وعيون الأثر (٢/٥٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/٦٥) والمغازي للواقدي (٢/٤٤٠).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٦) وطبقات ابن سعد (٢/١٢) والدرر (١١٠).. والمغازى (١/٢)، (١/٢١) وعيون الاثر (١/٢٤٥).

وفي هذا الدور اجتاز الجيش الاسلامي الوليد وقتا عصيبا بنجاح باهر وانتصارات حاسمة، وصفه الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام قبل خوض غزوة (بدر الكبرى) بقوله وهو يناجي ربه: «اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد»[1]. مشيرا الى موقف المسلمين العصيب، ولكنه قال عليه الصلاة والسلام بعد انسحاب الأحزاب من غزوة (الخندق): «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير اليهم»[2]، مشيرا الى تحسن موقف المسلمين من حال الخطر المحدق الى حال القوة والمنعة.

والدور الثالث، هو دور (التعرض): من بعد غزوة (الخندق) الى غزوة (حنين)[3] التي كانت في شهر شوال من السنة الثامنة الهجرية[4].

وفي هذا الدور، انتشر الاسلام في شبه الجزيرة العربية كلها، وأصبح جيش المسلمين قوة ضاربة ذات اعتبار ووزن وأثر في البلاد العربية، واستطاع سحق كل قوة باغية من

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٧) وعيون الاثر (١/٢٥٥).

(٢) عيون الاثر (٢/٦٦).

(٣) حنين واد قبل الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليال، انظر التفاصيل، في معجم البلدان (٣/٣٥٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/١٤٩) والمغازي للواقدي (١/٦) وجوامع السيرة (٢٤١)

المشركين ويهود تعرضت بالمسلمين.

والدور الرابع هو دور (التكامل): من غزوة (حنين) الى أن التحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول من سنة احدى عشرة الهجرية[1].

وفي هذا الدور تكاملت قوات المسلمين، فسيطرت على شبه الجزيرة العربية سيطرة تامة بدون منازع، ووحدتها توحيدا كاملاً لأول مرة في تاريخها تحت لواء الاسلام.

ثم أخذت هذه القوة تحاول أن تجد لها متنفسا في خارج شبه الجزيرة العربية، فكانت غزوة تبوك[2] التي كانت في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية[3] ايذانا بمولد الدولة الاسلامية[4].

ولست بحاجة الى اثبات قابلية النبي صلى الله عليه وسلم القيادية وكفايته العسكرية[5]، وصدق الله العظيم: (الله أعلم

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٢٧٢) وسيرة ابن هشام (٤/٣٣٢) والدرر (٢٨٧).

(٢) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وهو حصن فيه عين ونخل. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٦٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٦٥) والدرر (٢٥٣)

(٤) انظر كتابنا الفاروق القائد (٢٨/٢٩).

(٥) انظر كتاب السبيل الى القيادة للمشير مونتكومري (١٧، ٢٨٢) وكتاب: =

حيث يجعل رسالته)[1] ، فقد كانت قابلياته وكفاءاته القيادية والعسكرية وغيرها فذة نادرة لا تتكرر أبدا.

فقد قاد النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعا وعشرين غزوة[2] ، وفي رواية أخرى أنه قاد بنفسه خمسا وعشرين غزوة[3] .

ولكنني بمقارنة تعداد الغزوات وتوقيتها في المراجع المعتمدة للسيرة النبوية المطهرة والمغازي والتاريخ ، واحصاء الغزوات التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وجدت أن عدد الغزوات التي قادها بنفسه هي ثمان وعشرون غزوة (انظر الملحق (أ)المرافق ، ويبدو أن قسما من المصادر أغفلت غزوة من الغزوات سهوا ، وقسما منها أغفلت أكثر من غزوة واحدة ، ولكن تعداد الغزوات التي اعتمدتها في الملحق المرافق وردت في أكثر من مصدر معتمد ، فآثرت اثباتها منسقة مبسطة ، لعل فيها فائدة للمعنيين بالدراسات

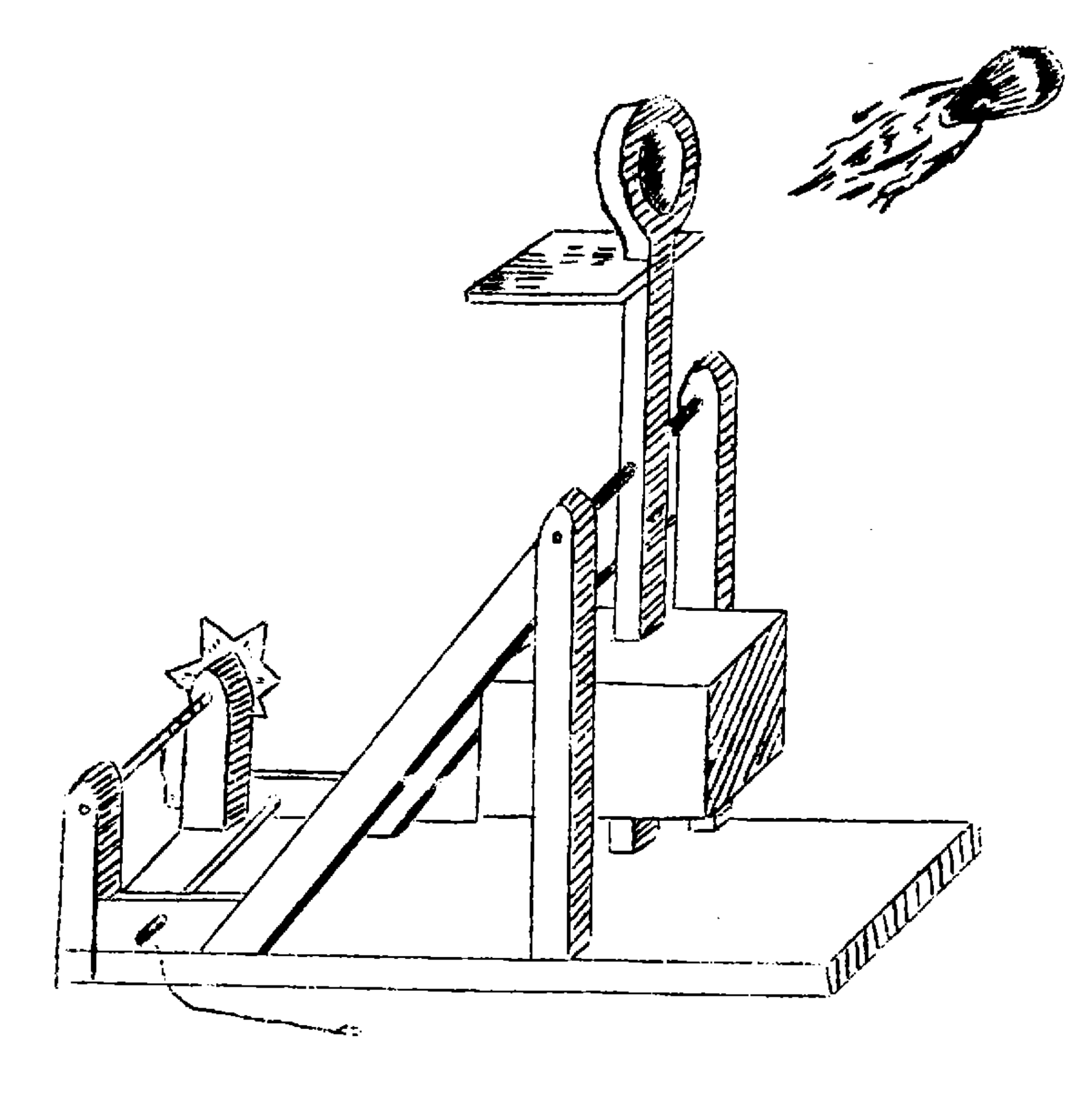
= المئة.. الأوائل للدكتور /مايكل هارث الذي اختار النبي صلى الله عليهة وسلم ليكون الأول في أهم رجال التاريخ.

(١) الآية الكريمة من سورة الأنعام (٦/١٢٤).

(٢) انظر التفاصيل في كتابنا الرسول القائد (٤٢١/٤٨٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/٥) والمغازي للواقدي (١/٧) وعيون الأثر (١/٢٢٣)

(٤) جوامع السيرة (١٦).



منجنيق لرمي النفط

العسكرية الاسلامية[1].

وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع غزوات: بدر، وأحد،والمريسيع،والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف[2]، بينما فر المشركون في تسع عشرة غزوة من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم بدون قتال[3].

وكانت سراياه التي بعث بها سبعا وأربعين سرية[4] وفي رواية أنه بعث عددا أكثر من السرايا، والأول أصح (انظر الملحق ب المرفق).

وقد قاد عليه الصلاة والسلام غزواته خلال سبع سنين من بعد هجرته من مكة المكرمة الى المدينة المنورة، فقد خرج الى غزوة (ودان)[5] وهي أول غزوة قادها بنفسه في

---

(١) انظر التفاصيل في كتابنا: الرسول القائد (٤١٢ - ٤١٨)، ولم يدرج قسم من كتاب مصادر الغزوات غزوة بني قينقاع مع غزواته عليه الصلاة والسلام. انظر (مثلا) سيرة ابن هشام (٤ /٢٨٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/٢ - ٦) وعيون الاثر (٢٢٣/١) وجوامع السيرة (٢١/١٧).

(٣) انظر كتابنا الرسول القائد (٤٢٤).

(٤) سيرة ابن هشام (٢٨٠/٤) وطبقات ابن سعد (٥/٢) وعيون الاثر (٢٢٣/١) وجوامع السيرة (٢١/١٧).

(٥) ودان قرية قريبة من الجحفة، وهناك ودان بين الأبواء والجحفة، وهي من.. الجحفة على مرحلة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٠٥/٨).

شهر صفر من السنة الثانية الهجرية[1]، وكانت غزوة تبوك آخر غزواته في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية، وكان من ثمرات تلك الغزوات توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الاسلام.

- ٦ -

وبدأ الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام يخطط للفتح الاسلامي العظيم فهو الذي رسم الخطة التمهيدية التي حملت جيش المسلمين على فتح (أرض الشام)[2] فلسطين والأردن وسورية ولبنان، وتأسيس أول ركن لدولة الاسلام خارج شبه الجزيرة العربية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية.

ذلك أن الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام الى جانب تبليغه الدعوة الاسلامية الى قادة العالم في وقته: كسرى فارس، وقيصر القسطنطينية، وأمراء وقادة العراق

---

(١) المغازي للواقدي (١/٢) وطبقات ابن سعد (٢/٨) والدرر (١٠٣) وعيون الاثر (١/٢٢٤).

(٢) أرض الشام حدودها من الغرب بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ومن الشرق البادية من (أيلة) الى الفرات الى حد الروم. ومن الشمال بلاد الروم (تركيا) ومن الجنوب حد مصر وتيه بني اسرائيل. راجع التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخرى (٤٣) ومعجم البلدان (٥/٢١٩).

وأرض الشام ومصر والخليج العربي واليمن والحبشة، كان قائدا ماهرا يقظا لا يغض الطرف عن أي مظهر عدواني قد يحط من شأن دعوته أو يعمل على النيل منها أو يضع العراقيل في طريق حرية انتشارها، فلم يقف ساكنا أمام استشهاد رسوله الذي بعثه الى أمير الغساسنة في (بصرى)[1]، فأرسل في السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩م) أحد قادته المقربين اليه، وهو زيد بن حارثة الكلبي على رأس حملة تعدادها ثلاثة الاف رجل الى الحدود الشمالية الغربية من حدود بلاد العرب، وهناك عند (مؤتة)[2]، الواقعة على - حدود (البلقاء)[3] الى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر (الميت)، التقى المسلمون بقوات الروم وحلفائهم[4] الغساسنة.

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها غزوة (مؤتة) فان نتائجها

---

(١) بصرى: قصبة كورة (حوران) من أعمال دمشق انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٧٨).

(٢) مؤتة: قرية من قرى البلقاء على حدود الشام ووادي القرى. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٩).

(٣) البلقاء: كورة من أعمال دمشق ووادي القرى قصبتها: عمان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٧٦).

(٤) انظر تفاصيل سرية (مؤتة) في كتابنا: الرسول القائد (٢٩٥ - ٣٠٢).

وآثارها كانت بعيدة المدى، فبينما رأى الروم تلك الغزوة (غارة) من الغارات التي اعتاد البدو شنها بين حين وآخر، كانت سرية زيد الى «مؤتة» في الحقيقة غزوة من نوع آخر لم تقدر امبراطورية الروم أهميتها، فهي حرب منظمة كانت لها مهمة جديدة خاصة، جعلت المسلمين يتطلعون جديا لفتح أرض الشام.

وفي العالم التالي، أي في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م)، قاد النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة (تبوك) فأظهر قوة المسلمين للروم المتربصين بهم، ثم عاد الى المدينة المنورة، فكانت تلك الغزوة غزوة استطلاعية، بالإضافة الى تأثيرها المعنوي في الروم وحلفائهم الغساسنة.

وفي السنة الحادية عشرة الهجرية (٦٣٢م)، أعد النبي صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي[١] (حب رسول الله وابن حبه)، لمهاجمة الروم فولى وجوه المسلمين شطر قبلة عينها لهم وأهداف واضحة جلية شرحها لهم وأصدر اليهم أوامر حاسمة جازمة.

وهكذا وقف الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٣٣ - ٥١).

بثاقب نظره على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل ببلاد العرب ودعوته الاسلامية، موطنها أرض الشام حيث الروم وعمالهم الغساسنة، وقد أثبتت حوادث الفتح الاسلامي فيما بعد صدق هذه الإرادة، فكان الروم أشد المحاربين عنادا[1].

تلك هي قصة جيش المسلمين الأول، الذي أنشأه وسهر على رعايته، ودربه وجهزه ونظمه، وهيأ له القادة الحماة القادرين، وأشاع فيه المعنويات العالية بالعقيدة الراسخة، حتى أصبح جيشا لا يقهر من قلة ولا بكثرة، حقق وحدة قوية،.. وأنشأ أمة عظيمة، وحمى عقيدة راسخة في حياة قائده ورائده، ومؤسس بنيانه،.. ومشيد أركانه، ومرسخ ايمانه بقوة الله وعزته وارادته وهديه.

وقد نشأ هذا الجيش في المسجد، وشب وترعرع في المسجد، واستوى على ساقه في المسجد، وتلقى تعاليمه في المسجد، فقد جعل الله الأرض كلها مسجدا وطهورا.

وفي المدينة المنورة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، انطلق جيش المجاهدين الأولين للدفاع عن الاسلام

---

(١) الدولة الاسلامية وامبراطوية الروم (٤١).

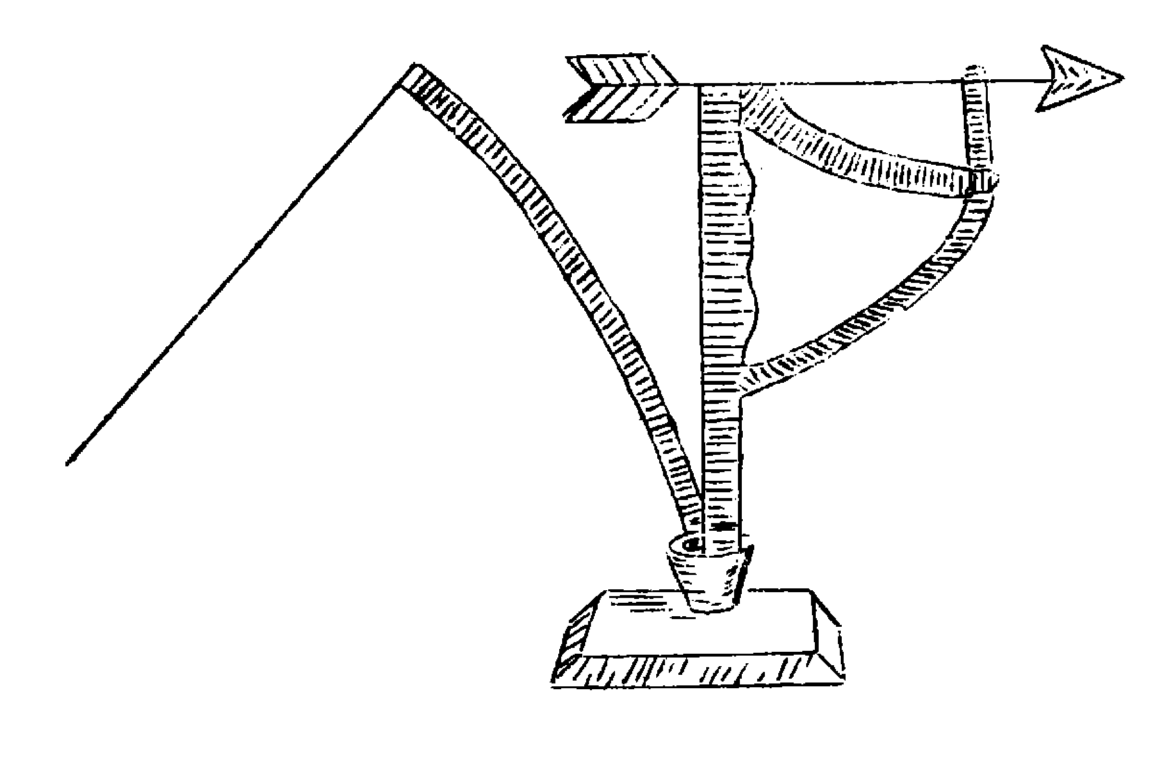
والمسلمين، ثم انطلق لحماية الدعوة الاسلامية وحرية نشرها وتبليغها الى الناس، ثم اندفع لصيانة الكيان الاسلامي، ثم تكفل بصيانة الدولة الاسلامية مكانة وأرضا وعرضا، ثم نهض بأعباء حرب المرتدين واعادة الوحدة الى شبه الجزيرة العربية، ثم تحمل أعباء الفتح الاسلامي العظيم أقوى ما يكون عزما وارادة وتصميما، فنقل المسلمون بهذا الفتح الأمم الى الاسلام، ولم ينقلوا به الاسلام الى الأمم.

لقد أسس بنيان هذا الجيش على تقوى من الله ورضوان، لذلك أحرز انتصارات باهرة لا تزال أعجوبة من أعاجيب الدهر، وحقق فتوحات فذة لا تزال باقية على الدهر، وصدق الله العظيم: (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين)[١].

والدرس الذي يمكن أن نستخلصه من بناء الجيش الاسلامي الأول، جيش النبي صلى الله عليه وسلم، هو أن نبني الجيوش العربية والإسلامية على أسس رصينة من تعاليم الدين الحنيف، لتتحلى تلك الجيوش بالمعنويات

---

١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ١٠٩).



منجنيق لرمي السهام الثقيلة

العالية التي ترتكز على تلك التعاليم.

وأن نحسن لها اختيار القادة المؤمنين حقا، من ذوي الطبع الموهوب والعلم المكتسب والتجربة العملية، القادة الذين يؤثرون مصلحة أمتهم وبلدهم على مصالحهم الذاتية.

وأن نعد لها السلاح المتطور، وندربها التدريب المتكامل ونهذبها التهذيب الناجع، ونجهزها التجهيز المتميز، وننظمها

التنظيم الدقيق.

وأن نعيد للمسجد مكانته ليؤدي رسالته في غرس العقيدة الراسخة والمعنويات العالية، فهو وحده يؤدي هذه الرسالة، أما غيره من الأماكن فهي تؤدي رسالة من نوع آخر،فهي من مصلحة الأعداء لا من مصلحة الأصدقاء.

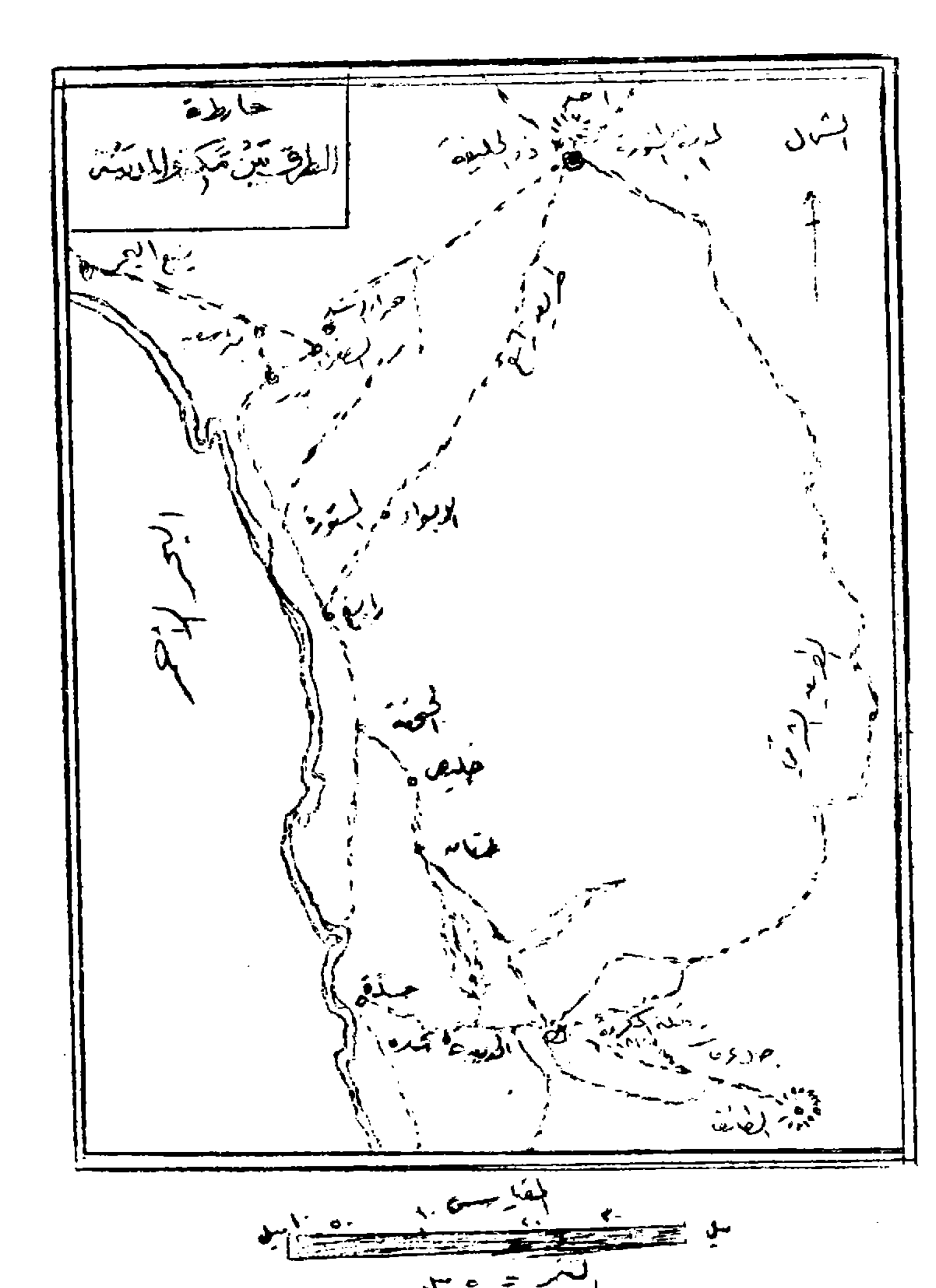
ان المسجد يكون في الأرض، ولكن السماء تكون فيه - وكل مسجد هو معمل - لتفريخ المجاهدين الصادقين، والنوادي الترفيهية معامل لتفريخ التافهين والإمعات والهتافة من أشباه الرجال.

والنفوس المؤمنة لا تتشبع بالماء كالإسفنج. بل تتشبع بروح المسجد وكل مسجد أسس على التقوى ثكنة لجيش المسلمين ومدرسة، فمتى يعود المسلمون الى المسجد ليستعيد مكانته ويؤدي رسالته؟!

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على امام المجاهدين الصادقين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

والله أسأل أن يفيد بهذا البحث، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،



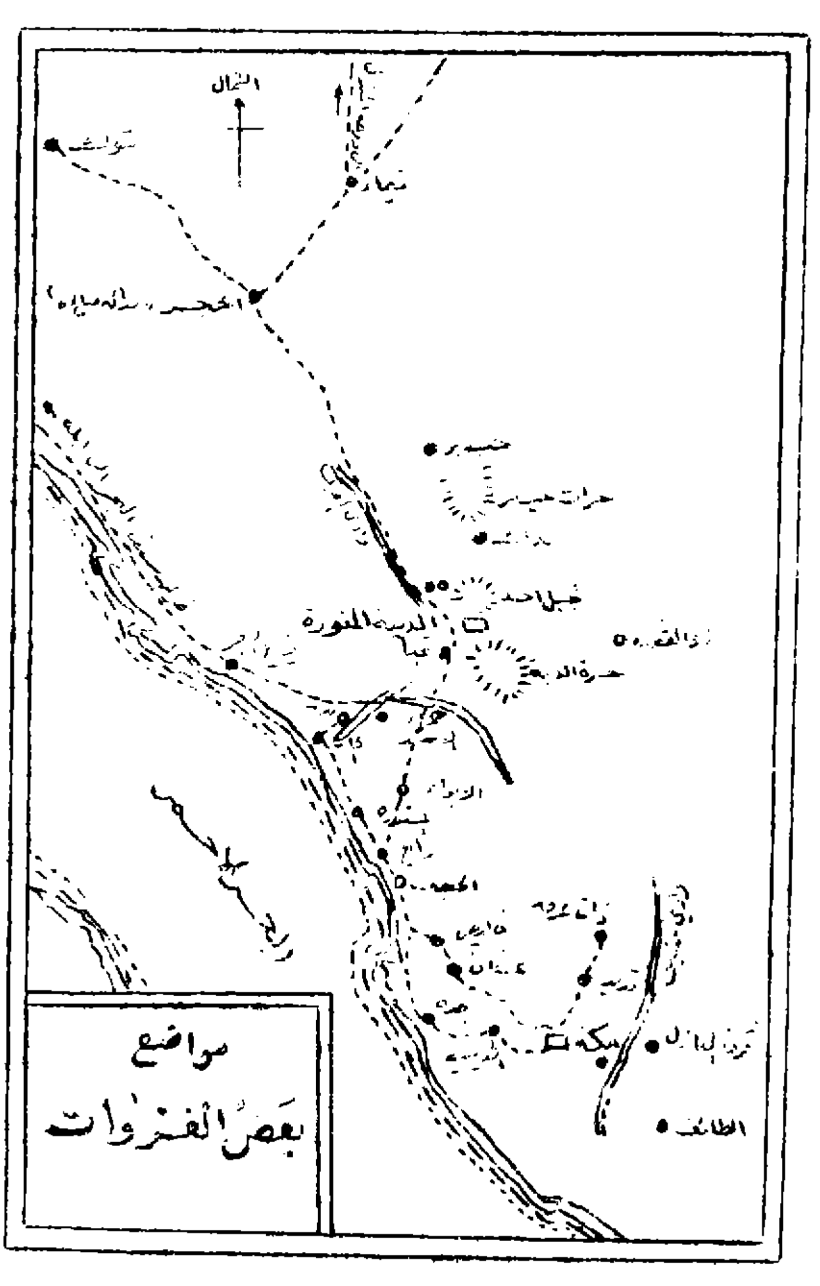
خارطة
الشمال
ذو الحليفة
ينبع البحر
الابواء
رابغ
الجحفة
خليص
عسفان
جدة
الحديبية
الطائف
البحر الاحمر
المقياس

الغزوات التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه

الملحق (أ)

اسم الغزوة	قوات الطرفين		المكان	التاريخ	مجمل النتائج
	المسلمون	أعداء المسلمين			
ودان (الأبواء)	٢٠٠ راكب وراجل	-	ودان	صفر من السنة الثانية الهجرية	تملصت قريش فحالف بني ضمرة
بواط بناحية رضوى	٢٠٠ راكب وراجل	١٠٠ راكب وراجل من قريش	بواط	ربيع الأول من السنة الثانية الهجرية	لم يدرك قافلة قريش
العشيرة من بطن ينبع	٢٠٠ راكب راجل	قوة من قريش وبني مدلج وبني ضمرة	العشيرة	جمادى الأولى من السنة لثانية لهجرية	وادع بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة
بدر الأولى	٢٠٠ راكب وراجل	قوة خفيفة بقيادة كرزين جابر الفهري	بدر	جمادى الآخرة من السنة الثانية الهجرية	فر المشركون بما غنموه من المسلمين ولم يستطع المسلمون ادراكهم.
بدر الكبرى	٣١٥ معهم فرسان وسبعون بعيراً	٩٥٠ منهم ٢٠٠ راكب وهم من قريش	بدر	رمضان من السنة الثانية الهجرية	انتصار المسلمين الحاسم على المشركين من قريش.

بنو قينقاع	مسلموا المدينة المنورة	بنو قينقاع من يهود	المدينة المنورة	أوائل شوال من السنة الثانية الهجرية	تطهير داخل المدينة المنورة من يهود.
بنو سليم	٢٠٠ راكب وراجل	بنو سليم	قرقرة الكدر مكة والمدينة	أواخر شوال من السنة الثانية الهجرية	بين فرار بني سليم وتركوا أموالهم للمسلمين.
السويق	قوة مطاردة خفيفة من المسلمين	٢٠٠ فارس من مشركي قريش	قرقرة الكدر	ذو الحجة من السنة الثانية الهجرية	فرار مشركي قريش من مطاردة.. المسلمين.
ذو أمر	٤٥٠ بين راكب وراجل	بنو ثعلبة ومحارب	ذو أمر موضع في نجد	محرم من السنة الثالثة الهجرية	فر بنو ثعلبة ومحارب وبقي المسلمون في دارهم نحو شهر
بحران	٣٠٠ بين راكب وراجل	بنو سليم	بحران على طريق المدينة مكة	ربيع الأول من السنة الثالثة الهجرية	فر بنو سليم فبقي المسلمون في ديارهم نحو شهر
أحد	٧٠٠ بينهم خمسون فارساً	٢٩٠٠ من قريش وحلفائها ومائة من بني ثقيف بينهم ٢٠٠ فارس	جبل أحد في ضواحي المدينة المنورة	شوال من السنة الثالثة الهجرية	استطاع المشركون تكبيد المسلمين سبعين شهيداً وكان انتصار المشركين انتصاراً تعبوياً



ميل ١٠٠ ٥٠

١ بوصة = ٥٠ ميل

١/٣١٦٨٠٠٠

حمراء الأسد	٦٣٠ راكب وراجل	٢٩٧٨ من قريش وحلفائها وثقيف	حمراء الأسد بين المدينة ومكة	شوال من السنة الثالثة الهجرية	طارد المسلمون قريشاً. وحلفاءها إلى حمراء الأسد بعد انتهاء غزوة أحد مباشرة ولكن المشركين.. انسحبوا.
بنو النضير من يهود	مسلمو المدينة كافة	بنو النضير من يهود	ضواحي المدينة المنورة	ربيع الأول من السنة الرابعة الهجرية	اجلاء بني النضير عن ضواحي المدينة المنورة.
ذات الرقاع	٤٠٠ راكب وراجل	بنو ثعلبة ومحارب من غطفان	ذات الرقاع بنجد	شعبان من السنة الرابعة الهجرية	فرار بني ثعلبة محارب. وبني
بدر الآخرة	نحو ألف راكب وراجل	٣٠٠ من مشركي قريش	بدر	شعبان من السنة الرابعة الهجرية	عادت قريش أدراجها إلى مكة ولم تذهب للقاء المسلمين في بدر حسب موعدها.
دومة الجندل	ألف راكب وراجل	قبائل دومة الجندل	دومة الجندل	ربيع الأول من السنة الخامسة الهجرية	لاذت القبائل بالفرار.

بنو المصطلق	ألف راكب وراجل	بنو المصطلق	المريسيع	شعبان من السنة الخامسة الهجرية	فر بنو المصطلق بعد معركة قصيرة وانتصر المسلمون.
الخندق	ثلاثة آلاف	عشرة آلاف من قريش وحلفائها عدا يهود المدينة	المدينة المنورة	شوال من السنة الخامسة الهجرية	عودة الأحزاب عن حصار المدينة المنورة خائبين
بنو قريظة من يهود	ثلاثة آلاف بينهم ٣٦ فارساً	٦٠٠ إلى ٧٠٠ من قريظة	المنورة	ذو القعدة من السنة الخامسة الهجرية	القضاء على بني قريظة.
بنو لحيان	نحو ٣٠٠	بنو لحيان	غران بين أمج وعسفان	جمادى الأولى من السنة الهجرية	فر بنو لحيان.
ذو قرد	جماعة مطاردة خفيفة	غطفان	ذو قرد	جمادى الأولى من السنة السادسة الهجرية	فر بنو غطفان تاركين الغنائم التي أخذوها من المسلمين.
الحديبية	١٦٠٠ راكب وراجل	قريش في مكة المكرمة	الحديبية	ذو القعدة من السنة السادسة الهجرية	عقد هدنة الحديبية بين المسلمين وقريش
خيبر	١٦٠٠ راكب وراجل	يهود خيبر	خيبر	محرم من السنة السابعة الهجرية	فتح خيبر واستسلم يهود فدك ووادي القرى وتيماء.

عمرة القضاء	١٤٠٠ راكب وراجل	قريش	مكة المكرمة	ذو الحجة من السنة السادسة الهجرية	بقي المسلمون ثلاثة أيام في مكة بعد أن خرج المشركون منها.
فتح مكة	عشرة آلاف	قريش وبنو بكر	مكة المكرمة	رمضان من السنة الثامنة الهجرية	فتح مكة المكرمة
حنين	١٢٠٠٠ ألفا	هوازن وثقيف	وادي أوطاس قرب الطائف	شوال من السنة الثامنة الهجرية	فك المسلمون عن الطائف ورحلوا عنها إلى المدينة واندحار هوازن وثقيف.
حصار الطائف	١٢٠٠٠ ألفاً	ثقيف وقسم من هوازن	الطائف	شوال من السنة الثامنة الهجرية	لم تستسلم الطائف ففك الحصار المسلمون عنها ورحلوا عائدين إلى المدينة المنورة.
تبوك	ثلاثون ألفا منهم عشرة الاف فارس	جيش كبير من الروم وحلفائهم من الغساسنة	تبوك	رجب من السنة الثامنة الهجرية	فضل الروم ألا يشتبكوا بالمسلمين فأقام المسلمون في تبوك نحو عشرين يوماً. وصالحوا القبائل وسكان منطقة الحدود الشمالية بين الحجاز وأرض فأمنوا بذلك قاعدة متقدمة أمامية لعملياتهم المقبلة باتجاه الروم في أرض الشام.

سرايا النبي صلى الله عليه وسلم

الملحق (ب)

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
حمزة بن عبد المطلب	ثلاثون من المهاجرين	حمزة بن عبد المطلب	٣٠٠ راكب	أبو جهل بن هشام	العيص	رمضان من السنة الأولى	حجز بين الطرفين مجدي بن عمرو الجهني
عبيدة بن الحارث	ستون من المهاجرين	عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب	أكثر من مئتي راكب وراجل	أبو سفيان بن حرب	ماء بوادي رابغ	شوال من السنة الأولى	جرت مناوشات بين الطرفين رمى فيها سعد بن أبي وقاص أول سهم رمي في الاسلام.
سعد بن أبي وقاص	عشرون من المهاجرين	سعد بن أبي وقاص	قافلة لقريش	–	الخرار	ذوالقعدة من السنة الأولى	تملصت القافلة ونجت
عبد الله بن جحش	اثنا عشر رجلاً من المهاجرين	عبد الله بن جحش	أربعة رجال	عمرو بن الحضرمي	نخلة	رجب من السنة الثانية	١- أول قتيل من المشركين ٢- أول أسير من المشركين ٣-أول غنيمة للمسلمين ٤- استعمال الرسائل المكتومة.

عمير بن عدي ابن خرشة	رجل واحد	عمير بن عدي ابن خرشة	عدوة واحدة	عصماء بنت مروان	المدينة المنورة	رمضان من السنة الثانية	تعيب الاسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه وتقول الشعر.
سالم بن عمير	رجل واحد	سالم بن عمير	عدو واحد	أبو عفك اليهودي	المدينة المنورة	شوال من السنة الثانية	يحرض على رسول الله ويقول الشعر
محمد بن مسلمة	نفر من الأوس	محمد بن مسلمة	عدو واحد	كعب بن الأشرف	المدينة المنورة	ربيع الأول من السنة الثالثة	يهجو النبي بشعره ويهجو أصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم
زيد حارثة الكلبي	مائة راكب	زيد بن حارثة الكلبي	قافلة القريش	صفوان بن من أمية	القردة أرض نجد	جمادى الاخرة من السنة الثالثة	غنم قافلة قريش وأسر فرات بن حيان فأسلم.
عبد الله بن أنيس	رجل واحد	عبد الله بن أنيس	جماعة حشدوا لقتال المسلمين	سفيان بن خالد الهذلي	عرنة	المحرم من السنة الرابعة	حشد الجموع لقتال المسلمين
أبو سلمة بن عبد الأسد	–	أبو سلمة بن عبد الأسد	بنو أسد	رئيس بني أسد	قطن	المحرم من السنة الرابعة	لحشدهم على المسلمين.
المنذر بن عمرو الأنصاري	سبعون رجلا من الأنصار	المنذر بن عمرو	سبعون من سليم	سليم بن ملحان والحكم بن كيسان	بئر معونة	صفر من السنة الرابعة	غدر المشركون بالدعاة المسلمين.
مرثد بن أبي مرثد الغنوي	عشرة رجال	مرثد بن أبي مرثد الغنوي	عضل والقارة	رئيسا القبيلتين	الرجيع	صفر من السنة الرابعة	غدر المشركون بالمسلمين.

محمد بن مسلمة	ثلاثون راكباً	محمد بن مسلمة نصاري	القرطاء بطن من بني بكر من كلاب	رئيس القبيلة	القرطاء في البكرات بناحية ضرية	محرم من السنة السادسة بالغنائم	قتل نفرا منهم وهرب سائرهم وعاد
عكاشة بن محصن الأسدي	أربعون رجلا	عكاشة بن محصن الأسدي	بنو أسد	رئيس القبيلة	الغمر غمر مرزوق	ربيع الأول السنة السادسة	استاقوا مائتي بعير وهرب المشركون.
محمد بن مسلمة الأنصاري	عشرة رجال	محمد بن مسلمة	بنو ثعلبة وبنو عوال من ثعلبة	رئيس القبيلة	ذو القصة	ربيع الاخر السنة السادسة	استشهد المسلمون وجرح قائدهم
أبو عبيدة ابن الجراح	أربعون رجلا	أبو عبيدة ابن الجراح	بنو ثعلبة	رئيس القبيلة	ذو القصة	ربيع الاخر السنة السادسة	هرب المشركون وغنم المسلمون مواشيهم وأمتعتهم.
زيد بن حارثة الكلبي	-	زيد بن حارثة الكلبي	سليم	رئيس القبيلة	الجموم	ربيع الآخر السنة السادسة	غنم المسلمون شاء ونعما وأسرى.
زيد بن حارثة الكلبي	سبعون ومائة راكب	زيد بن حارثة الكلبي	قافلة لقريش	صفوان بن أمية	العيص	جمادى الأولى السنة السادسة	غنم المسلمون القافلة.
زيد بن حارثة الكلبي	خمسة عشر رجلاً	زيد بن حارثة الكلبي	بنو ثعلبة	رئيس القبيلة	الطرف	جمادى الاخرة السنة السادسة	غنم المسلمون عشرين بعيرا وهربت الأعراب.

زيد بن حارثة الكلبي	خمسمائة رجل	زيد بن حارثة الكلبي	جذام	الهنيد بن	حسمى	جمادى الآخرة السنة السادسة	غنم المسلمون ألف بعير وخمسة آلاف من الشاة مع مائة من الأسرى فأعادها النبي لهم.
زيد بن حارثة الكلبي	-	زيد بن حارثة الكلبي	الأعراب في وادي القرى بنو فزارة	رئيس القبيلة	وادي القرى	رجب السنة السادسة	كبدهم خسائر في الأرواح وأصاب أسرى
عبد الرحمن ابن عوف	-	عبد الرحمن ابن عوف	بنو كلب	الأصبغ بن عمرو الكلبي	دومة الجندل	شعبان السنة السادسة	أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وأسلم معه ناس كثير.
علي بن أبي طالب	مائة رجل	علي بن أبي طالب	بنو سعد ابن بكر	رئيس القبيلة	فدك	شعبان السنة السادسة	لاحباط حشدهم مداداً ليهود خيبر فهرب بنو سعدوخلفوا خمسمائة بعير وألفي شاة غنمها المسلمون
زيد بن حارثة الكلبي	مفرزة خفيفة	زين بن حارثة الكلبي	فزارة من بني بدر	رئيس القبيلة	ام قرفة بوادي القرى	رمضان السنة السادسة	انتقم من بني بدر لنهبهم قافلة تجارية للمسلمين
عبد الله ابن عتيك	راجل واحد مع مفرزة من خمسة رجال	عبد الله ابن عتيك	أبو رافع بن أبي الحقيق	أبو رافع سلام بن أبي الحقيق	خيبر	رمضان السنة السادسة	قتله لأنه حرض غطفان على المسلمين.

عبد الله ابن رواحة	أربعة رجال	عبد الله بن رواحة	رجل واحد	أسير بن زارم اليهودي	خيبر	شوال السنة السادسة	قتله لأنه سار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب المسلمين.
كرز بن جابر الفهري	عشرون فارساً	كرز بن جابر الفهري	ثمانية من العرنيين	هؤلاء ثمانية من العرنيين	الطريق القريبة من المدينة	شوال السنة السادسة	خانوا الأمانة فعوقبوا على خيانتهم.
عمرو بن أمية الضمري	رجلان	عمرو بن أمية الضمري	أبو سفيان بن حرب	أبو سفيان ابن حرب	مكة	-	أرسل أبو سفيان ليغتال النبي ﷺ فعاد هذا إلى أبي سفيان بعد اسلامه.
عمر بن الخطاب	ثلاثون رجلاً	عمر بن الخطاب	عجز هوازن	-	تربة	شعبان السنة السابعة	هرب المشركون فعاد إلى مكة.
أبو بكر الصديق	-	أبو بكر الصديق	بنو كلاب	-	ضرية بنجد	شعبان السنة السابعة	هرب المشركون وسبى قسماً منهم.
بشير بن سعد الأنصاري	ثلاثون رجلاً	بشير بن سعد الأنصاري	بنو مرة	-	فدك	شعبان السنة السابعة	غنم المسلمون فاستعاد المشركون الغنائم وكبدوا المسلمين فادحة خسائر
غالب بن عبد الله الليثي	مائة وثلاثون رجلاً	غالب بن عبد الله الليثي	بنو عوال وبنو عبد بن ثعلبة	رئيس القبيلة	الميفعة بناحية نجد	رمضان السنة السابعة	كبدوا المشركين خسائر في الأرواح وغنمو نعماً وشاء.

سعد بن بشير الأنصاري	ثلاثمائة رجل	سعد بن بشير الأنصاري	غطفان	عيينة بن حصن	يمن وجباد	شوال السنة السابعة	هرب المشركون وغنم المسلمون نعماً كثيراً.
ابن أبي العوجاء السلمي	خمسون رجلاً	ابن أبي العوجاء السلمي	سليم	رئيس القبيلة	الجموم	ذو الحجة السنة السابعة	استشهد أكثر المسلمين.
غالب بن عبد الله الليثي	بضعة عشر رجلاً	غالب بن عبد الله الليثي	بنو الملوح	بنو الملوح	الكديد	صفر السنة الثامنة	غنم المسلمون النعم
غالب بن عبد الله الليثي	مائتا رجل	غالب بن عبد الله الليثي	بنو مرة	رئيس القبيلة	فدك	صفر السنة الثامنة	أخذ المسلمون ثأرهم من بني مرة الذين أصابوا سرية بشير بن سعد الأنصاري.
شجاع بن وهب الأسدي	أربعة وعشرون رجلاً	شجاع بن وهب الأسدي	بنو عامر من هوازن	رئيس القبيلة	السي ناحية الركبة من وراء المعدن	ربيع الأول السنة الثامنة	غنم المسلمون نعما وشاء.
كعب بن عمير الغفاري	خمسة عشر رجلاً	كعب بن عمير الغفاري	قبائل عربية	ـ	ذات أطلاح	ربيع الأول السنة الثامنة	استشهد المسلمون
زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة	ثلاثة آلاف رجل	زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة	مائة ألف من غسان وحلفائهم	شرحبيل بن عمرو الغساني	مؤته	جمادى الأولى السنة الثامنة	انسحب المسلمون بقيادة خالد بن الوليد بعد استشهاد القادة الثلاثة وتكبد المسلمون خسائر فادحة بالأرواح لتفوق المشركين عليهم تفوقاً ساحقاً

عمرو بن العاص	ثلاثمائة رجل معهم ثلاثون فرساً وأمدهم النبي بمائتي رجل	عمرو بن العاص وعلى المدد أبو عبيدة بن الجراح	قضاعة	رؤساء قبائل بلي وعذرة وبلقين	ذات السلاسل	جمادى الآخرة السنة الثامنة	وطيء بلاد بليّ ودوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين ولقي جمعاً بعد ذلك فحمل المسلمون عليهم فهربوا في البلاد وتفرقوا والهدف من السرية احباط تجمعات قضاعة وحشدهم للهجوم على المسلمين.
الخبط	ثلاثمائة رجل	أبو عبيدة بن الجراح	جهينة	رئيس القبيلة	القبلية مما يلي ساحل البحر الأحمر	رجب السنة الثامنة	لم يلقوا كيداً.
أبو قتادة ابن ربعي الأنصاري	خمسة عشر رجلاً	أبو قتادة بن ربعي الأنصار	محارب بن غطفان	رئيس محارب من غطفان	خضرة في نجد	شعبان السنة الثامنة	غنم المسلمون مائتي بعير وألفي شاة.
أبو قتادة بن ربعي الأنصاري	ثمانية رجال	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري	-	-	بطن اضم	رمضان السنة الثامنة	الهدف هو التضليل عن التوجه نحو مكة لفتحها فذهبت هذه السرية بعكس اتجاه مكة، ثم تحرك المسلمون نحو هدفهم الأصلي مكة.

خالد بن الوليد	ثلاثون فارساً	خالد بن الوليد	صنم لقريش وجميع بني كنانة	–	العزى (صنم) في نخلة	رمضان السنة الثامنة	هدم العزى.
عمرو بن العاص	مفرزة خفيفة	عمرو العاص	صنم هذيل	–	سواع (صنم)	رمضان السنة الثامنة	هدم سواع
سعد بن زيد الأشهلي	عشرون فارساً	سعد بن زيد الأشهلي	صنم للأوس والخزرج وغسان بالمشلل	–	مناة (صنم)	رمضان السنة الثامنة	هدم مناة
خالد بن الوليد	ثلاثمائة خمسون رجلاً	خالد بن الوليد	خذيمة من كنانة	رئيس قبيلة جذيمة	ناحية يلملم	شوال السنة الثامنة	كبد جذيمة خسائر في الأرواح.
الطفيل بن عمرو الدوسي	مفرزة خفيفة	الطفيل بن عمرو الدوسي	ذو الكفين (صنم عمرو ابن حممة الدوسي)	–	في منطقة الطائف	شوال السنة الثامنة	هدم ذا الكفين.
عيينة بن حصن الفزاري	خمسون فارساً	عيينة بن حصن الفزاري	بنو تميم	رئيس بني تميم	بين السقيا وأرض بني تميم	المحرم السنة التاسعة	هرب المشركون فأسر أحد عشر رجلاً وسبى احدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً أعادهم النبي إلى أهليهم.
قطبة بن عامر بن حديدة	عشرون رجلا	قطبة بن عامر بن حديدة	خثعم	رئيس خثعم	ناحية بيشة قريباً من تربة في ناحية تبالة	صفر السنة التاسعة	تكبد المشركون خسائر بالأرواح وغنم المسلمون النعم والشاء والأسرى.

الضحاك بن سفيان الكلابي	–	الضحاك بن سفيان الكلابي	بنو كلاب	رئيس بني كلاب	القرطاء بناحية زج لاوه	ربيع الأول السنة التاسعة	انتصر على بني كلاب.
علقمة بن مجزر المدلجي	ثلاثمائة رجل	علقمة بن مجزر المدلجي	الحبشة	رئيس الحبشة في الجزيرة التي تقابل مدينة جدة	الحبشة في جزيرة تقابل جدة	ربيع الآخر السنة التاسعة	هرب الأحباش
علي بن أبي طالب	مائة وخمسون رجلاً على مائة بعير وخمسين فرساً	علي بن أبي طالب	الفلس صنم طيء وفي كتاب الأصنام الفلس بفتح الفاء	عدي بن حاتم الطائي	محلة آل حاتم الطائي بأرض طيء على جبلهم: أجا	ربيع الآخر السنة التاسعة	هدم الفلس وعاد بالسبي والنعم والشاء
عكاشة بن محصن الأسدي	–	عكاشة بن محصن الأسدي	عذرة وبلي	رئيس القبيلة	الجناب أرض عذرة وبلي	ربيع الآخر السنة التاسعة	التفاصيل غير متيسرة عن هذه السرية ويبدو إنها سرية من سرايا الدعوة.
خالد بن الوليد	–	خالد بن الوليد	بنو عبد المدان	رئيس القبيلة	نجران	ربيع الأول السنة العاشرة	التفاصيل غير متيسرة عن هذه السرية ويبدو إنها سرية من سرايا الدعوة.
وعلي بن أبي طالب	ثلاثمائة فارس	علي بن أبي طالب	مذحج	رئيس القبيلة	اليمن (بلاد مذحج)	رمضان السنة العاشرة	قاتلهم فانتصر عليهم وغنم منهم النعم والشاء وأسر الأسرى، ثم أعلنوا اسلامهم.

أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي	ثلاثة آلاف مجاهد بين راكب وراجل	أسامة بن زيد (حب رسول الله وابن حبه)	الروم وحلفاؤهم من قضاعة	رئيس قضاعة	بني وهي أرض السراة ناحية البلقاء	صفر سنة احدى عشرة	١) أمر النبي بانفاد بعث أسامة في صفر ٢) تحرك أسامه بجيشه إلى هدفه في ربيع الآخر بعد وفاة النبي ﷺ وتولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة ٣) شن أسامة غارة سريعة فانتصر، فعاد أدراجه الى المدينة المنورة ٤) أثرت هذه السرية في الروم وحلفائهم تاثيراً بالغا مما مهد للفتح الإسلامي القريب.

محتويات البحث

الخرائط والمخططات

الجانب العسكري

من

حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

للواء الركن محمد جمال الدين علي محفوظ

« مصر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

لقد سبقت حكمة الله ان تكون الأمة الاسلامية قوية الشوكة مرهوبة الجانب ففرض عليها الجهاد وأمرها باعداد القوة التي ترهب الاعداء ووجهها الى المبادىء الاسلامية لتنظيم شئون الحرب للدفاع عن الدين ورد العدوان.

وعلى هذه الأسس قامت أول مدرسة عسكرية اسلامية شاملة، وتكون أول جيش في تاريخ الإسلام والمسلمين.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول، كما كان قائد ذلك الجيش ومعلمه الأول، فهو المثل الكامل والقدوة المثلى، كما يقول الله تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» (الاحزاب ٢١)، وكما خاطبه بقوله: «وإنك لعلى خلق عظيم» (القلم ٤)، وقد وصعه الله تحت حراسته ورعايته حتى حدَّث هو عن نفسه فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

فلا عجب اذن ان يظهر النبي صلى الله عليه وسلم في الأمور الحربية ما يثير الاعجاب والتقدير من عبقرية فذة

في القيادة والتخطيط وادارة العمليات الحربية، ولا عجب ايضا ان يكون جيش الاسلام الذي تعلم في المدرسة العسكرية الاسلامية وطبق نظرياتها وتعاليمها في ميادين القتال تحت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم، مضرب الأمثال في الكفاية القتالية والشجاعة والعبقرية الحربية.

وتاريخ معارك الاسلام في عصر النبوة يشهد للمسلمين بقدرتهم وكفاءتهم العالية في القيام بجميع اشكال العمليات العسكرية مثل: الدفاع والهجوم والمطاردة والتخلص من المعركة وميزة الاقتراب والاغارات وأعمال الاستطلاع والمخابرات والحرب النفسية ودوريات القتال والهجوم على القرى والمواقع الحصينة واعمال الحصار وغيرها... وقيام المسلمين بهذه العمليات المتنوعة دليل على كفايتهم وكفاية تدريبهم عليها. يقول كلاوزفتز: «يمكن للقوات العسكرية المدربة جيدا أن تقوم بجميع الاعمال العسكرية»

وسوف نعرض بقدر ما يتسع المقام لبعض الجوانب العسكرية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أولا - عقيدة الجهاد:

يعرف العسكريون أن العقيدة العسكرية هي السياسة

المرسومة التي تعبر عن وجهات النظر الرسمية للدولة فيما يتصل بالقواعد الاساسية للصراع المسلح وما يتعلق بطبيعة الحرب وغاياتها وطرق ادارتها واعداد البلاد والقوات المسلحة لها.

والعقيدة العسكرية في الاسلام تتبلور في عقيدة الجهاد في سبيل الله ونجد ذلك في القرآن والسنة كما يلي:

قال تعالى:

« وجاهدوافي الله حق جهاده هو اجتباكم » الحج ٧٨).

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله. فَيَقْتلون وَيُقْتَلون وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (التوبة ١١١)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

« جاهدوا المشركين بأموالكم وانفسكم وألسنتكم ».

« اِلجهاد ماض الى يوم القيامة ».

سئل الرسول: أَي الناس أفضل؟ قال: « مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ».

هدف الجهاد في سبيل الله:

وتتميز عقيدة الجهاد بوضوح الهدف.. وهو «سبيل الله» و «اعلاء كلمة الله» وهو هدف يسع كل القيم الانسانية السامية كالدفاع عن الوطن وعن العرض والكرامة والحق والعدل والسلام.. أما العدوان والاغتصاب فليست من اهداف الجهاد الاسلامي يقول الله تعالى:

«وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين».البقرة ١٩٠)

«وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم». (الانفال ٦١)

ثانيا: استراتيجية الردع:

يقول الله تعالى: «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم، لا تعلمونهم الله يعلمهم». (الانفال ٦٠)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (متفق عليه) ويستخلص من ذلك ان النظرية الاستراتيجية للحرب في الاسلام هي «الردع» من خلال اعداد «القوة الرادعة».

وهذا ما يفهم من لفظ « ترهبون » فالاسلام قيَّد الأمر باعداد القوة والمرابطة بمهمة ارهاب الأعداء واخافتهم من عاقبة العدوان على بلاد الأمة.

ويفهم أيضا من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « نصرت بالرعب مسيرة شهر » أن اظهار القوة للاعداء واخافتهم يحقق النصر عليهم ويؤدي الى تحقيق الأهداف اكثر من أية وسيلة اخرى من وسائل مواجهة الاعداء

وتدل احصائيات معارك عصر النبي على تطبيق نظرية الردع فمن بين ثمان وعشرين غزوة قادها النبي صلى الله عليه وسلم ضد المشركين واليهود، نشب القتال في تسع منها فقط هي (بدر - احد - الخندق - بني قريظة - بني المصطلق - خيبر - فتح مكة - حنين - الطائف). بينما فر الاعداء في تسع عشرة غزوة منها بدون قتال.

والمدهش ان نظرية الردع التي هي اول نظرية حربية في الاسلام منذ اربعة عشر قرنا تعتبر في القرن العشرين مفتاح الاستراتيجية المعاصرة، وقد وصل اليها الفكر العسكري العالمي بعد معاناة قاسية وطويلة في حروب طاحنة اكتوى العالم بنارها.. وذلك مما يعبر الجنرال اندريه

بوفر بقوله: «ان رجل القرن العشرين الذي تلاحقه مآسي الحربين العالميتين ١٩١٤ - ١٩١٨، ١٩٣٩ - ١٩٤٥، هذا الرجل المسلح بكل وسائل العلم الحديث ربما وجد أخيرا الوسيلة لمنع وقوع مثل هذه المآسي، وهي استراتيجية الردع»

ولابد لنا من التأكيد على ماتتميز به استراتيجية الردع الاسلامي من نوايا سامية، فالمعروف ان نظرية الردع المعاصرة ظهرت وارتبطت «بالتوازن النووي»، فطالما هناك توازن بين القوتين العظميين في القوى النووية فان احتمال قيام الحرب بينهما يكون بعيدا جدا بسبب قدرة كل جانب على الرد والانتقام اذا ما وجهت اليه الضربة المدمرة أولا.

لكننا لو تصورنا أن احدى القوتين تمكنت من احراز تفوق ساحق على الأخرى بحيث يختل التوازن - وهذا أمر وارد تماما - فالمتوقع ان تندلع الحرب النووية فورا بالنظر الى ما يسود العلاقات الدولية من توتر وتناقضات في المصالح.

اما الأمة الاسلامية فانها اذا تملكت القوة المتفوقة على اعدائها حتى يصبح ميزان القوى في صالحها فان ذلك لا

يغريها باستخدام تلك القوة ضدهم ماداموا ممتنعين عن العدوان عليها، أي ان الأمة الاسلامية «لا تتعدى حدود الردع» ما دام يحقق هدفه وهو اخافة العدو ومنعه من استخدام القوة.

ذلك أمر بديهي لأن العدوان ليس غاية من غايات الحرب في الاسلام، ولأن القصد من اعداد القوة في الاسلام هو ارهاب العدو ليمتنع عن استخدام القوة.

ثالثا: التأهب والاستعداد القتالي:

عني الاسلام اشد العناية باتخاذ الحيطة والحذر لحرمان العدو من المفاجأة ووقاية المسلمين من آثارها المدمرة، يقول الله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم» النساء ٧١) ويقول أيضا: «واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا» (المائدة ٩٢).

ولعل ابلغ ما يؤكد اهتمام الاسلام بالحذر ما جاء في القرآن بشأن الصلاة في الحرب: «واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فَلْتَقُمْ طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم، فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا

فَلْيُصلّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وَدَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » (النساء ١٠٢).

وهكذا أمر بأن تصلي طائفة مع الرسول وأسلحتها معها، وجعل الطائفة الاخرى للحراسة حتى اذا فرغت الطائفة الاولى اتخذ كل من الفريقين حالة الآخر.

نستخلص مما تقدم ما يلي: -

ان الاسلام يعد الحذر أمرا بالغ الحيوية لمصلحة الاسلام والمسلمين، ولا يرضى بالتواكل ابدا وهل هناك ما هو أدل على ذلك من انه يأمر المسلمين بالحذر والحيطة والاستعداد في الصلاة التي يؤدونها لله ويكونون فيها بين يديه؟

ان الاسلام يفتح عيون المسلمين على الخطر المحدق بهم من اعدائهم المتربصين الذين ينتظرون لحظة الغفلة منهم « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم.. » كما يجسد عواقب تلك الغفلة والاضرار البالغة التي يتعرض لها المسلمون بسببها « فيميلون عليكم ميلة واحدة ».

ان الاسلام يحذر من الاستهانة بالعدو فهي تؤدي الى اهمال الحذر فتتعرض الامة للهلاك

ان الاسلام يحذر من الاغترار بالقوة، فهي كالاستهانة بالعدو تؤدي الى اهمال الحذر، ولقد كان ما حدث للمسلمين في غزوة حنين من هزيمة بسبب اغترارهم بقوتهم حين قال قائلهم: «لن نغلب اليوم من قلة».

القوة والمرابطة:

وللمرابطة وزن كبير وشأن خطير في تقدير الاسلام.. ففي الآية الكريمة «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» خص الله تعالى (رباط الخيل) بالذكر، مع انها داخلة فيما قبلها (من قوة)، وهذا دليل على أهمية المرابطة من جهة، وتأكيد لما بينها وبين القوة من ارتباط وثيق بحيث لا تستغني احداهما عن الاخرى من جهة اخرى:

فالقوة: في حاجة الى المرابطة باليقظة والحراسة والانذار المبكر، وهي بدون ذلك تفقد فاعليتها وقيمتها اذا تمكن العدو من تحقيق المباغتة.

والمرابطة: في حاجة الى القوة التي تحمي ظهرها وتساندها وتدعمها.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الرباط:

« رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها »
(اخرجه الشيخان)

« عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله » (رواه الترمذي).

« من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له مثل أجر من خلفه ممن صام وصلى » (رواه الطبراني عن أنس بن مالك).

درجة الاستعداد القصوى:

ويقرر الاسلام الطريق العملي الذي يحرم العدو من مباغتة المسلمين، وهو أن تكون لدى المسلمين قوات متأهبة على اقصى درجات التأهب والاستعداد للحركة والانطلاق نحو الخطر بمجرد الاشارة، وذلك ما يفهم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة (أي صيحة خطر) طار اليها » وفي رواية اخرى:

« من خير معايش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه (اي ظهره) كلما سمع هيعة او فزعة (اي الخوف) طار عليه يبغي القتل او الموت »

ويدل الحديث على معنى الاستعداد الكامل والمستمر للانطلاق بمجرد الاشارة، فالفارس الممسك بعنان فرسه » لن يكون بحاجة اذا رأى خطرا أو جاءته الاشارة الى الاتيان بأي تصرف ولا حتى مد يديه الى عنان فرسه ليمسك بها لانه ممسك بها فعلا، اي ان كل ما سوف يفعله هو الانطلاق الذي اختار له الحديث لفظة (طار) وهي اسرع اشكال الحركة على الاطلاق (..)

ولقد قدم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم مثلا بنفسه على درجة الاستعداد القصوى: عن أنس رضي الله عنه قال: «كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، لقد فزع اهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم الى الصوت، واستبرأ الخبر، على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ، والسيف في عنقه وهو يقول: «لن تراعوا» (رواه الشيخان).

رابعا: التطوير وملاحقة العصر:

يقول ابن سعد في طبقاته عن وفد ثقيف عندما جاءوا مسلمين:

« لم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة حصار الطائف. كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات، فقدما وقد انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطائف، فنصبا المنجنيق والعرادات والدبابات واستعدا للقتال.. ثم القى الله في قلب عروة الاسلام »

وكانت الاستراتيجية العسكرية لكل من فارس وبيزنطة عند ظهور الاسلام تقوم على أساس أن الفرسان تشكل القوة الضاربة الرئيسية في جيوشها، ولم يكن ذلك هو الحال في جيش الاسلام في أول تكوينه ففي بدر مثلا كانت قوة المسلمين (٣٠٥) رجال وكان معهم فرسان فقط.. لكن مما يدل على حرص الرسول القائد صلى الله عليه وسلم على ملاحقة عصره عنايته الفائقة بتدريب المسلمين على ركوب الخيل وعلى فنون الحرب بها وعلى اقتنائها، وهناك أحاديث عديدة يحث فيها صلوات الله وسلامه عليه المسلمين على ذلك:

« الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة، الأجر والغنيمة ».

« عاتبوا الخيل فانها تعتب » (أي أدبوها وروضوها للحرب والركوب فانها تتأدب وتقبل العتاب)

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» (اخرجه البخاري).

كما رغب عليه الصلاة والسلام في اقتناء الخيل والعناية بها، فجعل للفارس عند توزيع الغنائم سهمين، وجعل للراجل سهما واحدا، وذلك لكي يستعين الفارس بالسهم الزائد على اعاشة فرسه واعدادها للحرب.

وكان من أثر ذلك أن كان بعض الفرسان الاشداء يخرج للقتال بفرسين يحارب عليهما ويأخذ اسهمهما كما فعل الزبير بن العوام في غزوة حنين وفي حروب الشام المختلفة

وهكذا قفزت نسبة الفرسان الى مجموع جيش المسلمين من شيء يكاد لا يذكر في اول معركة (اقل من واحد بالمائة في بدر) الى نسبة الثلث في آخر معارك عصر النبوة وهي تبوك؛ اذ كانت قوة المسلمين ثلاثين الفا بلغت قوة الفرسان فيها عشرة آلاف.. وقد حدث هذا التطور في اقل من سبع سنوات.

ولقد حافظ المسلمون على تطبيق قاعدة التطوير في المجال الحربي حتى شهد لهم الامبراطور البيزنطي (ليو) رغم ما عرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين - فقد نقل عنه فون كريمر في كتابه (الشرق تحت حكم الخلفاء) انه قال: «ان الجندي العربي ما كان يفترق عن الجندي البيزنطي في المؤن والسلاح».

ثم ان ما سجله التاريخ بعد ذلك من انتصار الجيوش الاسلامية على جيوش فارس وبيزنطة يعد انتصار للاستراتيجية العسكرية الاسلامية على استراتيجية كلا الدولتين العظميين، لأن الحرب - كما هو معروف - هي المحك وهي مجال الاختبار الحقيقي للاستراتيجية العسكرية وللكفاية الحربية فان دل ذلك على شيء فهو يدل على ان الاستراتيجية الاسلامية لم تكن على مستوى عصرها فحسب بل انها تميزت على الاستراتيجيات المعاصرة في كثير من النواحي.

خامسا: صفات القيادة:

ولقد اجتمعت لدى الرسول القائد اكمل صفات القيادة التي تجعله قدوة القادة في كل زمان، والمعروف في العلم

العسكري ان هناك صفات معينة يجب ان تتوفر في القائد حتى يستطيع اداء مهمته بكفاية ومقدرة، وان يرفع معنويات رجاله وان ينجح في توجيههم نحو الهدف المحدد وفي تحقيقه على اكمل وجه.. وقد استخلص الباحثون هذه الصفات من دراسة وتحليل حياة القادة العسكريين البارزين، لكن الامر الجدير بالذكر والتنويه ان تلك الصفات جميعا لم تجتمع - بطبيعة الحال - لدى احد من القادة بمفرده وانما هي مجموعة من الصفات التي اتسم بها عدد كبير من القادة، يختلف كل منهم عن الآخر فيما لديه منها من حيث الكمية والنوع والقوة والضعف.

والباحث المدقق يجد ان كل تلك الصفات - بل وصفات اخرى غيرها - قد اجتمعت في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا غرو، فهو المثل الكامل:

١ - الصبر وقوة الاحتمال والثبات على المبدأ:

لقد اوذي الرسول عليه الصلاة والسلام في الله في نفسه واصحابه، فلم يلحقه جزع، بل كان شجاعا حكيما وصبورا كريما، فكم ناله من اذى المستهزئين وكيد المنافقين فما لَجَّ بالشكوى بل كان دأبه الصبر مع التفويض لله تعالى حتى

جعل له من امره فرجا. وكان يقابل الأَذى بالصبر الجميل، ويعامل اعداءه بالمداراة ويتألفهم بحسن المصانعة فكان يقابل الحمق والخرق بالحلم والرفق، والصلف واللجاج بالوداعة والأَناة، وحسبنا ان نلقي طرفا على تاريخ الدعوة الاسلامية لنعرف كيف كان النبي مثالا في الثبات على المبدأ وهي فضيلة كبيرة في القائد.

انظر كيف لبث ثلاث سنين يدعو الى الاسلام اقواما جفاة لا دين لهم الا عبادة الأصنام وحجتهم انهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم، وأَخيرا لم يسلم الا ثلاثة عشر رجلا فأي نجاح هذا؟ لاشك انه غير مشجع، ولكنه ظل ثابتا على مبدئه مستمرا في دعوته بكل عزم وإرادة، ثم انظر اليه وهو يقول لعمه وهو يحاول اقناعه بالرجوع في دعوته عن قريش وترك الدعوة: (والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن اترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته)، ثم انظر كيف تحمَّل (عليه السلام) مسئولية ثمان وعشرين غزوة وعشرات من السرايا، وصراعات اقتصادية واجتماعية وسياسية على الصعيد المحلي والعالمي ومجتمع جديد يتكون بكل جوانبه ومشكلاته ومتناقضاته وتصاعد

احداثه، ومقابلته لقضايا الحياة اليومية من توفير للأقوات الى قضاياه الكبرى المصيرية.

٢ - **الشجاعة والنجدة:**

قال ابن عمر: «ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم..»

لقد فزع اهل المدينة ذات ليلة اذ سمعوا صوتا قويا غير عادي. فانطلق بعض الناس نحو الصوت، فتلقاهم رسول الله راجعا وقد سبقهم الى الصوت وعرف الخبر، وكان راكبا فرسا عاريا والسيف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا؛ وهكذا كان اسبق القوم الى النجدة، واسمى مثل على الاستعداد والتأهب واليقظة. أما في الحرب فقد برزت شجاعة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بصورة ليس لها مثيل في التاريخ.

(١) فقد قاد بنفسه ثمان وعشرين غزوة انطوت على كل صور العمليات الحربية من دفاع وهجوم ومطاردة وحصار، وقيام القائد بتولي القيادة بنفسه شجاعة لا تؤثر ان تتوارى حيث يتاح لها ان تتوارى.

(٢) لم يكتف بالقيادة، بل كان يشترك في القتال بنفسه

وخاصة في المواقف الصعبة والحرجة من المعركة، وفي ذلك يقول علي بن ابي طالب رضي الله عنه: «كنا اذا اشتد الخطب واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون احد اقرب الى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو اقربنا الى العدو؛ وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «والله كنا اذا حمي الوطيس نتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الشجاع الذي يحاذي به».

(٣) وفي غزوة حنين لما ولى المسلمون، طفق الرسول يركض ببغلته نحو الكفار، قال العباس: وانا آخذ بلجامها أكفّها الا تسرع، وكان صلى الله عليه وسلم يركض ببغلته الى العدو وينوه باسمه فيقول: «انا النبي لاكذب، انا ابن عبد المطلب». ولو لم يثبت الرسول عليه السلام مع عشرة فقط من اصحابه في تلك الغزوة لاستطاعت هوازن وثقيف أن تبيد المسلمين.

ان سجل الغزوات حافل بالمواقف التي يتصدع منها قلب أشجع الشجعان ومع ذلك فقد ثبت الرسول

صلى الله عليه وسلم فيها غيرمكترثٍ بما يحدق به من أخطار.

٣ - التوازن النفسي:

ان الحرب معاناة قاسية وشرسة تتطلب قدرا كبيرا من التوازن النفسي الذي يمكن المقاتل من السيطرة على اعصابه في المواقف الشديدة كالهزيمة مثلا حتى لا تتعرض معنوياته للانهيار، كما يمكنه من السيطرة على اعصابه ايضا عند احراز النصر على العدو حتى لا يغفل عن واجب الحذر مثلا، او حتى لا يطغيه الفرح ويغريه بالخروج عن اداب الحرب او اخلاقياتها.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة عليا في التوازن النفسي وحفلت سيرته بصور اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة من التحكم في الاعصاب في أشد المواقف حرجا في السلم والحرب معا:

(١) فلم يكن سهلا السيطرة على الاعصاب عند تطويق المشركين له، ولبعض اصحابه في غزوة أحد من كل جانب، ومع ذلك احتفظ بتوازنه وكافح مع اصحابه حتى استطاع أن يخلص المسلمين من فناء أكيد.

(٢) ولم يكن سهلا السيطرة على الاعصاب يوم الخندق عندما علم بغدر اليهود ونقضهم للعهد، فأصبح الخطر يهدد قوات المسلمين من خارج المدينة (بعشرة الاف من الاحزاب) ومن داخلها باليهود، ومع ذلك سيطر على اعصابه فصد الاحزاب وقضى على اليهود.

(٣) ولم يكن سهلا السيطرة على الاعصاب يوم حنين عند انهزام المسلمين، لكنه ثبت مع عشرة فقط، تجاة التيار الجارف من مطاردة المشركين واحتفظ بتوازنه النفسي حتى هزم اعداءه. فعاد أصحابه ليروا أسرى المشركين مكبلين بالأَصفاد.

(٤) تلك أَمثلة من توازنه النفسي في وقت الشدة، أما في وقت الرخاء فأروع ما يذكر من أمثلة ما كان يوم فتح مكة وحصوله على نصر ساحق على قريش التي ناصبته العداء اكثر من عشرين عاما؛ لكنه سيطر على اعصابه ولم يظهر منه أي موقف من مواقف العظمة والجبروت التي اظهرها غيره من القادة عند انتصارهم، فلم يرفع مثلا شعار المنتصرين في الحرب العظمى الاولى «ويل للمغلوب» بل كانت قولته المشهورة لقريش: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

٤ - العدل وعدم الاستعلاء

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعدل صفوف المسلمين في غزوة بدر فوجد رجلا اسمه «سواد» خارجا عن الصف، فطعنه بعصا خشبية كانت في يده وقال: «استو ياسواد» (اي لكي يستوي في الصف) فقال الرجل: «يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالعدل والحق فاقدني (اي مكني من القصاص من نفسك)، فكشف النبي عن بطنه وقال: «استقد»، (اي خذ القصاص) فتأثر الرجل، وقبل بطنه الشريف...

وكان عليه الصلاة والسلام يكره أن يميز نفسه أو يميزه اصحابه بشيء، حدث انه كان يطوف بالبيت فقال: اسقوني، فقالوا: ان هذا الماء يخوضه الناس، ولكننا نأتيك بماء من البيت. فقال: لا حاجة لي فيه اسقوني مما يشرب منه الناس.

وعند بناء المسجد في المدينة حمل النبي الحجارة والتراب والجريد واللبن كأي فرد من المسلمين، وكان عليه الصلاة والسلام في سفر وتهيأ اصحابه لاعداد الطعام وتقاسموا العمل فيما بينهم فقال: «وعليَّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله إنا نكفيك هذا فقال الرسول: «علمت

أنكم تكفونني اياه، ولكن اكره أن اتميز عليكم، وأن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه».

وفي مسير الاقتراب الى بدر قسم الرسول عليه السلام الابل المتيسرة وعددها سبعون بعيرا بين اصحابه وكان من نصيبه مع علي بن ابي طالب ومرثد بن ابي مرثد الغنوي يعتقبونه (اي يتناوبون ركوبه) تماما كما يفعل اي فرد من افراد قواته.

وفي غزوة الخندق، حفر بيده الشريفة،.وحمل الاحجار والأتربة على عاتقه، قال البراء بن عازب: «كان رسول الله ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه».

٥ - قوة الشخصية:

ارسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي لمفاوضة الرسول عليه السلام في الحديبية، فعاد الى قريش يقول: «يا معشر قريش، اني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، واني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد: لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه ولا يسقط من شعره شيء الا اخذوه وانهم لن يسلموه لشيء ابدا»... بهذا الوصف الرائع يصف مشرك من اعداء الرسول شخصية

النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.. إن أهم أسباب هذه الشخصية القوية النافذة التي كان يتحلى بها عليه السلام محبته للناس جميعا ورغبته الشديدة في خيرهم وهدايتهم، بالإضافة الى خلقه العظيم، لقد كان عليه السلام متواضعاً حليما رؤوفا رحيما، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يرد له امرا او يتردد في تنفيذه.

ومن الأقوال المشهورة لتشرشل: «ان شخصية القائد في نظري هي كل شيء في الحرب، هي الروح التي تحارب بها الجنود، وهي السلاح الذي يضربون به، وهي المنبع الذي يستمدون منه قوتهم وايجابيتهم بالنصر».

سادسا: اعداد القادة العسكريين:

بلغ عدد القادة الفاتحين الذين حملوا رايات الاسلام شرقا وغربا في ايام الفتح الاسلامي العظيم (١١ هـ - ٩٤ هـ) ستة وخمسين ومائتي قائد (٢٥٦) منهم ستة عشر ومائتا قائد (٢١٦) من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، واربعون قائدا من التابعين لهم باحسان رضوان الله عليهم.

من اجل ذلك فان النظرية الاسلامية لاعداد القادة والتي طبقها النبي صلى الله عليه وسلم وجرت عليها سنته

تستحق ان نقف عندها بكل التقدير والاجلال، فهي تشتمل على عدة أسس هي: -

١ - اكتساب القائد لصفات المقاتل:

ان بناء المقاتل أساس لبناء القائد، تلك إحدى حقائق العلم العسكري، فلا يقود المقاتلين الا مقاتل.

وقد قررت النظرية الاسلامية لاعداد القادة هذا المبدأ، ويعتبر منهج الاسلام في «بناء المقاتل» خير المناهج التي تكفل ان تجتمع للفرد المسلم كل السجايا والفضائل الحربية التي تجعله مقاتلا لا يقهر، كالشجاعة وقوة التحمل والخشونة والحزم والصراحة والغيرة على الشرف. والنجدة والنخوة والانضباط والطاعة والنظام وتقدير المسئولية والايمان بالحق والقتال عن عقيدة، كما يكفل منهج الاسلام ايضا تدريب المقاتل عمليا على القتال واساليبه.

٢ - التحلي بصفات القيادة:

ويوجه الاسلام القادة الى التحلي بصفات القيادة، وكان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم القدوة المثلى للمسلمين في هذا المجال.

فالمعروف ان هناك صفات معينة يلزم توافرها في

القائد حتى يستطيع اداء مهمته بكفاءة، وان يرفع معنويات رجاله، وأن ينجح في قيادتهم نحو الهدف المحدد وأن ينجح كذلك في تحقيق هذا الهدف على اكمل وجه.

ولقد قام الباحثون بدراسة حياة القادة العسكريين وتحليلها لاستخلاص هذه الصفات، فوصلوا الى عدد كبير منها مثلاً: قوة الشخصية - حسن المظهر - اليقظة - الشجاعة - الحسم - الثقة - قوة التحمل - الحماس - قوة التأثير - التواضع - الروح المرحة - القدرة على التصرف - النزاهة - الذكاء - الحكمة - العدل - الولاء - المشاركة الوجدانية - انكار الذات - اجادة التعبير - والخطابة.

وليس من المعقول ان تجتمع صفات القائد الناجح لشخص واحد، وانما عادة ما يفتقد القائد بعضها وقد لاحظ الباحثون أن النقص او الضعف في بعض الصفات تعوضه دائما قوة في البعض الآخر.

فاذا كانت صفات القيادة التي استخلصها الباحثون هي مجموعة من مزايا شخصيات عديدة برزت في مجال القيادة فان هذه الصفات بل وصفات اخرى غيرها قد

اجتمعت في رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو المثل الكامل الذي يقول الله تعالى فيه: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) - الاحزاب - ٢١.

وهكذا كان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم هو القدوة والمعلم في كمال الأخلاق وكمال العقل وحسن السياسة واحترام النفس والتواضع والصبر وقوة الاحتمال والثبات على المبدأ والوفاء والشجاعة والنجدة واللياقة البدنية وحسن العشرة والثقة المتبادلة وروح الدعابة والمحبة المتبادلة والتوازن النفسي وبعد النظر وقوة الشخصية.. الخ.

٣ - المشاركة في التخطيط للمعارك:

من أهم ما يفيد في إعداد قادة المستقبل: اشتراكهم في التخطيط للمعارك، بالتفكير والمناقشة وبابداء الرأي ويدخل ذلك في نطاق مبدأ الشورى الذي أمر به الاسلام وطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم خير ما يكون التطبيق حتى قال عنه ابو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت احدا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ومن وجهة نظر العلم العسكري فان الشورى تحقق اهدافا بالغة الأهمية نذكر منها : -

أ) تدريب الافراد على فن التفكير واستخدام العقل والتعبير عن الرأي.

ب) تدريبهم على حل المشكلات بالطريقة العلمية، والطريقة العلمية هي المدخل الصحيح للوصول الى القرار السليم، على اساس من تحديد الاهداف بوضوح وتحليل وفحص المعلومات والمعطيات، واستعراض البدائل والحلول المختلفة للمشكلة موضع البحث، واختيار الحل أو البديل الأفضل،ثم اختبار هذا الحل وتقييمه، ومن خلال هذا التدريب يكتسب قادة المستقبل المعرفة والقدرة على اصدار القرارات السليمة في الوقت المناسب وهي من أهم مطالب القيادة الناجحة.

ج) تدريبهم على المبادأة والتصرف السليم في المواقف التي تواجههم دون الحاجة الى الرجوع الى القيادة وخاصة في المواقف المفاجئة او التي لا تحتمل الانتظار أو التأخير،وذلك لأن مشاركتهم في التخطيط تتيح لهم معرفة واسعة بنوايا القائد واهدافه واحاطة وافية

بجوانب الموضوع وابعاده، تمكنهم من اتخاذ القرار السليم في المواقف بهدي تفكيرهم وحده.

والأمثلة على تطبيق مبدأ الشورى في الاسلام اكثر من ان تحصى، ففي المجال العسكري استشار الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه في كافة غزواته عدا غزوة الحديبية لأنه كان يصر فيها على نواياه السلمية التي تؤمن الاستقرار الضروري لانتشار الاسلام، وكان يصدر في ذلك عن حكمة وبعد نظر وسياسة رشيدة ادركها اصحابه فيما بعد، حين رأوا ما حققه الصلح من خير للدعوة.

ففي غزوة بدر مثلا استشار النبي صلى الله عليه وسلم اصحابه في مبدأ دخولهم المعركة ضد قريش، واستقر الرأي على قبول المعركة، وعندما وصل جيش المسلمين الى مكان المعركة نزل الرسول على رأي الحباب بن المنذر، الذي أشار بأن ينتقل الجيش الى مكان آخر أفضل من الأول لأنه قريب من ماء بدر ويسيطر عليه.

وفي غزوة احد استشار النبي اصحابه في مبدأ البقاء في المدينة ولقاء قريش فيها أو لقائهم خارجها، فاستقر الرأي على الخروج، واستجاب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لهم: «لكم النصر ما صبرتم».

٤ - تولي القيادة الفعلية لعمليات القتال المحدودة:

مما لا شك فيه ان تولي القيادة الفعلية ومباشرة مسئولياتها، هو تتويج للجهود التي تستهدف اعداد القادة، اذا أن من مبادىء الاعداد والتدريب المعروفة الانتقال من المرحلة «النظرية» في الدراسة الى مرحلة «التطبيق العملي».

لكن الحكمة تقضي وبخاصة في المجال العسكري أن يكون هذا الانتقال تدريجيا من الاعمال البسيطة الى الاعمال الكبيرة، وان يكون ذلك كله تحت اشراف القائد المعلم وتوجيهه.

وهذا ما فعله الرسول القائد المعلم صلى الله عليه وسلم، فقد عهد الى اصحابه بالقيادة في اشكال متعددة من اعمال القتال المحدودة مثل دوريات الاستطلاع ودوريات القتال، والاغارات. ومن خصائص هذه العمليات أنها محدودة من حيث الاهداف والقوة التي تكلف بها، اذ تتراوح تلك القوة بين بضعة افراد وبضع مئات، وتعتبر مقدمة بالغة الاهمية لتولي مهام اكبر منها، فهي تفيد القائد - الى جانب اكتساب الخبرة القتالية - في دراسة الارض والطرق

ومصادر المياة واستطلاع احوال العدو والدخول معه في تجربة القتال الفعلي لسبر اغواره واختبار قوته وقدراته القتالية والتعرف على أساليبه في القتال.

ومن امثلة عمليات القتال المحدودة التي عهد الرسول الى الصحابة بقيادتها ما يلي: -

أ - دوريات الاستطلاع:

سرية عبد الله بن جحش وقوتها ١٢ رجلا في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة.

ب - دوريات القتال:

سرية حمزة - وقوامها ٣٠ رجلا بقيادة حمزة بن عبد المطلب في رمضان من السنة الاولى للهجرة.

سرية عبيدة بن الحارث - وقوامها ٦٠ رجلا بقيادته في شوال من السنة الأولى للهجرة

جـ - الاغارات:

سرية ابي سلمة - وقوامها ١٥٠ رجلا بقيادة ابي سلمة ابن عبد الاسد في ذي الحجة من السنة الثالثة من الهجرة

سرية عكاشة - وقوامها ٤٠ رجلاً بقيادة عكاشة بن محصن الاسدي في ربيع الاول من السنة السادسة للهجرة.

٥ - قيادة وحدات الجيش تحت القيادة العليا للرسول:

وهذه صورة اخرى من صور اعداد القادة، وفيها يتولون قيادة الوحدات التي يتألف منها جيش المسلمين تحت القيادة العليا للرسول عليه الصلاة والسلام وهذا الاسلوب يعود على القادة بعدة مزايا نذكر منها:

أ - مباشرة القيادة الفعلية تحت اشراف القائد المعلم الذي هو في نفس الوقت القائد العام للمعركة، ويتيح لهم ذلك الافادة من ملاحظاته وتوجيهاته.

ب - اتاحة الفرصة العملية لملاحظة اسلوب القائد المعلم في القيادة الحربية في نواحي التخطيط للمعركة وادارتها وتصرفه في مواقفها المختلفة، وهي فرصة ممتازة للتعلم (على الطبيعة) واكتساب الخبرة القتالية في نفس الوقت.

وقد اتاح الرسول القائد صلى الله عليه وسلم تلك الفرصة لأصحابه على أمثل وجه كما يتبين من التحليل التالي:

أ - بلغ مجموع اعمال القتال المختلفة التي دارت في عهد الرسول اكثر من ستين عملية، تولى الرسول بنفسه

قيادة ثمان وعشرين عملية منها .

ب - احتوت تلك العمليات التي قادها الرسول بنفسه على شتى صور واشكال العمليات العسكرية كما يتبين مما يلي : -

دوريات القتال والاغارات:

مثـــــــل غزوة الأبواء - غزوة بواط - غزوة العشيرة - غزوة بدر الاولى - غزوة بني سليم..الخ

المعارك الدفاعية:

مثـل غزوة بـدر الكبرى - غزوة احد - غزوة الخندق.

المعارك الهجومية:

مثل غزوة فتح مكة - غزوة حنين - غزوة تبوك.

عمليات الحصار:

مثل غزوة بني قريظة - حصار الطائف.

مهاجمة القرى والمواقع الحصينة والقتال في المدن:

مثل غزوة خيبر.

عمليات المطاردة:

مثل غزوة حمراء الاسد.

وهكذا قدم الرسول القائد المعلم لاصحابه القدوة

والمثـل في قيادة كافة اشكال الاعمال العسكرية، هذا بالاضافة الى انه عليه الصلاة والسلام كان يكلفهم بقيادة الوحدات التي يتألف منها الجيش تحت قيادته في المعركة كما ذكرنا، ومن أمثلة ذلك

فى غزوة بدر كان الجيش يتألف من كتيبتين: كتيبة المهاجرين يقودها علي بن ابي طالب، وكتيبة الانصار ويقودها سعد بن معاذ.

في غزوة الفتح كان الجيش يتألف من اربعة أرتال يقودها اربعة من القادة هم: الزبير بن العوام، وخالد ابن الوليد، وسعد بن عبادة، وابو عبيدة بن الجراح، ثم انه إذا ما راجعنا سجل الغزوات الثاني والعشرين التي قادها النبي بنفسه وامعنا النظر في «التوزيع الزمني والكمي» لهذه العمليات فسوف نخرج بالحقائق التالية: -

في السنة الثانية للهجرة:	عدد العمليات	٨
في السنة الثالثة للهجرة:	= =	٤
= = الرابعة = :	= =	٣
= = الخامسة = :	= =	٤
= = السادسة = :	= =	٣
= = السابعة = :	= =	٢

= = الثامنة = :   = =   ٤

الجموع   ٢٨

نستخلص من هذه الحقائق ما يلي : -

أ - ان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم حرص على مباشرة القيادة بنفسه طوال فترة الصراع وعلى امتدادها من السنة الثانية الى السنة الثامنة للهجرة ، وفي كل سنة من سنواتها بلا استثناء ، مع اتاحته الفرصة - في الوقت نفسه - لاصحابه لكي يتولوا قيادة غيرها من اعمال القتال .

ب - ان النبي قاد في السنة الثانية للهجرة - وهي بداية الصراع - اكبر عدد من قيادة القتال وهو ثماني غزوات بينما لم يزد متوسط عدد العمليات التي قادها في السنوات التالية عن ٣ - ٤ عمليات سنويا .

وهذا التركيز - في العام الاول للصراع المسلح - له دلالاته التي لا تفوت القائد المحنك الخبير بفن الحرب ، ويعد في نظر الاستراتيجية العسكرية من علامات القيادة الحربية الفذة ، كما يعتبر - في مجال اعداد القادة للمستقبل - درسا عمليا من اعظم الدروس التي يقدمها القائد المعلم :

فهو يتيح للقائد الاعلى - في بداية الصراع وقبل تصاعده - الفرصة لدراسة مسرح العمليات دراسة شخصية، ومن الناحية الطبوغرافية مثل طبيعة الارض واحوال الطرق والمسالك والدروب والهيئات الطبيعية وموارد المياه.. الخ

والديموجرافية مثل تركيب السكان وتوزيعهم ومظاهر الكثافة والتخلخل السكاني وغيرها مما يمكن القائد الاعلى من رسم استراتيجية شاملة لادارة الصراع من حيث الأهداف، وكذلك الفرصة لدراسة العدو عن طريق الاحتكاك المباشر، وتقييم كفاءته القتالية ماديا ومعنويا، ودراسة اساليبه في القتال واسلحته التي يُقاتِل بها واكتساب الخبرة القتالية.

هذه الدراسات الشخصية الشاملة، تمكن القائد من التخطيط السليم لجميع العمليات الحربية المقبلة في ضوء تصوره للصراع ومداه واتجاهاته.

ونتيجة لذلك تنمو لدى القائد ثقته في نفسه وفي كفاءته وقدراته، كما تنمو لدى سائر رجاله - في نفس الوقت - ثقتهم في انفسهم وفي قائدهم، فيواجهون تحديات الصراع المقبلة واثقين في النصر.

٦ - تولي مركز القيادة الثاني في المعركة:

ومن صور التدريب على القيادة أن يعين القائد في المركز التالي للقائد الاساسي وهذا يمنحه الفرصة لمباشرة القيادة اذا غاب القائد الأصلي عن المعركة لاصابته باستشهاده أو لأي سبب آخر.

وقد اتاح الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه لاصحابه الفرصة ايضا فكان حريصا على أن يعين مع القائد الذي يعقد له لواء القيادة قائدا ثانيا بل وثالثا في بعض الأحيان، ومن ذلك مثلا تعيين عمير بن هشام قائدا ثانيا مع علي بن ابي طالب قائد كتيبة المهاجرين في بدر، وتعيين جعفر بن ابي طالب. قائدا ثانيا ويليه عبد الله بن رواحة مع زيد بن حارثة الاصلي في غزوة مؤتة

٧ - تولي القيادة المستقلة للمعارك الكبيرة:

وتلك أرقى صور اعداد القادة، حيث يباشر مسئولية القيادة كاملة لاحدى المعارك الهامة، ويكون فيها مستقلا في ادارته للمعركة، يواجه المواقف وحده ويتخذ القرارات وحده دون الرجوع الى القائد الاعلى، ومن الطبيعي ان يكون كل ذلك ضمن الاطار العام للاستراتيجية العليا التي

قررها القائد الاعلى.

وقد اتاح الرسول القائد تلك الصور من صور الاعداد للقيادة في تعيينه لزيد بن حارثة الكلبي لقيادة الجيش في مؤتة، وفي تعيينه لأسامة بن زيد لقيادة جيش المسلمين لغزو الروم وهي البعثة التي انفذها ابو بكر رضي الله عنه فور توليه الخلافة.

سابعا: الحرب النفسية:

الجهاد باللسان: قال الرسول القائد عليه الصلاةوالسلام: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[1]

وقال عليه الصلاة والسلام لحسان بن ثابت- وكان من شعراء الاسلام-: «ياحسان اهج المشركين وجبريل معك، اذا حارب اصحابي بالسلاح فحارب أنت باللسان»[2]

وقال ايضا: «ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»

وقال ايضا: «ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل»[3]. (نضح النبل يعني بالسهام).

---

(١) تيسير الوصول ١/ ٢٢٨

(٢) كنز العمال ٢/ ١١٨

(٣) المرجع السابق ٢/ ١١٧

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعبدالله بن رواحة:
« بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: خل عنه يا عمر، فلهي - يعني القصيدة - أَسْرَعُ فيهم من نضح النبل »

وفي رواية: خل عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل »[1]

وتدل هذه الاحاديث على وجوب الجهاد بالنفس والمال واللسان:

(أ) الجهاد بالنفس: وهو القتال المباشر.

(ب) الجهاد بالمال: وهو بذل المال في اتمام ما يحتاج اليه في الجهاد كالسلاح ونحوه وهذا ما يستفاد من آيات الجهاد الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم).

(ج) الجهاد باللسان: باقامة الحجة على الاعداء، ودعائهم الى الله تعالى، ورفع الأصوات عند اللقاء، وبزجرهم على الأعداء، ودعائهم الى الله تعالى، ورفع الأصوات عند اللقاء، وبزجرهم ترويعا لهم ونحو ذلك من كل

---

(١) المرجع السابق ١١٨/٢

ما فيه نكاية للعدو قال تعالى:

(ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح) - التوبة ١٢٠ -. وتدل الأحاديث ايضا على ان الجهاد باللسان لا يقل أهمية ولا أثرا عن الجهاد بالنفس والمال، بل قد يكون اشد اثرا على الاعداءِ من القتال.

نستلخص من ذلك المبادىء الاساسية الآتية:

(أ) الجهاد باللسان واحد من اساليب جهاد الاعداء

(ب) الجهاد باللسان واجب وجوب الجهاد بالنفس والمال.

(جـ) الجهاد باللسان قد يكون اسرع واشد تأثيرا على الاعداء من القتال.

اللسان سلاح معنوي شديد التأثير:

والواقع ان العلم العسكري وخبرة الحروب يجمعان على أن الحرب النفسية سلاح فعال وشديد التأثير في المعركة، ويسهم مساهمة كبيرة مع اعمال القتال وغيرها من اساليب الصراع في تحقيق الانتصار بسرعة وبأقل الخسائر في الأرواح والمعدات..

والحرب النفسية اخطر انواع الحروب لأنها تستهدف في

المقاتل عقله وتفكيره وقلبه، لكي تحطم روحه المعنوية وتقضي على ارادة القتال فيه، وتقوده بالتالي نحو الهزيمة.

ومن هنا جاءت خطورة سلاح الحرب النفسية الذي اصبح في العصر الحديث يحتل مكان الصدارة بين اسلحة الحروب، والذي يؤمن العسكريون بأنه قد يكون اشد اثرا من الاسلحة الاخرى في تحقيق هدف النصر بسرعة وبأقل الخسائر، وهذا هو ما عبر عنه قول الرسول القائد عليه الصلاة والسلام: «خل عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده لكلامه اشد عليهم من وقع النبل».

وقول الجنرال ديجول: «لكي تنتصر دولة في حرب عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها الى ميادين القتال، وتظل هذه الحرب تساند هذه القوات حتى تنتهي من مهتها».

ويقول تشرشل: «كثيرا ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ».

ونذكر فيما يلي بعض الامثلة من صور الحرب النفسية واشكالها التي زخرت بها معارك الاسلام في عصر النبوة:

١ - الشعارات والهتافات:

اتخذ المسلمون الشعارات والهتافات لتحقيق عدة

اهداف منها التعارف فيما بينهم اثناء الالتحام بالاعداء او في الظلام، ومنها اثارة انفعالات الشجاعة والحماسة في نفوسهم مع ترويع العدو وبث الرهبة والخوف في قلبه، ومن امثلة صيحات القتال التي استخدمها المسلمون في عصر النبوة: «أَحدٌ، احد في غزوة بدر، و «أَمِتْ أمت » في غزوة احد، ومنها ايضا: «يا خيل الله اركبي » في غزوة « ذي قرد »، هذا الى جانب التكبير الذي كان شعار كل مسلم « الله أكبر ».

وما تزال كل الجيوش في هذا العصر تتخذ لرجالها صيحات للقتال تحمسهم وتحفزهم الى الاقدام والاستبسال في المعركة، وهي تستند في هذا على ادراكها للعوامل النفسية وأثرها على ارادة القتال.

٢ - التفريق بين العدو وحلفائه:

في غزوة الخندق تجمعت قوى قريش والقبائل الاخرى واليهود للقضاء على المسلمين،وحدث ان جاء نعيم بن مسعود الغطفاني (وكانت غطفان من القبائل التي انضمت الى قريش في التجمع المذكور) الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واخبره انه اسلم ولم يعلم قومه، وطلب منه ان يأمره بما يشاء

فقال له الرسول: «انما انت رجل واحد، فَخَذِّلْ عنا ما استطعت، فان الحرب خدعة».

فقام نعيم بهذه المهمة باسلوب بارع حاذق بحيث حققت مهمته هدفها في الوقيعة بين المتحالفين وفي ازالة الثقة فيما بينهم.

فقد ذهب نعيم الى يهود بني قريظة - وكان لهم نديما في الجاهلية - فقال لهم: «قد عرفتم ودي اياكم، وقد ظاهرتم قريشا وغطفان على حرب محمد، وليسوا كأنتم، البلد بلدكم به اموالكم وابناؤكم ونساؤكم لا تقدرون ان تتخلوا منه، وان قريشا وغطفان ان رأوا نهزة (اي فرصة) وغنيمة اصابوها، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنا (رهائن) من أشرافهم حتى تناجزوا محمدا».

قالت بنو قريظة: اشرت بالنصح ولست عندنا بمتهم..

ثم خرج نعيم الى قريش فقال لهم: «بلغني ان قريظة ندموا، وقد ارسلوا الى محمد: هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب اعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم، فأجابهم أن نعم.

فان طلبت قريظة منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا لهم رجلا واحدا..» وجاء نعيم غطفان فقال لهم: «انتم اهلي وعشيرتي» وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

ارسل أبو سفيان وسادة غطفان الى قريظة عِكرمة ابن ابي جهل في نفر من قريش وغطفان في ليلة سبت وطلبوا منهم الاستعداد للهجوم نهار السبت، ولكن قريظة اعتذروا بأنهم لا يقاتلون يوم السبت، ثم طلبت رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأي هجوم.

قالت قريش وغطفان: لقد صدق نعيم..

ولما رفض طلب قريظة باعطائها رهائن من قريش وغطفان قالت: لقد صدق نعيم.. وهكذا كانت دعوة نعيم البارعة سببا في تفريق جمع الاعداء.

٣ - تحييد القوى الاخرى وحرمان العدو من مخالفتها:

اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة سياسة تقوم على عقد الاتفاقات والمعاهدات مع مختلف القبائل لكفالة حرية الدعوة وحسن الجوار والمعاملة، وكانت النتيجة المباشرة لتلك المعاهدات حرمان قريش من قوى

كان يمكنها أن تتحالف معها وتشد أزرها في صراعها مع المسلمين.

٤ - زعزعة ثقة العدو في احراز النصر:

وتعتبر غزوة الفتح مثلا فذا في هذا المجال فلقد ادى التخطيط العبقري الذي وضعه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الذي اعتمد فيه الى أقصى حد على العوامل النفسية الى زعزعة ثقة قريش في امكان النصر على المسلمين، حتى لقد قال زعيمهم ابو سفيان لقومة: « يا معشر قريش: هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به..».

وقد حقق تخطيط رسول الله اهدافه بفتح مكة بلا قتال.

٥ - التخويف والضغط النفسي:

كتب ابو سفيان الى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: « نريد منك نصف نخل المدينة فان اجبتنا الى ذلك، وإلا ابشر بخراب الديار وقلع الآثار ».

تجاوبـــت القبائـــل من نزار
لنصر اللات في البيت الحرام

واقبلـــت الضراغم من قريش

عـــلى خيـــل مسومـــة ضرام

فأجابه الرسول بكتاب جاء فيه: «وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق وفهمت مقالتكم، فوالله ما لكم عندي جواب الا اطراف الرماح، واشفار الصفاح، فارجعوا ويلكم عن عبادة الاصنام، وابشروا بضرب الحسام وبفلق الهام، وخراب الديار، وقلع الآثار».

طرق الوقاية من الحرب النفسية في الاسلام

١ - الايمان وقوة العقيدة:

تقرر المدرسة الاسلامية أن العقيدة الراسخة المؤسسة على الايمان الذي لا يتزعزع هي الركيزة العظمى لتحصين المجاهد ضد الحرب النفسية.

فالمؤمن ايمانا كاملا لا يخاف الوعيد ولا يرهب التهديد، وليس جبانا رعديدا كأولئك الذين يقول الله فيهم:

(فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت). بل إن المؤمن لا يزيده التهديد والوعيد واساليب الحرب النفسية المختلفة الا ايمانا وثباتا واستعدادا للبذل والتضحية كأولئك الذين قال فيهم جل شأنه:

(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل).

ويتفق علماء النفس وخبراء الحرب النفسية على أن الحرب النفسية «تؤثر بفعالية اكثر على الجنود الخالين من العقائد الثابتة وذوي الوعي السياسي الضيق وغير المثقفين».

لذلك كان الايمان بالنسبة للمسلمين نورا يهديهم وكان بالنسبة للاعداء صخرة تتحطم عليها اساليبهم ومحاولاتهم للنيل من معنويات المسلمين.

٢ - الوعي والمعرفة باهداف العدو وأساليبه في الحرب النفسية:

عني القرآن أشد العناية بكشف اهداف اعداء الاسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين واساليبهم ومحاولاتهم للتفريق بين المسلمين والقضاء على وحدتهم وأمتهم وللتخذيل والتوهين وتثبيط العزائم، وارشد المسلمين الى طرق مواجهتها ومقاومتها والقضاء عليها.

والواقع أن الوعي والمعرفة باهداف العدو واساليبه في الحرب النفسية من أهم وسائل تحصين المقاتلين ضد آثار

تلك الحرب، فهي - من وجهة نظر علم النفس - تجعل المقاتل مستعدا استعدادا نفسيا لمواجهتها وعدم التأثر بها وخاصة اذا كان مسلحا - بالاضافة الى هذا الوعي والمعرفة - بالايمان القوي والعقيدة الراسخة.

(أ) فضح محاولات التفرقة ومقاومتها:

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين) - ال عمران ١٠٠ -.

والمعنى أن الله تعالى كأنه يقول: هؤلاء اعداؤكم يعملون دائما على تفريقكم ومحاولة اضلالكم والايقاع بينكم. فان تطيعوهم فانهم لا يكتفون منكم بتفرُّقٍ يوهن قوتكم ويزلزل اخوتكم وانما يظلون يتابعون عملهم ضدكم حتى تكفروا وتخضعوا لهم وتصيروا مثلهم:

(يردوكم بعد ايمانكم كافرين).

وينهى الله تعالى عن التفرق الذي هو الضعف والفشل فيقول:

(واعتصموا بحبل الله جيمعا ولا تفرقوا).

ويأمر المسلمين أن يذكروا ما كانوا عليه في الجاهلية من

عداوة وتقاتل وتفرق مما تسبب عنه أضعاف شأنهم وتسلط عدوهم عليهم.

(واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا). - آل عمران ١٠٣ -.

(ب) كشف محاولات التخذيل وتثبيط العزائم:

يقرر القرآن الكريم ان الدور الذي لعبه اعداء الدين في التخذيل وتثبيط العزائم واضعاف الهمم له خطورته اذا انساق في تياره ابناء الامة، ويوضح انه كلما لقيت دعواتهم آذانا صاغية فانهم يفرحون بذلك ويستبشرون وهذا شأنهم في كل عصر.

ومن الأمثلة التي أوردها القرآن في هذا المجال أولئك المنافقون الذي دعوا المسلمين - عندما امر الرسول عليه الصلاة والسلام بالاعداد لغزوة تبوك - الى ان يتخلفوا عن الرسول ولا ينفروا في لظى الشمس ووهج الحر.. فجاءت الآية الشريفة تحذر من اتباعهم وتنبئهم ان جهنم اشد حرا وتطلب من الرسول ألا يستعين بهم في غزوة اخرى.

قال تعالى: «فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله

وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر؛قل نار جهنم أَشد حرا لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون. فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنّكُم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين »؟ - التوبة ٨١ - ٨٣.

ازالة آثار الحرب النفسية:

وقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم عدة مبادىء لازالة آثار الحرب النفسية نذكر منها على سبيل المثال:.

١ - المواجهة بالحقيقة الدامغة:

ليس هناك مثل الحقائق وسيلة للقضاء على الحرب النفسية وازالة آثارها تلك حقيقة علمية يقررها علماء النفس وخبراء الحرب النفسية.

فأن غيبة الحقيقة تولد لدى الانسان فراغا فكريا يجعله فريسة سهلة للاشاعات والاخبار المضللة التي يذيعها الاعداء مستغلين ذلك المناخ الذي يتهيأ لهم لتحقيق اغراضهم في تدمير الروح المعنوية.

ولا تفلح وسائل تكذيب الاشاعات والاخبار المضللة في ازالة تلك الآثار الهدامة كما تفلح الحقيقة التي هي السبيل الأوحد لقطع الشك والقضاء على البلبلة والغموض.

ومن الامثلة التي تساق في هذا المجال ما حدث في غزوة أُحُد من إشاعة قتل النبي، وكان صدور هذه الاشاعة في وقت عصيب وفي ظروف بالغة القسوة فكان لها أَثر في نفوس المسلمين فخارت قواهم وألقى كثير منهم ما معهم من سلاح.

فكان رد الرسول القائد على اشاعة مقتله أن صعد فوق الجبل ليطمئن اصحابه ويرد اليهم الثقة في انفسهم وكان عليه الصلاة والسلام ينادي، «اليّ يا فلان اليّ يا فلان انا رسول الله»

وهكذا كانت الحقيقة الدامغة بوجود رسول الله بنفسه حيا أبلغ رد يقضي على ما أشيع عن مقتله ولم تؤد هذه الحقيقة الى ازالة الآثار المعنوية للاشاعة فحسب بل أدت دورها الايجابي الفعال في تجميع القوى المبعثرة وفي رد الثقة في النصر الى المسلمين.

٢ - ازالة الآثار بالعمل العسكري:

ويصل اهتمام المدرسة الاسلامية بازالة آثار الحرب

النفسية الى القيام بالعمل العسكري اذا اقتضى الامر. فانه بعدما كان في أُحُد جعل الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه يفكر فيما خلفته الهزيمة من آثار على هيبة المسلمين: -

(أ) فأهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين يظهرون أشد السرور لما كان من هزيمة اصحابه.

(ب) وسلطان المسلمين بالمدينة الذي كان قد استقر فلم يبق لأحد ان ينازع فيه يوشك أن يضطرب ويتزعزع.

(جـ) وكبير المنافقين عبد الله بن أبي سلول قد خرج على الجماعة وعاد من أحد ولم يشترك في القتال بدعوى ان محمدا لم يسمع رأيه او ان محمدا غضب على مواليه من اليهود.

(د) ولو ترك أمر نتيجة المعركة على النحو الذي انتهت اليه لبقيت الهزيمة الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش، ولهان أمر محمد واصحابه على العرب ولتضعضع سلطانهم بالمدينة ولكانوا عرضة لاستخفاف قريش واستهزائها بهم في انحاء شبه الجزيرة. وهكذا كان لا بد من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أحد وترد الى المسلمين قوتهم المعنوية وتدخل الى روح اليهود والمنافقين الرهبة وتعيد الى محمد واصحابه سلطانهم بيثرب قويا كما كان.

فلما كان الغد من يوم أُحد امر الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه المسلمين بالخروج لمطاردة العدو على ألا يخرج إلا من حضر الغزوة فخرج المسلمون حتى بلغوا حمراء الأسد.

فوقع في روع ابي سفيان أن اعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد وابلغه معبد الخزاعي: «ان محمدا قد خرج في اصحابه يطلبكم في جمع لم أَر مثله قط وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه وكلهم اشد ما يكون عليكم حنقا ومنكم للثأر طلبا».

فخاف ابو سفيان لقاء المسلمين لكنه فكر فيما يؤدي اليه فراره من آثار فلجأ الى الحيلة والى اساليب الحرب النفسية فأرسل الى المسلمين من يبلغهم انه قد اجمع السير اليهم ليستأصل بقيتهم (اسلوب التخويف).

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لما بلغته رسالة ابي سفيان لم يتضعضع عزمه بل ظل في مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة ايام متتابعة ليدل قريشا على انه على عزمه وانه منتظر رجعتهم.

واخيرا فترت همة ابي سفيان وقريش وعادوا ادراجهم

الى مكة ورجع المسلمون الى المدينة وقد استردوا الكثير من هيبتهم.

ثامنا: التدريب على القتال:

١ - تقوية الاجسام: حث الاسلام على تعلم السباحة وركوب الخيل والسباق في الجري والسباق بين الفرسان على الخيل او الابل، والمصارعة ورفع الاثقال الى غير ذلك من الوان التربية البدنية والرياضية التي تبني الجسم القوي السليم، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف». وقال: «ان لبدنك عليك حقا» وكان عليه السلام يتمتع بلياقة بدنية قوية، فكان يصرع الرجل القوي ويركب الفرس عارية فيروضها على السير، وكان يداعب من يحب بالمسابقة في العدو.

٢ - التدريب على السلاح والرماية:

وحث الاسلام على التدريب على الرماية بالقوس والنضال بالسهام والطعن بالرمح والحربة، والضرب بالسيف وهي اسلحة القتال المعروفة في ذلك الوقت وقد عني النبي صلى الله عليه وسلم عناية فائقة بتدريب المسلمين

على الرمي فقال:

- « ألا ان القوة الرمي » (وكررها ثلاثا).
- « ان الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه المحتسب في عمله الخير، والرامي به، والممد به، فارموا واركبوا، وأن ترموا أحب اليّ من أن تركبوا ».
- « كل ما يلهو به المرء المسلم باطل، الا رميه بقوسه، وتأديب فرسه، وملاعبة أهله ».
- ويروى ان بعض الأحباش كانوا يلعبون بحرابهم عند النبي عليه السلام في المسجد فدخل عمر ضي الله عنه فأنكر عليهم ذلك فقال النبي: « دعهم يا عمر ».

وهكذا سمح باتخاذ المسجد ميدانا للتدريب، وقد بلغ من تقدير المسلمين للتدريب ان بعضهم كان يتدرب حتى في يوم العيد.

- ومر عليه الصلاة والسلام بموضع كان الصحابة يتدربون فيه على الرمي، فنزع نعليه وقال: « روض من رياض الجنة ».. يقصد أن العمل الذي يعمل في هذا الموضع (وهو التدريب على الرمي) يوجب روضة من رياض الجنة.

٣ - الفروسية والقتال على الخيل:

وقد عني النبي عليه السلام بتدريب المسلمين على ركوب الخيل والقتال عليها وشجعهم على اقتنائها كما قدمنا.

تاسعا: الانضباط والتقاليد العسكرية:

للمجتمع العسكري في كل مكان تقاليد عسكرية خاصة تقتضيها طبيعته. ويعتبر تعلم الجندي لهذه التقاليد وتعويده عليها اساسا لتحوله من مواطن «مدني» الى رجل «عسكري».

وعادة ما يرى المواطن العادي في هذه التقاليد نوعا من القيد على حريته، اذ يدخل بيئة جديدة عليه، وحياة خشنة تحكمها أَوامر وتعليمات وقوانين، وتتطلب منه نوعا من السلوك المنظم الدقيق الى غير ذلك مما لم يكن مألوفا لديه في حياته قبل الجندية.

من أَجل ذلك كانت مرحلة الاعداد الاساسية التي يقضيها الجندي في مستهل حياته العسكرية والتي تقوم على غرس التقاليد العسكرية فيه، من أَخطر المراحل التي توليها الجيوش كل عنايتها حتى تتم عملية التحويل بصورة صحيحة لا تترك مضاعفات او آثاراً نفسية ضارة في نفس

الجندي تصاحبه طوال خدمته في الجيش فتعيق حركته وتضعف من ايجابيته وقد تضعف من ارادته على القتال في الحرب وهنا يكمن الخطر كله.

ان الناس في نظرتهم للجندية في أي مجتمع يتفاوتون في اقبالهم عليها وفهم مغزاها، فمنهم من يؤديها امتثالا للقانون، ومن يؤديها خدمة للوطن، وتريد القيادة ان تجعل من هؤلاء واولئك محاربين يخوضون الحرب، فيقاتلون بارادة قوية وعزيمة لا تلين ويقدمون أرواحهم فداء للهدف الذي يقاتلون من أجله، لذلك تضع كل القيادات نظما معينة للتربية الاساسية للجندي تصب فيها كل خبرات العسكريين وأساتذة العلوم السلوكية، ومع ذلك فلا يستطيع أي جيش أن يدعي انه قد وجد العلاج الناجح لتلك المشكلة.

ومهما أجهد الخبراء والمربون أنفسهم في ذلك، فان الطريق الذي يؤخذ من توجيهات الاسلام هو أمثل الطرق وأضمنها وأحكمها على الاطلاق:

١ - فالطاعة:

التي تقع على رأس التقاليد العسكرية يأمر بها الاسلام

ويوضح فلسفتها ومغزاها الاجتماعي، فليست الطاعة « خضوعا للسلطة » بل هي « ضرورة اجتماعية » لصالح الجماعة فالله تعالى يقول: « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم ».

وأولوا الامر هم الذين ائتمنهم الله على من هم في رعايتهم ممن هم دونهم في الرتبة ويقول جل شأنه:

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أَنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ».

ويوضح الرسول عليه الصلاة والسلام ضرورة القيادة لصالح الجماعة فيقول: « اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم ».

كما يأمر بالطاعة فيقول: « اسمعوا وأَطيعوا وأن وُلِّيَ عليكم عبد حبشي كأَنَّ رأسه زبيبة ».

لكن الطاعة التي يريدها الاسلام ليست عمياء بل هي الطاعة الواعية البصيرة « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وقد دعم الاسلام الطاعة عمليا في العبادات.

٢ - والنظام والنظافة وحسن المظهر:

وهي من التقاليد العسكرية، من الأُمور التي اهتم بها

الاسلام وحث عليها حتى الحقها بآداب العبادات، يقول الله تعالى:

«يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق».

والنظافة والطهارة من مظاهر المسلمين كالوضوء والاغتسال كما اخبر الله تبارك وتعالى فقال:

«لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين».

وليس هذا فحسب، بل كانت اول اوامر الرسالة دعوة الى الطهارة كما يفهم من قوله تعالى:

«يا أيها المدثر قم فأنذر، وربَّك فكبر، وثيابك فطهِّر».

ويوجه الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين الى التزام المظهر الحسن فيقول:

- «ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

- «اصلحوا رحالكم ولباسكم حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة» (الرحال جمع رحل وهو المسكن وما فيه من

اثاث، والشامة هي الخال او الحسنة التي تكون في الخد وهي من علامات الجمال).

وكره الاسلام للمسلم ان يفرط في مظهره وان يهمل هيئته حتى يكون زريا في اعين الناس، فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا مضطرب الشكل منتفش الشعر فقال: «أما وجد هذا ما يسكن به رأسه؟» فلما أصلح الرجل شأنه قال عليه السلام: «هذا خير من أن يأتي احدكم ثائر الرأس كأنه شيطان».

كذلك يحض الاسلام على العناية بنظافة الثكنات ومظهرها وتهويتها وتعريضها للشمس حتى تكون صحية ولنبعد عن التشبه باليهود حيث اخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «نظفوا افنيتكم ولا تشبهوا باليهود».

٣ - والاحترام المتبادل بين الرتب واحترام الاقدميّة:

وهي من التقاليد العسكرية، تعدها توجيهات الاسلام من العلاقات التي تربط افراد الجيش برباط قوي لأنهم أُخوة متحابون تجمعوا حول هدف واحد، قال تعالى:

«انما المؤمنون أُخوة».

وعلى أَساس هذه العلاقة يتصرف الافراد، فيكون

هناك توقير للكبير رتبة، واحترام للصغير وعطف عليه يدلنا على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «انزلوا الناس منازلهم».

وقد جلس الرسول عليه الصلاة والسلام يوما وحوله اصحابه، فدخل علي بن ابي طالب رضي الله عنه فلم يجد مكانا يجلس فيه، فأفسح له ابو بكر مكانا بجوار الرسول وناداه أن يجلس فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «يا أبا بكر، انما يعرف الفضل لأهل الفضل، ذوو الفضل».

وقد امر الله بعدم رفع الصوت على القائد الاول للمسلمين فقال:

«يا أَيها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون».

٤ - والعناية بالاسلحة والمعدات:

واجب لا يؤديه المسلم لأن «الاوامر العسكرية تقضي بذلك» بل يؤديه وفاء بالامانة التي في عنقه والتي يأمره دينه أن يؤديها وأن يصونها، ومحافظة منه على أدوات «القوة» التي امر الله باعدادها، وحرصا منه على ادوات

« الجهاد في سبيل الله » وظيفته الشريفة التي كرمه الله بأن اختاره لها « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم » واحساسا منه وادراكا لعواقب اهمال هذا الواجب كما اخبر الله تعالى في قوله:

« ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ».

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأُسوة الحسنة حيث كان يناول ابنته فاطمة سيفه ويقول: « اغسلي عن هذا دمه يا بنية فوالله لقد صدقني اليوم » وناولها علي بن ابي طالب سيفه وقال: « وهذا ايضا فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم ».

عاشرا: المخابرات العسكرية:

يقرر العلم العسكري ان المخابرات هي الخطى المتناسقة المدروسة الموجهة لاستخدام كل الوسائل المتيسرة للحصول على كافة انواع المعلومات وتصنيفها وتقديرها، لامداد المسئولين بالحقائق والتقديرات الواقعية وفي الوقت المناسب لوضع استراتيجية الدولة ولرسم سياسات معينة ولاتخاذ القرارات السليمة التي تكفل سلامة الأَمن القومي للدولة.

وللعمل ضد عمليات المخابرات المعادية لمنعها من الحاق الضرر بالدولة في أية صورة من الصور.

وبصفة عامة تنطوي المخابرات على العناصر التالية:

أ - الحصول على المعلومات عن العدو.

ب - فرز وفحص وتقييم هذه المعلومات وتقدير مدى صحتها.

جـ - تفسير هذه المعلومات واستخلاص النتائج المفيدة منها.

د - امداد المسئولين بهذه المعلومات والنتائج المستخلصة منها.

هـ - الافادة من هذه المعلومات وما يستخلص منها في التخطيط وفي اتخاذ القرارات.

و - مقاومة اعمال مخابرات العدو.

وتنقسم المخابرات بالنسبة الى المستوى والمجال والتأثير الى نوعين:

مخابرات استراتيجية، ومخابرات تكتيكية.

فالمخابرات الاستراتيجية:

تتعلق بالمعلومات المتعلقة بالمسائل الكبرى مثل

المعلومات عن نوايا الدولة الاجنبية (او العدو) وامكانياتها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمعنوية... ومواطن الضعف والقوة لديها.

أما المخابرات التكتيكية:

فتتعلق بالمعلومات ذات الطابع المحلي المحدود او ذات طابع التخصص في ناحية محدودة.

ويقرر العلم العسكري انه يتحتم توافر صفات وخصائص معينة فيمن يتولى عملا من اعمال المخابرات نذكر منها:

الذكاء - الفهم العميق - القدرة على التصرف - القدرة على اصدار الحكم السليم - صفاء الرؤية - المرونة وسرعة التحول من حال الى حال - الثبات والاتزان في مواجهة اخطر المواقف واعقدها - حاسة حب الاستطلاع - القدرة على كتمان المعلومات... الخ.

ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم رجال مخابرات سواء في المدينة او في مكة او في غيرها، وكان سر اختيارهم لهذه المهام اتصافهم بتلك الصفات التي ذكرناها، ومن هؤلاء حذيفة بن اليمان العبسي رضي الله عنه الذي اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم دون غيره من الصحابة ليكون عينا له

في المنافقين في المدينة، وذلك لمتعته بمزايا الكتمان الشديد، فلا يفشي سره لأحد، وبحضور البديهة فلا يرتبك في المواقف الحرجة، وبتقديره العميق لأهميّة صيانة الأسرار العسكرية عن الاعداء فلا يفشي نياته ونيات المسلمين، واهدافهم، وبالذكاء الخارق وموهبة حب الاستطلاع.

وليس أَدل على توفر صفات رجل المخابرات فيمن اختارهم النبي ليعملوا في هذا المجال مما يلي: -

أ لم ترد في «تاريخ السيرة» حادثة واحدة انكشف فيها أَمر واحد من رجال مخابرات النبي.

ب كانت نيات الاعداء بالعدوان تبلغ النبي صلى الله عليه وسلم في وقت مبكر يمكنه من اتخاذ اجراءات المواجهة حسبما يقتضي الموقف.

ج لم يضع خطة لغزوة او سرية دون أن تكون لديه المعلومات اللازمة للتخطيط الناجح عن العدو وعن الأرض والظروف المحيطة.

أمثلة للمخابرات التكتيكية في عهد النبي:

أ كان للنبي صلى الله عليه وسلم عيون وارصاد محلية في

المدينة يطلعون على كل صغيرة وكبيرة تضر بالمصلحة العامة للمسلمين في السلم والحرب على حد سواء فاختار مثلا حذيفة بن اليمان العبسي ليأتيه بأخبار المنافقين ونواياهم.

ب في غزوة بدر بعث النبي صلى الله عليه وسلم اثنين من اصحابه للحصول على معلومات عن قافلة قريش. وعند بئر بدر سمعا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها «عندما تأتي العير (اي القافلة) غدا او بعد غد سأقوم بخدمتها ثم اقضيك الذي لك» فأسرع الرجلان فاخبرا الرسول صلى الله عليه وسلم بما سمعا. كما بعث عليه الصلاة والسلام دورية اخرى للحصول على معلومات عن قريش وقافلتها.

كما بعث عليه الصلاة والسلام دورية أخرى للحصول على معلومات عن قريش وقافلتها كانت تتألف من علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد ابن ابي وقاص في نفر من اصحابه، وعند ماء بدر وجدت غلامين لقريش يستقيان فأتت بهما الى النبي فتولى عليه الصلاة والسلام استجواب الغلامين فعلم منهما ان قريشا وراء

الكثيب (بالعدوة القصوى)، ولما اجابا بأنهما لا يعرفان عدد رجال قريش سألهما: «كم ينحرون من الجزر (اي الابل) كل يوم» فقالا: يوما تسعة ويوما عشرة فاستنبط الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك انهم بين التسعمائة والألف (لأن العرب على عادتهم يخصصون بعيرا لكل مائة)، كذلك عرف الرسول من الغلامين ان اشراف قريش جميعا خرجوا للقتال.

امثلة للمخابرات الاستراتيجية في عهد النبي

أ - كان للنبي صلى الله عليه وسلم عيون وارصاد خارج المدينة:

١ - في مكة (مركز قريش الرئيسي) وهي تبعد عن المدينة بحوالي ٤٠٠ كيلو متر فكان عمه العباس وبشير بن سفيان العتكي.

٢ - في القبائل العربية الاخرى في انحاء شبه الجزيرة العربية فكان منهم مثلا: عبد الله بن ابي حدرد الاسلمي في قبيلة هوزان.

٣ - في بلاد فارس.

٤ - في بلاد الروم «بيزنطة».

ب - ومن امثلة نشاط مخابرات النبي الاستراتيجية ما يلي: ١-قبل غزوة أُحد ارسل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم (وكان من رجال مخابراته في المدينة) رسالة يخبره فيها عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد قوات قريش، فأسرع حامل رسالة العباس رضي الله عنه بايصال تلك الرسالة الى النبي صلى الله عليه وسلم (حتى أنه قطع المسافة بين مكة والمدينة المنورة في ثلاثة ايام) فلما قرأ أبي بن كعب الرسالة على النبي، طلب أن لا يبوح بمضمونها لأحدٍ

٢- قبل غزوة الخندق التي عبّأً فيها المشركون عشرة آلاف مقاتل عدا اليهود لمهاجمة المدينة كان النبي عليه الصلاة والسلام على علم بنوايا اعدائه (من خلال رجال مخابراته في مكة والقبائل العربية) وحفر المسلمون خندقا حول المدينة كان مفاجأة للمشركين لما رأوه حتى قالوا: «والله ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها».

وهذه الواقعة لا تدل على نجاح مخابرات النبي الاستراتيجية التي عرفته بنوايا اعدائه مبكرا فحسب، بل

تدل على عجز مخابرات الاعداء على المستويين الاستراتيجي والتكتيكي معا، وذلك على الرغم من ان حفر الخندق استغرق حوالي عشرين يوما في المتوسط كانت كافية جدا لرجال المخابرات لكشفه والاعلام عنه..

كما تدل تلك الواقعة ايضا على نجاح المخابرات الوقائية للمسلمين وعلى مدى كتمانهم لسر خطتهم الحربية وحرمان العدو من الحصول على معلومات عنها.

وهذا ما عبر عنه خبير المخابرات والجاسوسية العالمي لاديسلاس فاراجو في قوله: «عندما قرر المكيون (قريش) أن يتخلصوا من محمد عليه الصلاة والسلام نهائيا عبأوا ضده قوة تتكون من عشرة آلاف مقاتل، ولم ينزعج النبي لأنه كان قد ترك في مكة عملاء اكفاء ابلغوه بخطط اعدائه، أما خصومه فلم يكن لهم عملاء عنده، ولذلك فعندما وصل المكيون الى المدينة اذهلهم أن يجدوا خندقا وجداراً يحيطان بالمدينة احاطة السوار بالمعصم حميا محمدا عليه الصلاة والسلام واتباعه من العدوان»[١].

٣ - بعد فتح مكة قررت بعض القبائل العربية أن تغزو

---

(١) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج - احمد هاني.

المسلمين قبل أن يغزوهم وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم نبأ تجمع هوازن وثقيف لمهاجمته فأرسل عبد الله بن ابي حدرد الاسلمي ليأتيه بالمعلومات اللازمة، وفي هذا قال ابن اسحاق[1] : « ولما سمع بهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بعث اليهم عبد الله بن ابي حدرد الاسلمي وامره ان يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن ابي حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد اجمعوا له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع من مالك (مالك بن عوف النصري قائد هوزان) وأمر هوازن ما همَّ عليه، ثم اقبل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ».

ومن هذه المعلومات عرف النبي نوايا الاعداء ومكان تجمعهم فقرر مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادأة بيد المسلمين.

تعلم لغة العدو:

من الضرورات الحيوية في مجال المخابرات والحرب النفسية معرفة لغة العدو واجادتها سواء من حيث التحدث

---

(١) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - جـ ٤.

بها او الكتابة.

ولقد عني النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فأمر زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود وفي هذا يقول زيد: «أَمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية وقال: اني والله ما آمن يهود على كتابي «ثم يقول زيد فوالله ما مر بي نصف شهر حتى تعلمته وَجَدْتُ فيه فكنت اكتب له اليهم واقرأ له كتبهم اليه».

وصدق من قال: «من عرف لغة قوم أمن شرهم».

استخدام الشفرة:

في مجال المخابرات عادة ما تحول لغة الرسائل سواء الشفوية او المكتوبة الى لغة اخرى تستخدم فيها الرموز بحيث لا يستطيع فهم مضمونها سوى مرسلها والمرسلة اليه وهو ما يعرف باسم الشفرة.

واستخدام الشفرة امر حيوي لاخفاء محتويات الرسائل عن الاعداء، ومن المعروف ان كل طرف من الاطراف المتحاربة يضع لنفسه شفرة خاصة وفي نفس الوقت يسعى جاهدا بكل الوسائل لكشف سر الشفرة التي يستخدمها الطرف الآخر (اي حل رموزها)، ومن اجل ذلك فان

الجيوش في العصر الحديث لا تستخدم شكلا واحدا من اشكال الشفرة لمدة طويلة بل تقوم بتغييرها من حين لآخر حتى لا تعطي الفرصة الكافية لاعدائها لكي يكشفوا رموزها حتى لقد يصل الامر الى تغيير الشفرة عدة مرات في اليوم الواحد.

ولقد عني النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الاسلوب الذي تبدو فكرته واضحة تماما في الواقعة التالية: -

في غزوة الخندق علم النبي صلى الله عليه وسلم ان يهود بني قريظة قد نكثوا عهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين وذلك بعد ان احاط بالمدينة عشرة الاف مقاتل من قريش والقبائل العربية الاخرى.

وتحرج موقف المسلمين كثيرا - وكان عدد مقاتليهم ثلاثة الاف مقاتل - بعد ان نكث بنو قريظة عهدهم وهم داخل المدينة، فأصبح الخطر يهدد المسلمين من داخل المدينة ومن خارجها، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم سعد ابن معاذ، وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخَوّات ابن جبير الى بني قريظة ليقفوا على جلية الامر، وامرهم بأن

(يلحنوا)[1] بالقول حين يعودون ولا يفصحون في حالة تأكدهم من خبر نكث بني قريظة للعهد.

ولقد كان سبب حرص الرسول على استخدام هذا الاسلوب من اساليب الشفرة هو خوفه على معنويات المسلمين من الانهيار، وحرصه على كتمانه حتى يستكملوا اعداد الخندق وسائر استعداداتهم العسكرية قبل أن يعلمهم به.

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم سمح باذاعة هذا النبأ الخطير قبل أن يعد المسلمون كل متطلبات القتال لانهارت معنويات المسلمين.

حادي عشر: الأمن ومقاومة الجاسوسية:

عنيت المدرسة الاسلامية بالأمن أشد العناية، ووضعت له المبادىء والأصول والاساليب، ولقد اثبت تاريخ صدر الاسلام ان من اسباب انتصار المسلمين على اعدائهم الكثيرين أن اسرار النبي صلى الله عليه وسلم واسرار المسلمين كانت مصونة وبعيدة عن متناول الاعداء، في

---

(١) في مختار الصحاح: (بفتح اللام والحاء) له قال له قولا يفهمه عنه ويخفى على غيره. وبابه قطع.

الوقت الذي كان النبي صلوات الله وسلامه عليه يطلع على نيات اعدائه العدوانية عن طريق عيونه وارصاده « رجال مخابراته » قبل وقت مبكر فيعمل من جانبه على احباط ما يبيتونه للاسلام من غدر وخيانة ودسائس.

كذلك لم يستطع المشركون واعداء الاسلام أن يباغتوا قوات النبي صلى الله عليه وسلم في الزمان والمكان واسلوب القتال، بينما استطاع صلوات الله وسلامه عليه أن يباغت اعداءه في معظم غزواته وسراياه.

اللسان وامانة الكلمة:

من المبادىء المعروفة أن الامة التي تكتم اسرارها الحربية هي الامة التي يمكن أن تنتصر، والامة التي لا تكتم اسرارها الحربية هي الامة التي لا يمكن أن تنتصر. وما يقال عن الامة يقال عن الافراد لأن الأمة تتكون من افراد.

واللسان الذي هو نعمة من نعم الله على عباده يستطيعون به التعبير عن آرائهم وتبادل المنافع مع الناس، هو وسيلة الخير والسعادة في الدنيا والآخرة اذا أحسن استعماله كما انه سبب قوي للشر والشقاء في الدارين اذا

أسيء استعماله ،فهو سلاح ذو حدين يمكن به النفع ويمكن به الضر.. والقرآن الكريم ينبيء بأن كل لفظ من الانسان مسجل عليه ، فيقول الله تعالى:

(ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) (ق ١٨).

فالكلمة امانة عظمى لها مكانتها في الاسلام ، وتقدير أمرها والتدبر فيها قبل اللفظ بها مرتبط بالايمان كما يفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا او ليصمت».

كتمان الأسرار:

وينبه الاسلام الى اليقظة والحذر في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم» وكما في قول الرسول عليه الصلاة والسلام «المؤمن كيس فطن» فاليقظة والحذر والوعي والفطنة كلها تدفع الى كتمان الاسرار ، التي جعلها الاسلام امانة من الامانات يجب على المسلمين أن يحافظوا عليها ، كما قال تعالى:

(يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم).

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «ألا لا ايمان لمن لا

أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له » وقال أيضا: «آية المنافق ثلاث: «اذا حدث كذب، واذا وعد اخلف واذا أؤتُمِنَ خان ».

الصمت:

الصمت من أَكبر اسباب الوقاية من افشاء الأَسرار (الوقاية خير من العلاج) والاسلام يرشد الى الصمت ويدعو المسلمين اليه، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

« من سره أن يسلم فليلزم الصمت ».

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ».

« وطوبى لمن امسك الفضل من لسانه، وانفق الفضل من ماله ».

« الصمت حكم وقليل فاعله ».

« أمسك عليك لسانك ».

« من كف لسانه ستر الله عورته ».

كبح شهوة الكلام (الثرثرة والتحدث بدون حرص):

من الناس من تتحكم فيه شهوة الكلام اكثر مما تتحكم فيه شهوة الطعام. فيستر جهله بادعاء العلم (وخاصة

ببواطن الأمور) فيطلق لسانه فيما يعرف وفيما لا يعرف فلا يدع سرا الا اذاعه، ولا يتخيل حديثا الا جعله حقيقة ملموسة، ولا يتورع عن ترديد ما يلقى في أذنيه من انباء هدفها ايقاع الضرر بالامة كالإشاعات وغيرها.

والاسلام ينهى عن ذلك كما يفهم من قوله تعالى:

(ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين). (لقمان ٦).

وقوله جلَّ شأنه:

(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد).

البقرة ٢٠٤ - ٢٠٥).

- وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

- وقال: «من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

- وقال: «لا تتكلم فيما لا يعنيك فانه فضل (فضول) ولا آمَنَ عليكم الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا».

مراجع البحث.

القرآن الكريم.

الجهاد المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية.

الجهاد د. أحمد محمد الحوفي

عبقرية محمد عباس محمود العقاد.

القرآن والقتال الشيخ/محمود شلتوت

سيرة ابن هشام.

الرسول القائد اللواء الركن محمود شيت خطاب.

المدخل الى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الاسلامية - الباحث

مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية جنرال اندريه بوفر

الردع والإستراتيجية = = =

مشكلات الشباب وحلولها

في

ضوء الكتاب والسنة

للأستاذ علي القاضي
« مصر »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ﻫ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

عني الاسلام بتربية الشباب عناية واضحة؛ ذلك لأن فترة الشباب هي فترة القوة والحيوية والنشاط، وفترة امتصاص الأفكار واعتناق المبادىء والحماسة لها والدفاع عنها ومحاولة نشرها والبذل في سبيلها بكل شيء بالصحة والمال والوقت بل والنفس في كثير من الأحيان. ومن هنا رأينا الصراعات المختلفة حول الشباب ومحاولة اجتذابهم حول الفكرة التي يعمل فيها كل منهم.. وقد وجدنا عناية الاسلام بالشباب تلك العناية الرائعة التي جعلته يعطيه الامكانات التي تكفل انطلاقه وتسلحه بكافة الأسلحة التي تعينه على أداء رسالته في هذه الحياة.

عناية سابقة على وجوده:

وعناية الاسلام بالشباب تبدأ من قبل أن يولد.. تبدأ بتكوين الاسرة له على أسس تحقق الاطمئنان والسكن والتربية الكاملة المتكاملة: (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) الروم /٢١- ولذلك فقد

طلب من الرجل أن يختار المرأة الصالحة التي تحقق التربية المثالية وتعطي للطفل كل حاجاته- ويعبر الرسول الكريم عن ذلك بقوله: (فاظفر بذات الدين تربت يداك) البخاري- ومثل ذلك في اختيار الرجل: (اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه؛ الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) ابن ماجة- ولأن صفات الوراثة تظهر في الأبناء فان الاسلام يعطي لأبنائه مؤشرات تساعده في اختيار العناصر الصالحة في تكوين الاسرة فهو يقول: (تخيروا لنطفكم فان العرق دساس) البخاري، ويقول: (اياكم وخضراء الدمن) ويفسر الرسول الكريم خضراء الدمن بأنها (المرأة الحسناء في المنبت السيء).

وبهذا التخطيط يضمن الأساس السليم للبيئة المتكاملة التي ينشأ فيها الطفل المسلم، ثم هو يحاول ان يضمن له الاستقرار الدائم في كنف الاسرة فيجعل الطلاق أبغض الحلال الى الله كما يقول الرسول الكريم، ويجعل أساس البيوت الوفاء كما يقول عمر بن الخطاب، ثم يجعل الأسرة مسئولة مسئولية كاملة عن تربية الأبناء يقول الرسول الكريم: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)- البخاري.

وظيفة الشباب في الاسلام:

ووظيفة الشباب في الاسلام هي وظيفة المسلم بعامة، ولكن الشباب أقدر من غيرهم على حملها بما لهم من حماسة وحيوية ونشاط واستعداد للتضحية، فهو جزء من هذا الكون والكون ساحة لنشاطه وميدان لحضارته يدين بالعبودية لله ويتحرر من عبادة ما سواه من استذلال النظام والقوانين والأشخاص والشهوات والشيطان. انه سيد الكون وليس عبدا الا لله الذي خلقه وخلق الكون، ثم ان الكون كله مصدر رائع للمعارف والعلوم ومنبع لسكينة الانسان وهدوئه ومشاعره. وبذلك يرفع الاسلام من اهتمامات المسلمين بقدر ما يرفع تصورهم للوجود كله، وبقدر ما يكشف أيضا عن علة وجودهم وحقيقته ومصيره. والمسلم يحس بقيمته حين يعلم أن الله خلقه في احسن تقويم وسواه ونفخ فيه من روحه ،وجعل الملائكة تسجد له وجعله خليفة له في الأرض.

والاسلام بهذا يرسي القواعد الاساسية التي لا تتغير ولا تؤثر فيها تطورات الحياة كما لا يؤثر فيها اختلاف النظم ولا تعدد المذاهب ولا تنوع البيئات، فمن أداها كاملة فقد أدى وظيفته، ومن قصر فيها او نكل عنها فقد أصبح. بلا

وظيفة في هذه الحياة، وأصبحت حياته خاوية من معناها الأصيل الذي تستمد منها قيمته. والاسلام يوجه طاقة الشباب الى العمل المنتج المفيد الذي هو ثمرة الإيمان بالله. والقرآن الكريم يؤكد تأكيدا شديدا على العمل الصالح في عشرات الآيات: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا) آخر الكهف. والعمل الصالح يشمل كل ما يقوم به المسلم نحو ربه ونحو نفسه ونحو اسرته ونحو مجتمعه الاسلامي بل والمجتمع الانساني كله.

والشباب المسلم يستطيع ان يقوم برسالته كاملة ما دام خاليا من المشكلات، ولكن اذا وجدت المشكلات في حياته فان ذلك يعوقه عن أداء هذه الرسالة.

ولما كان الاسلام حريصا على الشباب وعلى أن يؤدي رسالته كاملة فانه يعمل على ازالة العقبات من طريقه وعلى تقوية شخصيته بحيث يستطيع أن يقاوم هذه المشكلات، فاذا ما جاءت المشكلات بعد ذلك حاول علاجها بالاسلوب الذي يفيد ويريح وينتج.

الاسلام يزيل العقبات أمام الشباب:

من طبيعة الشباب الحركة والحيوية والنشاط، وقد

يستتبع هذا الخطأ في جانب من الجوانب والله سبحانه وتعالى يفتح بابه للتائبين دون وساطة ويقول: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا) الزمر /٥٣ ويقول: (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) البقرة /١٨٦ ، وجعل من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل الا ظله (شاب نشأ في عبادة الله) البخاري ، ويبين للشباب أن الخطأ طبعي والمهم أن يتوب الشاب والنبي الكريم يقول: (عجب ربك من شاب ليس له صبوة)، والمهم ألا يتمادى الشاب في أخطائه ولا يجاهر بها ، يقول الرسول عليه السلام: (كل أمتي معافى الا المجاهرين ،وان من المجانة أن يعمل الرجل عملا بالليل فيصبح وقد ستره الله يكشف ستر الله عليه) البخاري ، والاسلام يزيل العقبات الداخلية حين يربى المسلم على صفاء القلوب يقول النبي عليه السلام لأنس :(يا بني ان قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك بغض لأحد فافعل ، ثم قال: يا بني وذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني دخل الجنة) الترمذي ، وقال عليه السلام عن رجل من الأنصار: إنه من اهل الجنة.. وحين لحظ عبد الله بن عمر أن الرجل لا يمتاز

بشيء غير عادي صارح الرجل بذلك فقال الرجل: يا بني لا أعلم شيئا عندي الا أني لا أبيت وفي نفسي حقد لإنسان.
وهو يبعد عن الشاب المسلم الحقد والحسد لأنه يقطع الروابط ويزيد المشكلات الاجتماعية، ويجعل الاوقات تضيع فيما يعود على الناس بالضرر، كما أنه يعلم الشباب الصبر عند الغضب حين يطلب من الغاضب أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فاذا بالغضب يذهب عنه. كما يطلب من الغاضب أن يغير من وضعه فيكسر هذا من حدة الغضب ويصبح الانسان أكثر هدوءا، يقول الرسول عليه السلام: (اذا غضب أحدكم وهو قائم فليقعد فاذا ذهب عنه وإلا فليضطجع) ثم هو من الناحية الإيجابية يبين للشباب قوة المجتمع المتكامل فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه بل ان الرسول الكريم يقول: (من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) مسلم،وبهذا يزيل الاسلام العقبات امام الشباب.

الناحية الانشائية في الإسلام:

الاسلام عني بالناحية الانشائية للشباب حتى يخرج الى الحياة سليم النفس قوي الجسم، فقد عمل على تهيئة الجو الملائم الذي يتربى فيه بحيث يخرج الى الحياة مسلما قائما بواجبه نحو ربه ونحو نفسه ونحو أسرته ونحو مجتمعه. وقد حدد الاسلام واجبات الوالدين في معاملة الأبناء من ناحية الرضاعة والعناية بالنواحي الجسمية والنفسية والعقلية، فالبيت الأمثل صلة روحية ورحمة ومودة بين ساكنيه، فيه تنبعث عواطف المحبة والتضحية والتعاون، – وخير العواطف أمسها بحياة المجتمع وعواطف الصداقة والاحترام؛ احترام الطفل لأبويه الذي هو أساس احترامه لنفسه.. وكل سلطة زمنية وروحية فيما بعد. فيه يتعلم الطفل معنى الضبط وقيمته يتقبله طوعا من والديه فقد عرف أن فيه خيره وسعادته.. في هذا البيت يخرج الطفل الى الحياة مزودا بطائفة من العواطف الحميدة تكون في يده سلاحاً للكفاح كما تكون أمانا من العلة النفسية في مستقبل حياته. والشاب الذي ينشأ في البيت المسلم ينشأ على صلة قوية بالله فيحس بأنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها فيكون في مأمن من الأمراض النفسية لأن الايمان بالله خالق

الانسان ومدبر الكون يجعل الانسان يحس بأن له سندا قويا في هذه الحياة. والمؤمن متصل بالقرآن الذي أنزله الله ليكون شفاء ورحمة للمؤمنين؛ ذلك لأن الإيمان نور يشرق في القلب فتشرق به النفس، فيرى الانسان الطريق أمامه واضحا فلا يصيبه اضطراب ولا قلق، وعقيدة الاسلام حين تتغلغل في النفس تدفعها الى السلوك الإيجابي السليم الذي يجعل المؤمن مطمئنا ثابتا: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) إبراهيم /٢٧.

والإسلام يهيىء نفس المسلم لتحمل صعوبات الحياة: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) البقرة /١٥٥- وبمقدار صبر الانسان على ما يلقى بمقدار ثواب الله له: (إنما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) الزمر/١٠.

وليس من المقبول مثلاً أن يقول الانسان: اني مسلم ثم لا يتحمل شيئا في سبيل عقيدته: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ٢/٣ العنكبوت. وفي المعارك الاسلامية التي تقوم لتحقيق

العدالة في الأرض يطلب من المسلمين أن يصبروا وأن يصابروا وأن يرابطوا في سبيل الله فإذا ما أصابهم ضر في المعركة فهذا أمر طبيعي والضرر متبادل (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) النساء ١٠٤ وفي مسألة الموت والحياة يبين للمسلمين أن كل نفس ذائقة الموت وخاطب نبيه الكريم فقال: (إنك ميت وإنهم ميتون) الزمر/ ٣٠، وعلى الإنسان أن يمتثل لأمر الله وأن يصبر على ما أصابه واذا خاف من ضيق الرزق فالله سبحانه وتعالى يطمئنه: (وفي السماء رزقكم وما توعدون) الذاريات /٢٢ - فالمسلم يتطلع الى السماء والى الله الخالق، أما الأرض وما فيها من أسباب ظاهرية للرزق فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع الى المصدر الأول الذي أنشأ هذه الأسباب. وليس معنى هذا اهمال الأرض- فالانسان مكلف بعمارتها- ولكن المقصود ألا يعلق نفسه بها، وألا يغفل عن الله في عمارتها فهو مستيقن بأن ما وعد الله تعالى لا بد وأن يكون، وبذلك يعيش قلبه موصولا بالسماء وقدماه ثابتتان في الأرض، والشاب اذا وصل الى هذه الدرجة فهو في الحالة التي أنشأه الله عليها قبل أن يتناولها الانحراف: (فطرة الله التي فطر الناس عليها) الروم /٣٠ - وعلى

الانسان ألا يتطلع الى ما في يد غيره أو الى أن يكتسب أشياء فوق قدراته المادية والجسمية واستعداداته الفطرية وبخاصة وأن ما في يد غيره قد يكون مقصودا به الفتنة وقد عافاه الله منها: (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) طه /١٣.

والانسان قد يخاف من المرض والانسان اذا اصابه المرض بعد أن اعتنى بنفسه وبعد أن اصبح جسمه قويا ونفسه قوية فعليه أن يلتمس العلاج من مظانه، ثم ان الاسلام يرشده الى أن ما يصيب المسلم له ثواب عليه حتى الشوكة يشاكها، والمسلم بخير على كل حال ان اصابته ضراء فصبر كان خيرا له وان أصابته سراء فشكر كان خيرا له. وقد يخاف من ضغوط الحياة عليه لسبب من الأسباب، والشاب المؤمن موصول القلب بالله وهذا يجعله أكثر تحملا والا فعليه أن يعيد النظر في قوة صلته بالله ولا يهمه الناس لأن الناس لا يملكون له نفعا ولا ضراوهم لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه الا بشيء قد كتبه الله له ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه الا بشيء قد كتبه الله عليه.

والإسلام يربي أبناءه على الأمل والبعد عن اليأس ذلك لأن اليأس والإيمان لا يجتمعان في قلب مؤمن والقرآن الكريم يقول: (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) يوسف /٨٧، ذلك لأن اليأس يؤدي الى انقباض الكرتزون في الدم والغضب يؤدي الى ارتفاع الادرالين والتروكسين في الدم.. واذا استسلم الانسان لدوافع الغضب واليأس اصبح فريسة سهلة لقرحة المعدة والسكر وتقلص القولون وأمراض الغدد الدرقية والذبحة، وهي امراض لا علاج لها الا المحبة والتفاؤل والتسامح لأنها في حقيقتها أمراض نفسية. ومن هنا ندرك أهمية وصية النبي للصحابي الذي جاء يطلب نصيحة بقوله: أوصني فقال له عليه السلام: (لا تغضب) وكررها ثلاثا- البخاري- كما ندرك أهمية قوله صلى الله عليه وسلم: (ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) متفق عليه. ومقاومة الأجسام للأمراض تكون على أعلى مستوى من الكفاءة اذا كان هناك انسجام بين كل الخلايا والغدد والأعصاب وهي حالة ترتد في النهاية الى صورة من صور الائتلاف الكامل بين النفس والجسد.. ولهذا يرى الأطباء أن الانفلونزا تعود للانسان بكثرة لأسباب نفسية،حقيقة أنه

لا بد من وجود أسباب؛ ولكن لا بد من وجود قابلية للعدوى أيضا، والقابلية حالة نفسية كما أنها حالة جسمية.

وقد بدأ الأطباء يتجهون الى أن مرض السل قد يكون سببه نفسيا، ومن الأشياء التي تلفت النظر أن بعض الأمراض كالأكزيما أمكن احداثها بواسطة الإيحاء أثناء التنويم المغناطيسي، كما أن الحالة النفسية قد تكون سببا في الحمى والصداع والضغط والسكر والروماتزم والسرطان.

ومن هنا فإننا نجد أن المؤمنين الصادقين الذين سلمت نفوسهم وصفت قلوبهم بأخلص الإيمان لم يتعرضوا مطلقا للأمراض النفسية التي تجر وراءها الأمراض البدنية، ذلك لأن هذه الأمراض بنوعيها لا تظهر الا مع ضعف الإيمان أو مع فقدانه حين تتسرب الوساوس الى النفس فتنشأ العقد وتكثر الحاجة الى الأدوية المنشطة والمهدئة والمخدرة التي لا يعتدل بها ما اعوج من النفوس، وسيظل الصراع قائما في زوايا النفس التي ضعف ايمانها.

مشكلات الشباب

وللشباب مشكلات تعوقه عن أداء رسالته في هذه الحياة وتأخذ من وقته وجهده ما يصرفه عن الطريق السليم ان لم

تحل على أساس سليم، بل أنه قد يكون عبئا على المجتمع الذي يعيش فيه وأداة من أدوات الهدم كما نرى في المجتمعات الغربية في عصرنا الحاضر، وبعض هذه المشكلات متجدد أي أنه كان موجودا في الأزمان الماضية وهو موجود في الزمن الحاضر، وبعض هذه المشكلات نشأ في العصر الحديث بعد ظهور الآلات التي قلبت موازين الافكار، وبعد ظهور الفلسفات المختلفة التي غيرت من المفاهيم والقيم والافكار،وسنتناول أولا المشكلات القديمة الجديدة أي المتجددة ثم نتناول المشكلات الحديثة لنرى حلولها على ضوء الاسلام.

المشكلات المتجددة.

مشكلات الغريزة الجنسية:

الغريزة الجنسية من غرائز الانسان الهامة التي أوجدها الله تعالى لحفظ النوع البشري، لكن فرويد اشتط في أهميتها حين فسر السلوك البشري كله على أساسها، فنزل بالانسان الى مستوى الحيوان وجعل الدوافع كلها مصدرها الجنس حتى العبادة، - وقد رتب على هذا دمار الانسان اذا لم يشبع هذه الغريزة، مع أن سلوك الانسان الجنسي

يختلف عن سلوك الحيوان ذلك لأن الانسان فيه عقل وروح ونفس، ثم هو يقوم بضروراته الجنسية على طريقة الانسان لا على طريقة الحيوان - وفرويد كان يهوديا واقعا تحت تأثير البيئة التي كانت تسود فيها بعض المفاهيم الدينية المنحرفة التي كانت تعيشها أوربا والتي كانت تدعو الى كراهية العلاقة بين الرجل والمرأة وتحث على الرهبنة - ومع أن تلاميذه أثبتوا أن هذا الرأي غير صحيح وأثبتوا أن عدم الإشباع لا يؤدي الى الدمار - بل وليس هناك ضرر جسمي أو عقلي ينتج عن الامتناع عن الجنس - ومع أنهم بذلك اعادوا الكرامة الى الجنس البشري؛ الا أن آراء فرويد تلقفتها أيدي التجار وساعدهم على ذلك أجهزة الاعلام فعملوا على نشر آراء فرويد من الناحية النظرية، وأوجدوا كل الأساليب لتطبيقها من الناحية العملية حتى شملت آثارها الكبير والصغير في المجتمعات الغربية وسار على نهجها الى حد كبير أو صغير البلاد الاسلامية - واكتوى الجميع بنارها ولا يزالون يكتوون - لأن آراء فرويد وان ثبت فشلها من الناحية النظرية وخطرها من الناحية العملية الا أن التجار وأجهزة الاعلام لا زالت تسير في الطريق الذي يثير الغرائز ويلهبها وبذلك فان

المشكلة مستمرة وآثارها مدمرة، وقد طغت هذه الناحية في العصر الحديث على الفكر المسيحي المعادي للزواج والذي يرى أن الغريزة الجنسية ينبغي أن تكبت فاتجه الى الرهبانية يدعو لها ويشجع عليها ويفتح الأديرة ويضع لها أنظمتها - وعلى مدى التاريخ الطويل الذي انتشرت فيه الأديرة فشلت في أداء رسالتها لأنها معادية للطبيعة البشرية.

الغريزة الجنسية في الاسلام:

يقف الاسلام وسطا بين هذين الفكرين فهو يعترف بالغريزة الجنسية وأهميتها ولكنه يضعها في اطارها الصحيح فهو لا يرى رأي فرويد في سيطرتها التي لا تدفع - ولا يرى رأى من يكْبتها عن طريق الرهبنة - لكنه ينظمها ويضبطها، ويرى أنها من مميزات الجنس البشري فهي سبب بقائه وسبب انجاب الذرية التي تحقق رسالة الانسان في هذه الحياة.

وقد أزال الإسلام بذلك الفكر المعادي للزواج الذي ساد العالم المسيحي وحرم الرهبانية وقالها نبي الاسلام صريحة: (النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني) البخاري.

ووصل المتعة بالدين بهدف بقاء الجنس البشري واداء

رسالته في هذه الحياة يجعل التناقض غير موجود في ضمير الشاب المؤمن بين قوانين الحياة التي يمارسها - وبين تعاليم الدين التي يجب احترامها - والجنس طاقة بشرية طبعية تحتاج الى اشباع - ولكن الاستغراق الذي يجاوز حدوده المعقول هو الأمر المستنكر في الاسلام لأنه يضخم أحد جوانب الإنسان على بقية الجوانب الاخرى.

والأعضاء التناسلية ليست مقززة في التربية الاسلامية - فالطفل يعود الطهارة من صغره لاتصالها بالصلاة - وفي كتب الفقه تفصيلات كثيرة يدرسها الأطفال والشباب ليتطهروا ويستعدوا للصلاة التي هي أهم ركن في الاسلام.

والاسلام لا يثير الغريزة بل يمنع الاثارة في أي صورة من الصور وذلك منذ الصغر، فهو يوصي بألا تترك الفرصة للصغار للاطلاع على العورات قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء) النور /٥٨ - فهذا أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية ظانين أن الصغار لا تمتد أعينهم قبل

البلوغ الى هذه المناظر؛ بينما يقرر النفسيون أن المشاهد التي تقع عليها أعين الاطفال هي التي تؤثر في حياتهم المقبلة - والله سبحانه وتعالى يؤدب المؤمنين بهذه الآداب وهو يريد أن يبني أمة سليمة الاعصاب طاهرة القلوب نظيفة التصورات.

ثم ان الاسلام - لذلك - لا يبيح الاختلاط المثير ولا يبيح الخلوة ولا يبيح الملابس المثيرة لما لها من خطورة، فهو يمنع ابداء الزينة الا للزوج والمحارم: (ولا يُبدين زينتهن الا ما ظهر منها) ثم يقول: (ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن) الآية/٣١ النور- وينهى المؤمنات عن الحركة التي تعلن الزينة المستترة وتهيج الشهوات الكامنة وتوقظ المشاعر الهادئة: (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) النور/٣١، ومن ذلك الإثارة عن طريق اجهزة الدعاية والاعلام، ومن واجب المسلمين ان يطلبوا منع هذا.. ومن واجب ولي الأمر أن يمنعها فهو مسئول أمام الله وأمام الناس- والمسلم مطلوب منه أن يتعفف حتى عن النظر الى المرأة فليس له الا النظرة الاولى العفوية أما الثانية فهي عليه.

والاسلام بذلك يريد حماية المسلم من الأخطار النفسية التي يتعرض لها نتيجة لما يحدث في المجتمعات التي تظهر زينة المرأة فتثير الشهوات وتحدث الصراعات داخل النفس وتكون سببا من اسباب الكوارث عليها.

الزواج:

والزواج هو الطريق الطبيعي لاستجابة الغريزة- وذلك يتم في ظل الرعاية الالهية وقد جعله الله تعالى للبشرية ليكون سكينة وألفة ومودة- وبالزواج تتوحد القلوب تحت ظل العقيدة وهي أعمق ما يؤثر في النفوس- ومن هنا فقد حرم الاسلام الزواج بين المسلم والمشركة لأنها لا يجتمعان على عقيدة واحدة -والله سبحانه وتعالى يريد ألا تكون هذه الصلة ميلا حيوانياً- بل يرفعها حتى يصلها بالله تعالى ويربط بينها وبين مشيئته في نمو الحياة، ورضي بزواج المسلم من الكتابية لأنها تؤمن بأصل العقيدة وقد تهتدي الى الدين الحق.

والزواج يعصم الانسان الى حد كبير لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج -بل ان في اشباع الغريزة عن طريق الزواج أجر كما قال عليه السلام: (وفي بضع أحدكم صدقة فقالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون لهأجر!؟فقال عليه

السلام: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر فكذلك اذا وضعها في حلال كان له أجر) مسلم.

والاسلام لا يعتبر الحديث عن الغريزة عارا لأنه يصلها بأهداف علوية وهو لذلك يتحدث عنها في القرآن مبينا كثيراً من الجوانب التي يحتاج اليها الانسان في بيان الأحكام، فهو يتحدث عن حل المعاشرة الزوجية ليلة الصيام: (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) البقرة/١٨٧، وحرمتها لمن نوى الاعتكاف ولذلك فانه يقول في نفس الآية: (ولا تباشروهن وانتم عاكفون في المساجد)، وحرم اتصال المسلم بزوجته أثناء الحيض: (يسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن)، ثم يقول: (فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) ومعنى ذلك الاتيان من منبت الاخصاب دون سواه - فليس الهدف هو حصول اللذة - انما هو امتداد الحياة ابتغاء رضوان الله، ولذلك فانه يقول في نهاية الآية: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) البقرة/٢٢٢، يتحدث عن ذلك اثناء الحديث عن أحكام الزواج والطلاق والعدة ويرفع هذه العلاقة عن أن تكون مجرد متعة جسد.

ب - الصيام:

فاذا لم يستطع الشاب الزواج لسبب من الأسباب فعليه أن يلجأ الى الصوم فانه له وقاية والرسول الكريم يقول في ذلك: (من استطاع منكم الباءة - تكاليف الزواج - فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء - وقاء) البخاري، فالصيام وسيلة ضبط قوية فعالة ذلك لأن الانسان يمتنع مختارا عن كثير من لذائذ الحياة المباحة ويحقق كيانه بذلك.

جـ - ضبط الغريزة.

والاسلام يضبط الغريزة ويوجهها - والضبط يأتي أولا من ربط القلب البشري بالله ومراقبته في كل عمل ومن ربط المسلم باليوم الآخر - فالانسان يتلهف على لذائذ الحياة حين يحس بأن فرصته في الدنيا هي الفرصة الوحيدة فهو ينتهزها قبل أن تفوت - لكن المسلم يؤمن بأن متاع الدنيا قليل وأن الآخرة خير لمن اتقى..

والإسلام يعرض الى جانب اللذة الجنسية الوانا من لذائذ الحس والنفس ينالها من يحاولون ضبط أنفسهم في هذه الحياة عن الاستغراق في لذائذها المحببة لتبقى لهم انسانيتهم الرفيعة،ومن هنا فان القرآن الكريم يجمع في آية

واحدة أحب شهوات الأرض الى نفس الانسان: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث) آل عمران/١٤ - ثم يبين للناس أن هذا كله متاع الحياة الدنيا، ولكن هناك لذائذ اخرى، وهي ما ذكرت في الآية الأخرى: (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) آل عمران/١٥ - كما ان لهفة الانسان على المتعة الجنسية تضبط حين يعرف المرء في هذه المتعة وسائل لانتشار النوع ويربط بين نزوة الجسد العارضة وغايات الانسانية الدائمة ورفرفة الوجدان الديني ويمزج بينها في لحظة واحدة وحركة واحدة واتجاه واحد ذلك المزج القائم في كيان الإنسان وأنه خليفة الله في أرضه المستحق لهذه الخلافة بما ركب في طبيعته من قوى وبما أودع في كيانه من طاقات.

والاسلام مع هذا يستنفد طاقات الانسان النفسية في اتجاهات عليا لا تلجأ الى المتاع الحسي وحده - كما يستنفد هذه الطاقات في اتجاهات عليا بقصد تحويل الفائض منها عن أن يستغرق في متاع الحس، فهو لذلك حث - عن

طريق الإعلاء - على الفروسية لأنها رياضة ترفع النفس عن محيط الحس وتوجه الطاقة الى منصرف نبيل - وهو يقيم نظام المجتمع كله بصورة لا تحصر الدوافع الفطرية ولكنها تمنع الاسراف في كل شيء والله لا يحب المسرفين.

من هنا فان الشاب المسلم لا تظهر عنده العقدة النفسية لأنه لا يوضع بين ضغطين متعارضين ضغط من ضميره الذي كونه من الدين والعرف لا يجوز وجودها - وان وجدت أخمدت، وضغط غريزته عندئذ تتكون العقد النفسية - أما الاسلام فقد ضمن سلامة الانسان من هذا الصراع بين شطري النفس البشرية من نوازع الشهوة واللذة، وحب الارتفاع والتسامي ولكل نشاطه المستمر في حدود التوسط والاعتدال.

الحب:

ويأخذ الحب كثيرا من التفكير والوقت في العصر الحديث، وما اكثر مشكلاته وما أكثر الأمراض النفسية التي تنجم عنه، ولعل أغرب تجارة كسب منها التجار ألوف الملايين هي تجارة الحب وصناعة السينما ونحوها، ولقد ساعد ذلك على افساد عواطف الشباب في هذا الجيل الذي ولد بعد الحرب وقالوا له: ان الحب جميل وساحر، وأصبحت

كلمة الحب صورة خيالية لا يستطيع الانسان أن يصل اليها فيعجز الشاب عن ممارسة الحب وعن الرضا العاطفي، وبذلك يختلف الانسان عن افكاره لأن الواقع يصدمها، ولذلك فلا بد وأن يعرف المجتمع الانساني صاحب الثقافة الغربية حقائق الحياة جيدا، وأن يقنع الانسان بأن يتعامل مع الحب كعاطفة انسانية لا كشيء مدمر فتاك يطلب الولاء والتقديس، ولا بد من منع وسائل الدعاية من نشر المفاهيم الخطيرة حول هذا الموضوع حتى نحفظ الشباب من الدمار الذي ينتظره.

والاسلام يبدأ في علاج هذه المشكلة مع الشباب بايجاد الصلة القوية بالله فهو نعم المعين لعبده في كل وقت وقد فتح الباب أمام الجميع: (واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) البقرة ١٨٦ - وهو يناقش المشكلة مناقشة هادئة حتى يصل الى الاقناع الى قلب الشاب فيساعده بذلك على التغلب على مشكلته. جاء شاب الى النبي صلوات الله عليه وطلب منه أن يصرح له بالزنى لأنه تمكن منه فلا يستطيع التخلي عنه وبدأ النبي عليه السلام يناقشه في هذه المسألة قال له: أترضاه لأمك؟ قال الشاب: لا قال النبي الكريم: وكذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم ثم قال

له: هل ترضاه لأختك؟ قال الشاب: لا، قال النبي الكريم: وكذلك الناس لا يرضونه لأخواتهم. ثم قال النبي الكريم: هل ترضاه لابنتك؟ قال الشاب: لا ، قال النبي الكريم: وكذلك الناس لا يرضونه لبناتهم، فاقتنع الشاب بهذا المنطق وطلب من النبي الكريم أن يدعو له بعد أن عزم في نفسه على الاقلاع عنه فدعا له النبي عليه السلام ومسح على قلبه وشفي الشاب من هذه المشكلة - رواه أحمد.

وتذكر الانسان لله تعالى في أشد الأوقات يحميه من الوقوع في الخطأ، وهذا ما حدث مع النبي يوسف عليه السلام - فمع أنه كان غلاما في بيت وزير يعيش في مظاهر النعمة، ومع أن التي راودته عن نفسها هي سيدته الا أنه رفض الفاحشة في اصرار رائع قائلا: (إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) يوسف /٢٣.

والتاريخ الإسلامي يحدثنا أن الشاب المسلم عبد الله الذي لقب بالقس لكثرة عبادته وورعه أحب سلامة المغنية حبا ملك عليه فؤاده وجعل الناس يطلقون عليها: سلامة القس - وقد استعملت معه كل وسائل الاغراء فلم تفلح في جذبه الى ما تريد وأخيرا صرحت له بما تريد وقالت له: اني أحبك فقال: وأنا والله الذي لا اله الا هو - فقالت

وأشتهي أن اضع فمي على فمك فقال: وأنا والله الذي لا اله الا هو قالت: فما يمنعك فوالله ان المكان لخال فقال: يمنعني قوله تعالى: (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) الزخرف /٦٧ - ثم خرج ولم يعد اليها بعد ذلك أبدا.

مشكلات الشباب المعاصر.

وجاء العصر الحديث ليغرق الشباب بمشكلات متعددة، وكانت هذه المشكلات خطيرة ومتشابكة ذلك لأن الغرب قد تقدم صناعيا، واستعمر البلاد الاسلامية كلها تقريبا وقام بنشر افكاره بين الشباب وهو في مركز القوة والتوجيه، وربى مجموعات كبيرة من الشباب المسلم على مفاهيمه الجديدة وملكهم قيادة الحكم والتوجيه والتربية ووجد الشباب نفسه في حيرة لا يدري كيف يخرج منها وأحس بالمشكلات تحيط به وتملك عليه نفسه.

حول الطبيعة البشرية:

وكان أهم هذه المشكلات الحديث حول الطبيعة البشرية هل الانسان أصله حيوان سار في طريق التطور أم أنه مخلوق متميز؟.. ولهذه النظرة الى الإنسان آثارها العميقة في نفس كل شاب بل آثارها المدمرة حين يحس بأن

أصله حيوان كبقية الحيوانات في هذه الدنيا.

وفي عام ١٩٧٨م أصدر البروفسور ادوارد نلسون أحد مؤسسي علم الأحياء الاجتماعي (وهو محاولة لدمج العلوم الاجتماعية بعلم الاحياء) والاستاذ بجامعة بيركلي ثم هارفارد كتابا بعنوان: حول الطبيعة البشرية يقول فيه الكاتب عن علماء البيولوجيا: إن علماء القرن الماضي كانوا يعتقدون بأن الانسان لا يتميز عن بقية الثدييات بيولوجيا الا ببعض الصفات الفسيولوجية التي اكتسبها من خلال تطوره وارتقائه كانتصاب القامة وتطور تركيب الاطراف الأمامية واتساع الجمجمة الذي بدأ يسمح بنمو ومقدرة المخ.. الخ.

وجاء علم القرن العشرين لكي يكتشف أن الانسان نوع متميز منذ بدء الخليفة وأن امتيازه متطور في خلاياه التي تتضمن صفات خاصة به وحده ينقلها الى ابنائه وأجياله، وتتطور هذه الخلايا حاملة خصائصه الوراثية (الجينات) تطورا خاصا رغم تأثره بما يكتسبه الانسان من معلومات وقدرات جديدة في صراعه ضد الطبيعة، وقال الكاتب عن علماء الاجتماع الوضعيين والتاريخيين كالماركسيين: انهم كانوا يعتقدون بأن الانسان توقف غالبا عن التطور البيولوجي والفسيولوجي وأن تطوره انتقل الى مجال المخ والجهاز

العصبي نتيجة دخوله في مرحلة تكوين المجتمعات أي أن تاريخ الانسان أصبح تاريخا اجتماعيا فقط وليس تاريخا بيولوجيا - وأن مخ الإنسان وقدرته العصبية وحدها هي التي تتغير مع مكتسبات العلوم والتكنولوجيا وأدوات الانتاج وأساليبها، ومع تسليمهم بأنه ليس للانسان أي تميز بيولوجيٍّ يفصله عن عالم الثدييات الحيواني الا ببعض الصفات الفسيولوجية تتجسد في بعض المهارات التي تمارسها اعضاؤه، والتناسق المتطور لجهازه العصبي ومركزه في المخ.

وجاء العلم الحديث لكي يكتشف أن للانسان صفات ثابتة لا يلحقها أي تغيير لأنها صفات تحمل خلاياه الوراثية كأنها بصمات أصابع شخص واحد لا يتغير طوال عمره - وان المكتشفات الجديدة تضاف الى الصفات الثابتة ولا تمحوها.

وقال الكاتب عن علماء الأنثروبولوجي: ان أصحاب هذا العلم الجديد نسبيا كانوا يحاولون تفسير الوجود الاجتماعي والتاريخي للانسان عن طريق تركيبة نظرية تجمع بين علماء الآثار وتاريخ التكنولوجيا وتاريخ العلم وتاريخ العقائد والفنون يربط بينها تصور فسيولوجي اجتماعي،وأنهم كانوا يفسرون «التغيرات» والاختلافات التي شهدها تاريخ

البشرية على أساس تبادل التأثير بين تطور استخدام الانسان لأعضائه ومهاراته ومعارفه بين التحولات الاجتماعية المختلفة صغيرة أو كبيرة فكانوا قادرين على الاحساس بالتمايزات بين الثقافات المختلفة، ولكنهم لم يضعوا في اعتبارهم الخصائص الواحدة التي تكررت في كل أنواع السلوك البشري واللغات والثقافات ولدى كل الأمم والحضارات والتي تكاد تكون من السمات التي يتميز بها النوع الانساني ويظل يتميز بها أفراداً أو جماعات وأمما لكي تفصله بشكل عام عن عالم الحيوان - وتنتج له الوضع المناسب للخروج من سجن الطبيعة وحدودها الى رحاب الحرية التي انتزعها اعتمادا على هذه الصفات الخاصة به وحده والتي تشترك فيها كل فصائله وانواعه - أي كل الأمم والحضارات والقوميات، ويقول ويلسون: ان نظرية التطور الداروينية - نسبة الى داروني - من أكثر علوم القرن الماضي تأثرا بالنظرية الجديدة - انها على ضوء هذه النظرية لم تعد قادرة على تفسير سلوك الافراد رغم احتمال صلاحيتها لتفسير جانب من السلوك الخاص بالجنس البشري ككل - فالقول بأن صراع البقاء يؤدي الى بقاء الأصلح قد ينطبق على الأجناس بوجه عام ولكنه على

المستوى الفردي كان يقضي بأن تختفي القيم الأخلاقية تماما والتي يقوم عليها جزء من أسس أي مجتمع.

وهذه النظرة الجديدة حول الطبيعة البشرية تؤيد نظرة الاسلام الى الانسان وفي الوقت نفسه تفيدنا في علاج هذه المشكلة لأنها تأتي من الغرب الذي أوجد هذه المشكلة.

الانسان في نظر الاسلام:

الانسان في نظر الاسلام مخلوق متميز خلقه الله من تراب ونفخ فيه من روحه وطلب من الملائكة أن يسجدوا له وعلمه الاسماء كلها ولم يعلمها الملائكة، ووكل اليه خلافته في الأرض يقوم بعمارتها ويحقق العدل فيها، وجعله قريبا منه يجيبه اذا دعاه وينصره اذا استنصره ويوضح الحديث القدسي الذي رواه البخاري مقدار اهتمام خالق الانسان بالانسان وذلك حين يقول: (أنا عند ظن عبدي بي وأنامعه، اذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، واذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وان تقرب اليَّ شبرا تقربت اليه ذراعا، وان تقرب اليَّ ذراعا تقربت اليه باعا، وان أتاني يمشي أتيته هرولة) هكذا يكون الانسان قريبا من خالقه يعامله بلون من ألوان الرعاية والتدليل وذلك حين يتجه الانسان الى خالقه؛ وفي حديث آخر يخاطب رب العزة

الانسان فيبين له من هو ويوجهه التوجيهات التي تفيده في حياته وذلك حين يقول له: (ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كل شيء لك فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له، ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني فان وجدتني وجدت كل شيء وان فتني فاتك كل شيء، وأنا أحب اليك من كل شيء).

والموت في الاسلام ليس نهاية الانسان- بل انه محطة انتقال الى الابد الذي لا نهاية له الى دار الخلود الى حيث يقال للمؤمنين: (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) الزمر/٧٣، ويرون ما هم فيه من نعيم وتكريم فيقولون: (الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العالمين) الزمر /٧٤، فالانسان في الاسلام مزدوج الطبيعة- وهو لذلك متوازن لأن الاسلام يتعامل مع النفس البشرية بضعفها وقوتها فلا تطغى ناحية على أخرى والوجود الذي يقوم نظام الحياة فيه يقوم على أساس الحياة الشامل لأنه من صانع الوجود والانسان.

والمسلم متميز على غيره من بني الانسان بأنه غير متورط في عالم المادية بينما الانسان في الغرب تورط في الماديات

تورطا لا يسوغ له القيام بمهمة تخليص الانسانية من ورطتها في المادية- والاسلام يرى ان المال وسيلة لا غاية، وصاحب المال له قيمة بمقدار ما ينفق في أوجه الخير لا بما يكنز أو يستغل أي نوع من أنواع الاستغلال، وهنا أمور أسمى من المال ولها أثرها في تحقيق السعادة للفرد والمجتمع كالعقيدة والاخلاق والعلم والشعور بالمسئولية وتحقيق انسانية الانسان.

ولا بد من الاهتمام بالفضائل والاخلاق والاعمال الصالحة بالنسبة للفرد مع ربه ومع نفسه ومع مجتمعه- وبالنسبة للمجتمع مع خالقه ومع أفراده ومع المجتمعات الاخرى، وما ذكر القرآن الإيمان في القرآن الا وذكر معه العمل الصالح، والعمل الصالح يشمل كل شيء في هذه الحياة يساعد المسلم على تحقيق رسالته سلبا او ايجابا مع النفس أو مع الافراد أو مع المجتمعات الأخرى- بل ان الايمان يغيب عن المسلم حينما يرتكب رذيلة وفي الحديث الشريف: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن) البخاري.

والى جانب هذا كله فان الانسان المسلم في نظر الاسلام مخلوق متميز عن غيره من بني البشر لأنه يحمل

رسالة سامية هي تحقيق خلافة الله في الأرض وهذا التميز يأخذ طابع الشكل كما يأخذ طابع المضمون.

التميز في الشكل:

يتميز الانسان المسلم بالرجولة والخشونة ومن هنا فان الاسلام يحرم كل ما يحد من هذه الرجولة او يؤثر عليها- ومن ذلك انه حرم على الرجال الأشياء التي تتحلى بها النساء كالذهب والحرير ذلك لأن الاسلام دين الجهاد والقوة وهو لذلك يريد أن يصون رجولة الرجل من مظاهر الضعف والتكسر والانحلال، ولذلك فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبس المعصفر يروي مسلم عن علي رضي الله عنه قال: نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التختم بالذهب وعن لبس القسي (نوع من الحرير) وعن لباس المعصفر، وعن ابن عمر قال: (رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليَّ ثوبين معصفرين فقال: (لا تلبسوا الحرير فان من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة) ورأى النبي صلوات الله عليه خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال: (يعمد أحدكم الى جمرة من نار فيحملها في يده) فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ

خاتمك فانتفع بـه فقـال: (لا والله لا آخذه وقد طرحه رسـول الله صلى الله عليه وسلم) البخاري، ويروى ابن ماجة عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حريرا فحمله في يمينه وأخذ ذهبا فحمله في شماله ثم قال: (ان هذين حرام على ذكور أمتي حل لاناثهم) وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي عثمان قال: كتب الينا عمر ونحن بأذربيجان: يا عتبة بن فرقد انه ليس من كدك ولا كد أبيك ولا كد أمك فاشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك واياكم والتنعيم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير.

وكما يحافظ الاسلام على رجولة الرجل فانه يحافظ على أنوثـة الأنثـى حـتى يتفرغ كـل منهما لرسالتـه وحـتى يبقى لكل نوع منهما خصائصه التي يستطيع بها ذلك- وهو يحرم على كل نوع منهما أن يتشبه بالآخر لأن في ذلك افسادا للمجتمع الاسلامي يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال) البخاري، والتشبه يكون في الكلام وفي الحركة وفي المشي وفي الملبس، وقد روى الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ممن لعنوا في الدنيا وأمنت الملائكة على لعنهم رجل جعله الله ذكرا فأنث نفسه وتشبه

بالنساء وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال)، كما روى أبو داود عن أبي هريرة قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل)، وروى البخاري عن ابن عباس قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء).

والى جانب هذا فان الاسلام يحارب الترف الذي يهدد الأمم بهلاكها- والترف مظهر للظلم الاجتماعي وفيه يقول الله تعالى: (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) الاسراء/١٦- ولذلك فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استعمال آنية الذهب والفضة لأنها من الرصيد العالمي للنقد فلا ينبغي استخدامهاالا في الحدود المرسومة لها قال عليه السلام: (ان الذي يأكل ويشرب في آنية الذهب والفضة انما يجرجر في بطنه نار جهنم) مسلم.

وفي تناول الطعام لا بد وأن يتميز المسلم فيأكل بيده اليمنى، ويروى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تأكلوا بالشمال فان الشيطان يأكل ويشرب بشماله) وجلوس المسلم لا بد وأن يكون مغايرا لجلوس غيره يروى

أبو داود عن الشريك بن سويد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كنت جالساً هكذا، وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأتُ على إلية يدي (اللحمة التي في أصل الابهام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتقعد قعدة المغضوب عليهم؟) والرسول الكريم يبعد المسلم عن أن يجلس جلسة الكفار الذين غضب الله عليهم.

واليهود والنصارى لا يصبغون شعورهم - والتميز يقتضي أن يصبغوا - يروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم) والمشركون يحلقون لحاهم ويبقون شواربهم وقد طلب النبي الكريم تميز المسلمين عن المشركين في ذلك يروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب) رواه مسلم.

والاسلام يحب نظافة الجسم والثوب والشارع وكل شيء- ومن هنا كان الوضوء والاغتسال وأخذ الزينة عند كل مسجد- ومع ذلك فهو ينفر المسلمين من أن يكونوا كاليهود في عدم الاعتناء بأفنيتهم يروى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ان الله طيب يحب الطيب،

نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود) الترمذي.

وبيوت الكفار عادة تكون فيها الصور والتماثيل اعجابا او تقديرا أو زينة- وقد ينقلب هذا في يوم من الايام الى عبادة أو ما يشبهها- ولذلك فان النبي الكريم يقول: (ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه تماثيل) مسلم؛ ثم يشدد على ذلك تشديدا واضحا حين يقول: (ان من اشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور) متفق عليه.

وقد درج غير المسلمين على أن يقوموا تحية للقادم وتعظيما له فقال النبي عليه السلام: (لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا) رواه أبو داود، كما تعودوا من الاكثار في الثناء عليه فنبههم النبي الكريم الى أن المجتمع الاسلامي ينبغي أن يكون متميّزاً عن غيره من المجتمعات وأن يكون مقلَّدا لا مقلِّداً، يقول الرسول الكريم في الحديث الذي رواه البخاري: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ولكن قولوا عبد الله ورسوله).

وصام رسول الله عليه الله سلام يوم عاشوراء وأمر بصيامه فقال الصحابة: يا رسول الله انه يوم تعظمه اليهود فقال عليه السلام: (فاذا كان العام المقبل ان شاء الله صمنا

اليوم التاسع فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم) الموطأ.

وقد جعل الاسلام اعياد المسلمين مرتبطة بالشعائر الاسلامية- وحين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ووجد الأنصار يلعبون في يومين قال: ما هذان اليومان؟ قالوا يومان كنا نلعب فيهما في الجاهلية فقال عليه السلام: (قد أبدلكم الله خيرا منهما يوم الأضحى ويوم الفطر) الترمذي.

وهكذا يحرص الاسلام على تميز المسلم في كل شيء فان المشابهة في الظاهر سبب للمشابهة في الأخلاق وقد تصل الى المشابهة في المعتقدات.

التميز في المضمون:

والانسان المسلم كما يتميز في الشكل فانه يتميز في المضمون ايضا- فالمسلم يحس بكرامته على الله تعالى وبمكانته في الملأ الأعلى وبمركزه القيادي في هذا الكون- وهذا كله يجعله معتزا بذاته لأنه يشعر بانتسابه الى الله تعالى وارتباطه بكل ما في الوجود - فالعقيدة الاسلامية تجعل المسلم انسانا كاملا وتعطي للحياة معنى

والإسلام وجه عناية بالغة إلى الجانب الإنساني في هذه الحياة ذلك لأن الشعائر - وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج - لا تأخذ الا جانبا قليلا من القرآن والسنة ومن كتب الفقه - وأطول آية في القرآن الكريم هي آية الدين في سورة البقرة - والتداين جانب هام من جوانب التعامل الانساني - ومع ذلك فالشعائر فيها جوانب انسانية - فالصلاة تحقق المساواة بين الناس جميعاً في وقوفهم صفوفاً متراصّة كما تمثل تعليم الطاعة للقائد في صلاة الجماعة وفي تنفيذ الديمقراطية حين يستفتح الامام على المأموم عند الخطأ- ثم إن الصلاة عون للانسان في هذه الحياة والقرآن الكريم يقول: (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين) الحج/٢٨ ، والزكاة تؤخذ من الغني لترد على الفقير- وهي لنفس الغني تزكية وتطهير وللفقير اغناء وتحرير- والصوم تربية لارادة الانسان على الصبر في مواجهة صعوبات الحياة وتربية لمشاعره على الاحساس بآلام غيره فيسعى الى مواساته- والحج مؤتمر فيه منافع للناس من أوجه مختلفة ففيه تتحقق المساواة وفيه التجارة وفيه الانسلاخ من الدنيا والتقرب الى الله تعالى.

وكل عمل يعمله الانسان يبتغي فيه وجه الله تعالى فهو عبادة وبخاصة تلك التي تبني المجتمع يقول الرسول الكريم: (أحب الأعمال الى الله سرور تدخله على مسلم تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دَيْناً أو تطرد عنه جوعا- ولأن تمشي مع أخ في حاجة أحب من أن تعتكف في هذا المسجد (مسجد المدينة) شهرا- ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه- ملأ الله قلبه يوم القيامة رضى، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزل الاقدام) البخاري، فالمجتمع الاسلامي هو مجتمع الحب والتعاون والتآلف وهو بعيد عن الحقد والحسد سواء أكان ذلك بالنسبة للأفراد أم بالنسبة للجماعات.

والحب في المجتمع الاسلامي أساسي ولن يؤمن المسلم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكرهه لها.

والمسلم يحس بأنه عضو هام في المجتمع وهو فيه راع ومسئول عن رعيته- والمسئولية عامة لكل فرد من انواع المجتمع- وشعور المسلم بهذه المسئولية يريحه ويجعله يحس بكيانه وبأهميته في مجتمعه.

والاسلام جعل للانسانية مبادىء تسير عليها فالناس جميعا إخوة من أب واحد وأم واحدة: (يا أيها الناس اتقوا

ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) النساء/١- والأخوة شاملة للبشرية جميعا والمساواة بين الناس مبدأ انساني اسلامي فلا تفرقة بين عنصر وعنصر أو لون ولون أو جنس وجنس: (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) الحجرات/٢٣. فالقيمة الانسانية للجميع واحدة ولا فضل لواحد على آخر الا بالتقوى والنبي الكريم يقولها واضحة: (يا فاطمة بنت محمد اعملي صالحا لا أغني عنك من الله شيئا) البخاري.

ومن أهم خصائص انسانية الاسلام أن يعمر المسلم الارض بالاسلوب الذي رسمه الله تعالى ونشر العدالة الكاملة فيها تحت أي ظرف من الظروف وفي أي مكان- ومع جميع الناس بل حتى ومع النفس لأن الله تعالى سيحاسب على ذلك كله: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا) النساء /١٣٥.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصائص

الانسان المسلم- وقد اختار الله تعالى الأمة الاسلامية لتحقيق هذه الخصيصة وجعلها خير أمة اخرجت للناس: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) آل عمران ١١٠.

ومن خصائص انسانية الانسان في الاسلام- العلم- ذلك لأن المعرفة سلاح- وكلما أوغل الانسان فيها اكتشف من أسرار الكون ما يزيده تعرفا على انسانيته- والعلم للفرد والمجتمع امكان على تحقيق الرسالة فان الله تعالى يرفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات.

وشخصية المسلم شخصية مستقلة لا تتأثر بالرأي العام اذا كان مخطئا ذلك لأنها ترى بعين الله وفي الحديث الشريف: (لا يكن احدكم إمَّعة يقول: أنا مع الناس ان احسن الناس أحسنت وان اساءوا أسأت- ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا وان أساءوا أن تتجنبوا اساءتهم- ومن هنا كان أفضل الجهاد عند الله كلمة حق عند امام جائر.

والمسلم في هذه الحياة يدافع عن الحق ويحمي اماكن العبادة كلها سواء أكانت اسلامية أم يهودية أم مسيحية- ويوضح ذلك القرآن الكريم في قوله: (أُذِنَ للذين يقاتلون

بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) الحج/٣٩/٤٠- ويلاحظ في هذه الآيات أنه قدم الصلوات والبيع على المساجد- ذلك لأن المسلم بطبيعة عقيدته سيدافع عن اماكن عبادته ولكنه قد لا يدافع عن بقية اماكن العبادة ولذلك فان الآية الكريمة قدمت الصوامع حتى يحس المسلم بأن الدفاع عنها من تمام رسالته.

واذا كان الانسان في كل المجتمعات قديمها وحديثها يقاتل لتوسيع رقعة الأرض أو لارضاء كبرياء مجتمعه أو لاستعباد الآخرين وقهرهم ونهب خيراتهم أو لتحقيق المصالح الخاصة والتكالب على متاع الدنيا- ويستخدم الطاقات في خدمة الصراع الذي يحدث بين الافراد والجماعات والدول والشعوب التي تتصارع على الارض كلها- ويسعى بعضها الى سحق بعض وتكون القوى الانسانية كلها في خدمة الشيطان- اذا كان الامر كذلك- فان الاسلام شرع الجهاد ليحارب كل هذه الأشياء- يقاتل الطغاة الذين يسخرون شعوبهم من أجل حريتها ويحرر تلك

الشعوب من استعباد الطغاة لها- وذلك بدعوتهم الى عبادة الله الواحد الأحد في جميع الاتجاهات كما يتحررون من القيم الزائفة ومن العبودية لغير الله- وهذا يحقق معنى الآية الكريمة: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) النساء/٧٦.

كما أن من مهمة المجتمع الاسلامي أن يقاتل ليحرر المستضعفين في هذه الأرض: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا) النساء ٧٥/٧٦. وحتى في الهزيمة يتميز المسلمون عن اعدائهم فلا وهن ولا ضعف وهم الأعلون وفي مكان القيادة: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء) آل عمران/٤٠.

ومعنى النجاح في الاسلام يتغير عن معناه عند سائر

الأمم- فهو في الاسلام يكون بأداء الواجب على اكمل وجه وبالنية- والله سبحانه وتعالى يجازي الانسان على ذلك لا على النتائج، والمسلم الحقيقي هو النموذج الحي للأمن والاستقرار- الأمن من العوارض المادية والآفات والكوارث الواقعة بأن يأمن على نفسه وعلى عقيدته وعلى ماله وعلى عرضه وعلى حريته- ثم الأمن في الآخرة من عذاب الله تعالى- والآية الكريمة الآتية توضح كيف يكون الانسان المسلم مع ايمانه بالله وأدائه لرسالته في أمن في الدنيا والآخرة: (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون، نزلا من غفور رحيم) فصلت ٣٠/٣٢.

والاسلام حريص على المسلم- حريص على مواهبه واستعداداته واتجاهاته يربيها وينميها وفي الوقت نفسه لا يكبتها ولا يتركها تتبدد هنا وهناك من غير فائدة- كما يحدث في المجتمعات المعاصرة- الاسلام لا يكبت الطاقات لأنها موهبة من الله خالق البشر- وكل ما وهبه الله هو خير ينبغي أن ينميه ويستغله في الخير ويشكر فضل الله عليه-

والمسلم لا يبدد هذه الطاقات لأنها نعمة فهي تنفق في المصلحة الخاصة والعامة وفي تحقيق الرسالة- المسلم يوجه هذه الطاقات للخير وفي الخير- للفرد والأمة وتكون الفائدة في الدنيا والآخرة.

والانسان غير المسلم يحس بأنه يعيش في ضياع- لا يعرف لماذا جاء ولا الى أين ينتهي؟ وينشد:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت

ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت

وسأبقى سائرا ان شئت هذا أم أبيت

كيف جئت كيف أبصرت طريقي لست أدري؟

لكن الانسان المسلم يعرف الاجابة عن كل هذه الاسئلة لأنه انسان صاحب رسالة لنفسه ولدينه ولمجتمعه كما حدد الله سبحانه وتعالى وهذا عكس الفلسفات البشرية فهي متأثرة بقصور الانسان وملابسات حياته فهي لذلك تقصر عن الاحاطة بجميع الاحتمالات في الوقت الواحد- وقد يعالج ظاهرة فردية او اجتماعية بدواء يؤدي بدوره الى بروز ظاهرة أخرى تحتاج الى علاج جديد لأن الفلسفات البشرية تقصر عن الاحاطة بالنفس البشرية وكل أطوارها وأحوالها.

وضع الدين في المجتمع الاسلامي:

ومن المشكلات التي يجدها الشاب في العصر الحديث في مجتمعاتنا الاسلامية وضع الدين وهل هو خاص بالمسجد أم أنه يتناول كل جوانب الحياة- بل أحيانا يجد في بعض الفلسفات الغربية من ينكر الدين تماما ويرى أنه من رواسب الماضي أو أنه مخدر للشعوب.

فقد غزت المدنية الغربية البلاد الاسلامية وجاءت معها أفكارها ووسائلها وقيمها وأخلاقياتها وأساليب تربيتها- وكان من أثر ذلك أن تغير الكثير من مظاهر حياتنا الخاصة والعامة- كما تغيرت نظم الحكم والادارة والقانون وبالتالي تغير نظامنا التعليمي وحل محله تعليم جديد يهتم بالناحية المعرفية وحدها- ولا يهتم بالروح ولا بالعواطف والسلوك والاتجاهات ولا بالقيم الدينية وأفقدنا هذا القدرة على التحكم في حاضرنا، لأنه نما في كثير من جوانبه في بيئة غير بيئتنا وأصبحنا تابعين لغيرنا في مجال الحياة الفكرية والاجتماعية وشلت ارادتنا وقلت مقاومتنا شيئا فشيئا حتى يمكن أن نقول انها توقفت، وترتب على ذلك أننا اهتممنا بالقشور وتركنا اللباب واعتنينا بالمظاهر وتركنا الجوهر، وأصبنا بذلك بانفصام في شخصيتنا،

وأصبح هناك ازدواجية في المجتمع بين الضمير ومستوى الأداء -بين القول العمل- بين الايمان والسلوك- بل وأصبح المسلمون يفهمون الاسلام كما يفهم المسيحيون المسيحية- فالاسلام خاص بالصلاة والصيام وبقية الشعائر- أما القيم والأخلاق وما الى ذلك فهي بعيدة عن اسلام المسلم مع أن العبادة في الاسلام شاملة لكل شيء يفعله المسلم ما دام ذلك يهدف الى تحقيق رسالته في هذه الحياة.

وينظر الشاب المسلم الى المجتمعات حوله فيجدها قد تخلت عن الدين وعن قيمه- ذلك لأن العداء بين المفكرين والكنيسة في العالم المسيحي قد أدى الى بروز العديد من الفلسفات الوضعية التي تركت بصماتها بوضوح على الفكر وعلى التعليم- ولكن هذا لم يحدث بالنسبة للدين الاسلامي- ومع ذلك فان الشاب المعاصر نظرا لأنه يرى الثقافة الغربية تنتشر هنا وهناك وتترك آثارها على كل ناحية فانه يتأثر بها شعوريا ولا شعوريا- وهذا هو الذي يجعل بعض المفكرين يسأل: هل علاقة الانسان بالحياة قد فهمت فهما واضحا؟- وفي الغرب يقولون فشل التعليم الديني في آداء رسالته وهم يقصدون التعليم الكنسي- ولكن الدين الاسلامي به شمول يعجز البشرية قاطبة عن الاحاطة به لأنه نظام شامل

للحياة كلها- ونحن نقصد بالتعليم الديني في الاسلام صياغة المعارف الانسانية كلها من تصور اسلامي صحيح- وحبذا لو قلنا عنه التعليم الاسلامي ليظهر تفرده من اول لحظة.

وينظر الشاب المسلم المعاصر فيرى اهتمام الافراد والجماعات قاصرا على النواحي المادية وحدها- وبذلك أصبح الانسان خطرا على نفسه باستخدام المهدئات والمخدرات وما يؤدي به الى الامراض النفسية والعقلية- وخطرا على المجتمعات من حوله- ويكفي مخزون القنابل الذرية لدى الدول العظمى- وما نراه من انتشار تلوث أخطار البيئة وانتشار الصواريخ عابرة القارات ثم عدم كفاية المواد الغذائية- وذلك يهدد بانتشار المجاعات وفناء البشرية، وقد أصبحت السياسة مناورات لا أخلاقية- ولم يعد النصر للحق وأصبح من المسلمات أن الغاية تبرر الوسيلة، وبذلك أصبح الانسان كطائر يطير بجناح واحد وفي هذا ما فيه من الأخطار التي تصيب الانسان في الصميم.

وينظر الشاب المسلم المعاصر الى مظاهر الحياة حوله فيجد أنها تسير بسرعة هائلة- وهكذا كل منتجات التقنية التي لا يكاد الانسان يقدر على مسايرتها- ثم ينظر الى تقنية التعليم فيجد أنها جد بطيئة- ولهذا يقول توماس كاريل في

كتابه الانسان ومشكلات الحضارة : (ان الحضارة آخذة في الانهيار لأن علوم الجماد قادتنا الى أرض ليست لنا فتقبلنا هداياها بلا تبصر ولا تمييز، وأصبح الفرد ضعيفا متلصصا فاجرا غبيا غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته).

ومن مشكلات الشاب المسلم المعاصر أن يرى فساد القيم ينعكس على النظم التعليمية ذاتها فالرأسمالية والشيوعية خاليتان من القيم الدينية والأخلاقية- ولذلك فقد انحطت أساليب الصراعات بينهما الى أدنى المستويات- وأصبح من سمات هذا العصر فقدان القدوة الحسنة التي لها آثارها الواضحة في كل ناحية من نواحي الحياة- وأصبحنا نرى الاضطرابات والعنف والكبت والأمراض النفسية تعم كثيرا من الدول.

لقد تخلت المجتمعات المعاصرة عن الدين كأساس للأمة- وأصبح الخوف من الارتباط بأية قيمة أخلاقية أو دينية من سمات المعاهد التعليمية المعاصرة مع أن التعليم ينبغي أن يضيء حياة الانسان بتعريفه وبحقيقة وضعه في الكون والغاية من وجوده فيه وكيف يستطيع القيام برسالته... ولقد أصبحت نظم التعليم المعاصرة مقتصرة على نقل المعلومات وبذلك فقدت دورها التربوي في اكتساب المهارات

والاخــلاق والسلوك السلــيم- وفي تكوين الاتجاهــات العواطف وأصبح هدف الطلاب من تعليمهم في المدارس النجاح بأية وسيلة ليحصلوا على الشهادة وبالتالي ليحصلوا على الوظيفة المناسبة.

تربية الشاب المسلم المعاصر:

والاسلام يهدف الى تربية الانسان الصالح الذي يقوم برسالته على الوجه الأكمل وهذه التربية الكاملة المتكاملة تجعله قادرا على التحكم في نفسه وضبط تصرفاته والايمان بالمثل العليا التي يحيا لها ويموت في سبيلها جاعلا شعاره: (ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له) الانعام/١٦٢، وهذه التربية تجعل لدى المسلم القدرة عـلى الاستفـادة من اقصى مـا يصل اليه الانسان من الاستفادة التي تمكنه من أداء رسالته والتي تجعله ينتج أفضل ما يصل اليه الانسان، الاستفادة التي تمكنه من أن يفيد البشرية ويحقق هدف الاسلام السامي.

والشاب المسلم بذلك يستطيع أن يعيش حياته بقيمه وأخلاقه التي قررها الله له مع اسقاطه لكل القيم والاخلاق الواردة عن الغرب، ثم انه يريد أن يتعرف على النواميس الكونيـة التي اودعها الله له في هذا الكون المادي

ليستخدمها في ترقية الحياة- وحينئذ يحس بأن عمله كله عبادة.

والتقدم الحضاري الاسلامي روح تكمن وراء الانجاز المادي والفكري فإذا تطورت الروح تغير العالم من حولها والآية الكريمة: (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد/١١، تبين ذلك- ونلاحظ تعبير: أنفسهم- فهو الذي يحدث التقدم الحقيقي الذي يتكامل فيه الظاهر والباطن- وغاية هذا التعبير أن يتطابق القول والعمل وأن يعيش الناس القيم الاسلامية.

والاسلام لا يرفض التقدم المادي ولا الاستمتاع به ما دام ذلك في الاطار الاسلامي: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) الاعراف/٣٢ بل يحث عليه ويطلب أن يشارك أبناؤه فيه أو ان يقوموا به ما دام ذلك يساعدهم على تحقيق رسالتهم.

واذا كان الفكر الغربي المعاصر يفصل الدين عن العلم، وينكر بعض رجاله الدين ويعترف بعضهم به ولكنه يضعه في اطار محدد هو الكنيسة فان الاسلام ليس فيه هذا الفصل- فالعلم من الدين وهو يسير في تحقيق اهداف الاسلام وهذا يمكنه من قيادة حركة الحياة بالنسبة للفرد المسلم

وبالنسبة للمجتمع على السواء وفي ذلك يقول الله تعالى: (الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) الحج/٤١، والاسلام لا يقبل أن يستورد نظما غريبة عنه فتحدث آثارها السيئة في الافراد وفي الجماعات على السواء- هو يقبل التقنية الحديثة ولكنه يرفض القيم المصاحبة لها لأن له قيمه الخاصة به وهي التي تكون شخصية المسلم التكوين الذي يمكنه من اداء رسالته.

والاسلام دين عالمي في نظرته للفرد والأمة وفي علاجه للمشكلات ولا يرضى باقامة الحواجز التي نشأت في العصور المختلفة لأنه دين يهدف الى جمع البشر كافة تحت راية واحدة- وهو بالنسبة لهذا العالم الذي مزقته الاحقاد والتنافس بين أممه المختلفة- رسالة الحياة والامل في مستقبل عظيم مزدهر.

الوطنية الغربية:

ومن مشكلات الشباب المسلم في العصر الحديث المفهوم السائد للوطنية الغربية في البلاد الإسلامية وقد أصبحنا نرددها، ونجح الاستعمار في حملنا عليها- وأصبح هناك هوة بين بعض البلاد العربية والاسلامية وبعضها الآخر- كل

دولة تعمل على مصلحتها في الاطار الضيق ولو تعارض مع مصالح غيرها .

ومن خصائص الوطنيـة الغربية الكراهية والخوف فالوطن لا يبقى الا اذا كان للشعب ما يكرهه وما يخافه ولا يزال المسئولون هناك يثيرون الكامن من عواطف الخوف والكراهية .

ومن مظاهر الوطنية الغربية ما فعله الاستعمار في نشر الخمر والحشيش والافيون والربا والقمار والفجور بالقوة تارة وتحت عناوين براقة أخرى كالمدنيـة والتقدمية والحضارة وأصبحت مخترعات المدنية تستخدم في التدمير والاعتداء ونشر الكراهية والحقد .

وقد قسمت الدول الاسلامية الى دويلات تمشيا مع هذه النزعة مثل الشام التي قسمت الى أربع دول ، وأهم من ذلك الروح التي تسود هذه الدويلات وأصبح كل قطر اسلامي يتعامل مع غيره على أساس العداوة في أكثر الأحيان .

وتسير الجامعات في البلاد الاسلامية على تربية المواطن الصالح بالمفهوم الغربي ويصبح الشباب المسلم في حيرة بين مثل اسلامه وبين واقع حياته .

والاسلام يعنى بتربية الانسان الصالح وهو الذي ينظر

نظرة عامة الى المجتمع الانساني يحاول أن يحقق فيه رسالته عن طريق عمارة الارض ونشر الأمن والعدالة فيها: (والعصر ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) سورة العصر.

والاسلام لا يمنع الشاب المسلم أن يحب البيئة التي ولد فيها وتربى وعاش فلها حقوق الأخوة والجيرة والاصدقاء- والزكاة ينفقها صاحبها على الفقراء من أهل بلده وأقاربه، والرسول الكريم يقول عن مكة: (والله انك لأحب بلاد الله الى الله وأحب بلاد الله اليّ ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت)- ولكن الاسلام لا يرضى بالعصبية لأنه يرى أن الناس جميعا من أب واحد ومن أم واحدة وقد جعلهم الله شعوبا وقبائل ليتعارفوا لا ليستعبد بعضهم بعضا ولا ليطغى بعضهم على بعض والرسول الكريم يقول: (ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية) أبو داود، والقرآن الكريم يقولها صريحة مدوية: (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) المائدة/٢

مشكلة الحرية:

ومن مشكلات الشباب في عصرنا الحاضر مفهوم الحرية الذي جاء من الغرب واحتضنته فلسفات مختلفة وكلها تعني الانفلات من كل القيم والاخلاقيات بحث يكون الانسان حرا في كل ما يفعل وليس له ضابط خلقي أو اطار قيمي يفعل فيه ومن ذلك:

الوجودية:

وتلخيص هذه النظرية: انت مطلق الحرية فاصنع ما تشاء فان الحياة كلها سخط يورث القلق والضجر يقول سارتر (اليوم كغد والغد كبعد غد وأنه لا طعم لشيء ولا لذة ولا أمل في شيء) مجلة حضارة الاسلام، شعبان/١٣٩٨هـ.

فهي بذلك تريد جرف الانسان الى غابة من الحرية المطلقة غير الملتزمة بأي اطار أخلاقي مثالي- غابة تسودها الفوضى وتظهر انعكاساتها السلبية على كيان الأسرة وعلى علاقات الناس بعضهم ببعض- وعلى علاقات الناس بالدولة- ولقد كان حصاد ذلك كله موجات الهيبز التي تسود أوربا في عصرنا الحاضر.

البراجماتية:

وهي فلسفة الفرد على حساب المجموع- وتضع معايير للتقدم والنجاح ولا تلقى بالا لعذاب المجتمع في سبيل صعود الفرد حتى تصل بالنظام الاقتصادي الى مرحلة الاحتكار والاستبداد والقهر المستتر تحت أردية الحرية، ونتائج هذا ما نشاهده من مظاهر التفسخ الاجتماعي التي تظهر دلائلها الآن في أمريكا وتدفع بالمئات الى الانتحار الجماعي.

فلسفة التربية الاسلامية:

وهكذا نرى هذه الفلسفات التي تفسر الحرية بالانطلاق الكامل الذي يدمر الانسان لأنها فلسفات بشرية تنظر للانسان من زاوية واحدة وتنظر اليه نظرة خاصة في وقت خاص- ومن هنا كانت الخطورة لكن فلسفة الاسلام في التربية تجعل مفهوم الحرية بعيدا عن هذا كله لأنها تحده بقيود الأخلاق الاسلامية وترفع الإنسان الى مرتبة عليا لأنه خليفة لله في هذه الارض يقوم بعمارتها في حركة كاملة بالاسلوب الذي يراه ولكن في اطار الاسلام ومع الالتزام بالقيم الاسلامية وبذلك يصبح مفهوم الحرية هو مفهوم

البنـاء- بنـاء الفرد وبنـاء المجتمع وبناء الامة وبناء الانسانية كلها.. واذا كانت الفلسفات الوضعية قد فشلت في تحقيق سلام الانسان مع نفسه رغم المؤتمرات العديدة التي تقوم بعقدها فان الاسلام نجح في تحقيق سلام الانسان مع الانسان،وفي تحقيق سلام الانسان مع الحيوان وسلام الانسان مع النبات وسلام الانسان مع الجماد لأن كل هذه الأشياء مخلوقة لله، واذا كانت الدول المتحضرة في العصر الحديث تحاول أن تثبت حقوق الانسان فان الاسلام قد فرغ من هذا كله منذ اربعة عشر قرنا وزاد عليه حقوق الكون كله على الانسان من حيوان ونبات وجماد.. الاسلام يبني والحضارات الحديثة تهدم وتلك هي الخلفية الثقافية لكل ما يقومون به في هذه الحياة.

ان الاسلام يحرم على المسلم أن يطأ بقدمه كسرة خبز أو ما يؤكل مما يفيد الانسان أو غيره من مخلوقات الله تعالى لأن في ذلك امتهانا للقمة التي حماها الله- فاحترام النعمة والمحافظة عليها سببه حاجة مخلوق من مخلوقات الله تعالى من ناحية وتقدير لجهد عامل من ناحية أخرى والى جانب ذلك ففيه ابتعاد عن الاسراف ومنع للفساد- ولو قارنا هذا بما يحدث في أمريكا مثلا لوجدنا البون شاسعا- ومن ذلك أن

ما يلقيه الشعب الأمريكي في القمامة في عام واحد يكفي العالم الثالث الجائع لمدة عام كامل.

المساواة بين الرجل والمرأة:

وما أكثر ما نادى المنادون في الغرب- ثم في الشرق- بالمساواة التامة بين الرجل والمرأة وما اكثر الخطوات التي اتخذوها في سبيل ذلك حيث فتحوا لها أبواب العمل في المجالات المختلفة التي تناسبها والتي لا تناسبها- وجعلوا التعليم واحدا للفتى والفتاة وكأن ليس لكل واحد منهما وظيفته في هذه الحياة- وساعدت أجهزة الدعاية والاعلام والجمعيات النسائية في نشر هذه المفاهيم بين الناس، وافتعلت المعارك بين الرجل والمرأة، ففلان نصير للمرأة وفلان عدو لها وتنشر الصحف دائما عن المكاسب التي حصلت عليها المرأة في دولة كذا ودولة كذا.

وسارت البلاد الاسلامية في هذا الاتجاه- ذلك لأن العالم الاسلامي اصبح في موقف المستقبل لا المرسل والمتأثر لا المؤثر- فالغرب قد ربى ابناء الاسلام وغرس فيهم المفاهيم والقيم التي جعلتهم يسيرون في اتجاهه وهم يظنون أن هذه الأشياء هي علامات التقدم والحضارة والمدنية... وكانت نتيجة ذلك ما لاحظه المفكرون وعلماء النفس من

ضياع أجيال واصابتهم بمختلف الامراض النفسية والعقلية لفقدانهم الرعاية والحنان والعطف والرعاية الطبيعية- وتركهم في المحاضن او مع العاملات في المنازل- كما كان من نتيجة ذلك تخلخل داخل كل اسرة من الأسر- لأن المرأة شغلتها وظيفتها عن رعاية اسرتها- وكان هذا فوق ما تحتمله المرأة- بل وفوق ما تحتمله الجماعات الانسانية.

وكانت هذه مشكلة حيرت الشباب المسلم من الجنسين الذي وقع في حيرة كبيرة من جراء هذه الأفكار التي تصب في اذنه ليل نهار بينما يرى واقع الحياة على غير ما يتوقع- وعلاج هذه المشكلة هي نشر الأفكار الاسلامية التي تنظم العلاقة بين الرجل والمرأة وتدعيمها بأحدث البحوث الغربية التي تناولت علاج هذه المشكلة والتي تبين أن المساواة بين الرجل والمرأة لا سند لها من علم او فكر سليم في اي ناحية من النواحي، وأن هناك فروقا بين الرجل والمرأة من الناحية البيولوجية ومن الناحية الفسيولوجية ومن الناحية السيكلوجية ومن الناحية العقلية، وان العالم اذا أراد أن يخفف من مشكلاته فلا بد وأن يعود بالمرأة الى وظيفتها الأولى وهي تربية الأجيال.

الفروق البيولوجية:

الدكتور الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل للعلم يبين الفرق بين الرجل والمرأة من الناحية البيولوجية في كتابه الانسان ذلك المجهول (أن الامور التي تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد في الاشكال الخاصة بأعضائها الجنسية والرحم والحمل- ان هذه الفوارق ذات طبيعة أساسية نابعة من اختلاف نوع الانسجة في جسم كليهما- كما أن المرأة تختلف عن الرجل كليا في المادة الكيماوية التي تفرز من الرحم داخل جسمها- فكل خلية في جسمها تحمل طابعا أنثويا- وهكذا تتكون أعضاؤها المختلفة- بل واكثر من هذا فهذا في جسمها هو حال جهازها العصبي)، وتوجد فروق ايضا كثيرة بين الرجل والمرأة في الوزن وفي العظام وفي القوة البدنية وغير ذلك.

الفروق الفسيولوجية:

ومن الناحية الوظيفية او الفسيولوجية فان اعضاء الجسم تتخذ شكلا يتناسب والاختلافات التشريحية فهناك فروق في الكبد وفروق في الدم وما الى ذلك.. يقول فيروسيه في دائرة معارفه:(انه نتيجة لضعف دم المرأة ونمو

مجموعها العصبي فاننا نرى مزاجها العصبي اكثر تهيجا من مزاج الرجل فتركيبها اقل مقاومة لأن تأديتها لوظائف الحمل والأمومة والرضاعة تسبب لها أمراضا قليلة أو كثيرة الخطر). كما يقول الدكتور درفاريني في دائرة المعارف الكبيرة:(ان المجموع العضلي عند المرأة أصغر وأخف منه بمقدار ٢٠ جراما في المتوسط فالرجل اكثر ذكاء وادراكا والمرأة اكثر انفعالا وتهيجا) كما يقول نيكوليه دبلين في دائرة المعارف الكبيرة: (ان الحواس الخمس عند المرأة أضعف منها عند الرجل).

الفروق السيكلوجية:

وهناك فروق بين الرجل والمرأة في العاطفة- والمرأة أكثر حساسية وتأثرا بالظواهر الطبيعية والمرأة لا تستطيع حفظ الاسرار- والمرأة يجذب انتباهها حادثة ما أكثر من فكرة- وانفعالات الرجال أعمق أثراً من انفعالات النساء ولكنها أقل بعكس النساء اللاتي تظهر عليهن الانفعالات الحادة الفجائية من غير كظم او اخفاء- وقد لوحظ أن جرائم الشباب هي التشاجر والقسوة والتشرد أما البنات فان جرائمهن هي الأمور الجنسية والكذب ومحاولة الانتحار.

الفروق العقلية:

تثبت الدراسات أن هناك فروقا في النواحي العقلية بين الرجل والمرأة يقول الدكتور جابر عبد الحميد رئيس قسم علم النفس في جامعة قطر في كتابه الذكاء وقياسه (لوحظ على الدوام أن الذكور يمتازون في نواحي القدرة الميكانيكية- كذلك يتفوقون على الاناث في الاختبارات العددية التي تتطلب الاستدلال - وتتفوق البنات في اختيار الدقة وفي استخدام الأصابع مع الادراك الكافي للتفاصيل).

فترات خاصة:

وهناك فترات خاصة تمر بها المرأة ولا يمر بها الرجل وتظهر فيها أمراض كثيرة تكون خلالها مضطربة قلقة لا تتمكن من أن تسير سيرا طبيعيا وهي حالات الدورة الشهرية والحمل والولادة والنفاس.. يقول فان دي فلد في كتابه الزواج المثالي :(أما الأعراض البدنية السائدة في المرأة قبل الحيض وخلاله فهي الشعور بالتعب والضيق الغامض- ويظهر الصداع غالبا فيمن اعتدن الصداع في هذه الفترات- ويزداد تدفق اللعاب ويتمدد الكبد ويتضخم ويحدث مغص

في الكيس الصفراوي ويضطرب الهضم كما تضطرب شهية الأكل- الى آخره.

المرأة في الاسلام:

ولا بد وأن يعرف الشباب المسلم بنوعيه رأي الاسلام في المرأة والرجل بعد أن عرفوا رأي العلم الغربي الحديث وأن يعرفوا الاجابة عن المساواة الكاملة في العمل وفي حق الطلاق والميراث وما الى ذلك مما يثيرونه بين لحظة وأخرى حتى يكونوا على بينة من أمرهم، ثم يقوموا بعد ذلك بتطبيق ذلك في المجتمع الاسلامي فلا يقعوا في المشكلات المختلفة التي وقع فيها المجتمع الغربي وأصبح يبحث عن طريق للخروج منها، ولكن هيهات أن يصل الى ذلك ما دام يعتمد على آراء بعض مفكريه مبتعدا عن هدى الله الذي خلق الرجل والمرأة وجعل لكل منهما وظيفته التي تتناسب وقدراته: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) الملك/ ١٤.

خلق الله آدم ليكون خليفة له في الأرض ليقوم بعمارتها واحقاق الحق في ربوعها: (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) البقرة/ ٣٠- وخلق حواء من آدم لتكون عونا له في هذه الحياة يسكن اليها ويطمئن قلبه بها- فالمرأة لذلك جزء من الرجل تكمله ويكملها ولكن مهمة كل

واحد منها تختلف عن مهمة الآخر والا لما كان هناك ضرورة لخلق نوعين من جنس واحد، والعلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على أساس عنصرين هامين في الحياة هما المودة والرحمة: (ومن آياتـه أن خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليهـا وجعـل بينكم مودة ورحمة) الروم/٢١، وهذان المعنيان تتعلق بهما جميع المعاني الأخرى من حب وانسجام- ونلاحظ ان الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالمودة والرحمة وسمى نفسه الودود الرحيم- وحين تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على المودة والرحمة فان ذلك يؤدي الى الاستقرار الذي يؤدي الى السعادة التي ترفرف على الرجل والمرأة وعلى الأسرة كلها، وبالتالي على المجتمع الاسلامي كله- وهذه العلاقة تقوم على العقل والعاطفة، وامتزاج العقل بالعاطفة يضع الأمور في نصابها- وبذلك يمكن التغلب على كل اختلاف او تنافر او خصام قد يحصل بين الزوجين.

ولقد حذر الله تعالى آدم وحواء من ابليس بقوله: (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) طه ١١٧، وبهذه الآية حدد الله سبحانه وتعالى مهمة الشقاء والعمل والكد والكسب وجعلها للرجل وحده ولو أنه أراد الشقاء للمرأة أيضا لقال: فتشقيا

بدلا من فتشقى- كما بين الله سبحانه وتعالى اختلاف وظيفة المرأة عن وظيفة الرجل في قوله: (والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى ان سعيكم لشتى) سورة الليل- فسعي المرأة مختلف عن سعي الرجل، ومهمة المرأة أن يسكن اليها الرجل فتخفف من آلامه وتهون عليه متاعبه بكل ما يلزمه من متطلبات الحياة- ثم هي بعد ذلك مصدر المودة والرحمة التي يحتاج اليها الانسان- فالراحة التي فقدها الرجل في الخارج وهو متحفظ في كل تصرفاته سيجد مكانها في بيته الراحة والسكن والاطمئنان.

ولقد كانت السيدة خديجة رضي الله خير سند للرسول صلوات الله عليه منذ رسالته وحتى وفاتها ومن هنا كان حزنه الشديد عليها طوال حياته حتى لقد غارت منها السيدة عائشة مع انها كانت ميتة- ومن الأمثلة الرائعة التي يحدثنا عنها التاريخ موقف ام سلمة زوج النبي الكريم وذلك حين اشتاق النبي وصحبه الى مكة فلما ذهبوا ليعتمروا وكانوا على بعد عشرين كيلو متراً من مكة وقف الكفار ليصدوهم عن الذهاب الى البيت وحدثت مفاوضات كان من نتيجتها ان عقد النبي صلوات الله عليه معهم معاهدة تنص على أن يرجع هذه السنة بدون دخول مكة حتى لا

تقول قريش: ان المسلمين دخلوا مكة عنوة وقهرا- فيكون على المسلمين العودة هذا العام على أن تسمح لهم قريش في العام المقبل بالدخول الى بيتها بأمرها- واقتنع الرسول الكريم وكتب العهد ولكن المسلمين حزنوا وقالوا: يا رسول الله: كيف نقبل الدنية على نفوسنا؟ لا بد وأن ندخل فكان النبي يقول لهم: (أنا رسول الله لن أخالف أمره ولن يضيعني) ولكن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا غاضبين وبخاصة وأن من بنود الاتفاق: أن من أسلم من الكفار وذهب الى محمد فعلى محمد أن يرجعه الى الكفار ومن كفر من المسلمين فليس لهم أن يردوه... فلما فرغ النبي من قصة الكتاب قال لهم قوموا فانحروا ثم احلقوا وذلك ليتحللوا من عمرتهم ويعودوا الى المدينة- فلم يقم منهم رجل- حتى قال ذلك ثلاثا- فلما لم يقم أحد منهم دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من المسلمين فقالت أم سلمة: يا رسول الله انهم جاءوا يريدون دخول المسجد الحرام مقصرين ثم منعوا وهم على بعد قليل منه فهم معذورون -ولكن اخرج ثم لا تكلم احدا منهم كلمة ثم تنحر بدنك وتدعو حالقك، فخرج فلم يكلم أحدا حتى فعل ذلك فلما رأى المسلمون ما صنع النبي زال عنهم الذهول وأحسوا خطر المعصية لأمر النبي صلى الله

عليه وسلم فقاموا عجلين ينحرون هديهم ويحلقون بعضهم لبعض حتى كاد يقتل بعضهم بعضا من الغم.

ثم هناك مهمة أخرى للمرأة لها أهميتها في استمرار الجنس البشري- وهي انجاب الاطفال وتربيتهم التربية الكاملة التي يحتاج اليها الطفل ذلك أن المرأة تتميز بالأمومة ويتجلى ذلك في قوله تعالى: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) النحل/٧٢

مواطن الاشتراك:

ولما كان الرجل والمرأة من جنس واحد فانهما يشتركان في أشياء هي التي يشترك فيها الجنس الواحد- فهما يشتركان في طبيعة التكوين للرجل والمرأة: (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) النساء/١- كما أنهما يشتركان في الكرامة الانسانية التي يقول الله تعالى فيها: (ولقد كرمنا بني آدم) الاسراء/٧٠- وبذلك تدخل المرأة والرجل على السواء- كما انهما يشتركان في حرية الاعتقاد فكل من الرجل والمرأة حر في أن يعتقد ما يريد وكل منهما محاسب على ما يعتقد- وليس هناك قهر او اجبار- والقرآن الكريم يحدثنا عن بعض أنبياء الله الذين كانت زوجاتهم كافرات بالله تعالى

كنوح ولوط عليهما الصلاة والسلام يقول الله تعالى: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) التحريم/١٠- وقد أباح الاسلام أن يتزوج المسلم من كتابية- يهودية أو مسيحية- بدون أن يجبرها على دينه.

والرجل والمرأة يشتركان في الثواب والعقاب وكل ما يترتب على الايمان من عمل ولقد أفاضت الآية الكريمة في ذلك يقول الله تعالى: (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) الاحزاب/٣٥.

وللمرأة مثل ما للرجل في الحقوق المدنية كالبيع والشراء والهبة والاجارة- ولها أن تتصرف في ملكها بأي تصرف وليس عليها وصي قبل الزواج أو بعده- وهذه الناحية لم تحصل بعض النساء في أرقى المجتمعات عليها حتى الآن- فهي قبل الزواج تحت وصاية الأب أو الأخ وهي بعد الزواج تحت وصاية الزوج- والنظام المالي في فرنسا

يجعل المرأة تابعة لزوجها.

فالزوج هو الذي يدير الأموال المشتركة- وله حق التصرف بالبيع او الرهن أو غير ذلك دون اذن من الزوجة- والزوجة لا تملك أن تبرم أمرا بشأن هذه الأموال دون اذن من الزوج يقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: (ان حقوق الزوجة المسلمة أفضل بكثير من حقوق الزوجة الأوربية- ان الزوجة المسلمة تتمتع بأموالها الخاصة فضلا عن مهرها وعن أنه لا يطلب منها أن تشترك في الانفاق على أمور المنزل- وهي اذا أصبحت طالقا اخذت النفقة واذا تأيمت أخذت نفقة سنة ونالت حصة من تركة زوجها).

وللمرأة في الاسلام حق التعلم وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) ابو داود، وقد طلب النساء من النبي صلوات الله عليه أن يجعل لهن يوما يعلمهن فيه ويعظهن فحدد لهن يوما.

وللمرأة الحرية الكاملة في اختيار الزوج فهي كالرجل يباح لها في أثناء الخطبة أن تنظر اليه وتستمع لحديثه بمقدار ما يعطيها انطباعا بأنه مقبول لديها وذلك في حدود ما شرع الله وعند عقد الزواج يؤخذ رأيها- ورأيها ضروري

لإتمام عقد الزواج وفي ذلك يقول الرسول الكريم:(الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر (تستأذن) واذنها سكوتها-) البخاري، ولو أن أباها زَوَّجها بدون علمها.أو رغما عنها فلها حق في أن تفسخ هذا العقد.

والاسلام كرم المرأة فجعل لها حق النفقة والسكنى وألا تكلف بعمل خارج المنزل فإن حرفتها الأمومة وصناعة الإنسان - وهي أشرف صناعة وأهمها في هذه الحياة يقول الشيخ الشعراوي في محاضراته التي ألقيت في الدوحة عام ١٣٩٦ (والإسلام لا يمنع المرأة من العمل ولكنه يضعه في حدود الضرورة وقد بين القرآن الكريم ذلك في قصة ابنتي شعيب اذ أباهما كان شيخا لا يقوى على السعي وليس لهما اخوة من الذكور -ثم هما تلزمان حدودهما فلا تزاحمان بل تنتظران حتى يصدر الرعاء -وبذلك لا تنسى نوعها ولا تزاحم كما يزاحم الرجال -وبالتالي فقد ظهر في هذه القصة مهمة الرجل بالنسبة إلى المرأة في اعانة موسى لهما على السقي... ومن هنا يتضح لنا أن تنظيم الاسلام للأسرة قائم على الفطرة التي لا تتغير الا بالانحراف وهو يجاري الفطرة في تخصص المرأة لوظيفتها -وحين يخص الإسلام المرأة للأسرة فانما يخصها لرعاية الانتاج البشري وهو خير ما في

الوجود- والمجتمع الاسلامي المحض الذي يتربى فيه الطفل ويتشرب أخلاق الاسلام وعقيدته وشريعته ويقوم بواجب خلافة الله في الأرض هو المجتمع الذي تقوم الزوجة فيه بدورها المرسوم لها في الاسلام -ولذلك فينبغي ألا نشغل أعصابها بإعالة نفسها وهي تقوم بهذا العمل ولا نفسد أعصابها بالعمل الذي تشارك فيه الرجل-

ومن هنا فان الاسلام لم يكتب على المرأة الجهاد لأنها تلد الرجال الذين يحاربون-وهي في هذا الميدان أقدر وأنفع لأن كل خلية في جسمها معدة لهذا العمل- وأنفع بالنظر الى مصلحة الأمة على المدى الطويل- فالمعركة حين تحصد الرجال وتستبقي النساء تدع للأمة مراكز انتاج الذرية فتعوض الفراغ، ورجل واحد في النظام الاسلامي يمكن أن يجعل أربع نساء ينتجن ويملأن الفراغ الذي تتركه الحروب بعد فترة من الأمان- فالمرأة هي المكان الطبيعي الذي يسكن اليه الرجل هي تكمله وهو يكملها- والتفوق الطبيعي في استعداد الرجل ونهوضه بأعباء المجتمع وتكاليف الحياة البيتية يمكنه من القوامة على المرأة).

والاسلام حين منح المرأة هذه الحقوق فقد منحها لها دون طلب ودون ثورة ودون جمعيات نسائية لأن الذي

اعطى لها هذه الحقوق هو الذي خلقها وخلق الرجل وهو أدرى بامكانات كل- ومن هنا فقد جعل الاسلام الرجل رجلا والمرأة امرأة وأودع كلا منهما خصائصه المميزة له، وجعل لكل منهما وظائفه المحدودة- وكل واحد منهما مكمل للآخر تحت ظل من المودة والرحمة.. ولذلك فلا يوجد خصام ولا شقاق ولا معركة حادة بين الرجل والمرأة ولا تحديات ولا يوجد رجل عدو للمرأة ولا امرأة عدوة للرجل.

وحين يرى الغرب ضرورة عمل المرأة فان هذا العمل لم يخفف من شقاء الرجل وازدادت هي شقاء.. والمرأة في المجتمعات الغربية تعمل كالرجل وأجرها أقل وهذا العبء زيادة على الوضع الطبيعي للمرأة من حمل ورضاعة وولادة وشئون منزل. وقد أثر هذا على الابناء في تربيتهم وان نسبة العاملات في مصر ٤٪ فقط ومع ذلك فقد ظهر مرض اسمه فقدان الحنان وأصبح له كرسي في جامعة الاسكندرية- فما الأمراض التي تحدث عندما تبلغ نسبة العاملات ٥٠٪ مثلا؟

فالمنهج الاسلامي يتبع الفطرة في تقسيم الوظائف بين الرجال والنساء- والفطرة جعلت الرجل رجلاً والمرأة امرأة،

وأودعت كلا منها الخصائص المميزة له- وجعلت لكل منها وظائف معينة لحساب الانسانية- وتصوير الموقف كما لو كان معركة حادة بين الرجل والمرأة فيه تجن على الحقيقة وهو ضد مصلحة المجتمع الاسلامي بل والمجتمع الانساني كله- فالمسألة هي توزيع اختصاصات وتنويع وتكامل وعدل بعد ذلك في المنهج الاسلامي لأن الذي شرعه هو خالق الذكر والأنثى وهو أدرى بكل منها ما يصلحه وما يصلح له.

مواطن الاختلاف:

وتثار حول المرأة المسلمة شبهات لمحاولة ابعادها عن الاسلام والسير بها في طريق الغرب رغم أن الغرب يلاقي انواعا من المتاعب والمشكلات ومن ذلك قيادة البيت..

ومن وجهة نظر الاسلام فان قيادة البيت والانفاق على الاسرة عملية تنظيم ولا تسيء الى انسانية المرأة او تنقص من قدرها ولذلك فينبغي أن ينظر اليها في اطار الاسرة ككل وكوحدة اجتماعية يقول الله تعالى: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) النساء/٣٤.

وقيادة الرجل للأسرة قيادة رأي وتنفيذ لما تنتهي اليه الشورى في الأسرة وليست قيادة سيادة او استبداد وان

كانت الأصوات العالية في الغرب وفي الشرق أحيانا تحاول أن تصور ذلك، والسبب أن عنصر المودة والحب بين الزوجين قائم في الاحوال السوية الى درجة أن القرآن الكريم يصور هذه الصلة بقوله: (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) البقرة/١٨٧- والطبيعة قد أعدت المرأة لدورها كما أعدت الرجل لدوره- فالمرأة مزودة بالرقة والعطف وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة وهذه المطالب ليست سطحية بل غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة، ودور الرجل الخشونة والصلابة واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة وهو بطيء الانفعال- وذلك لأن وظائفه كلها تحتاج الى قدر من التروي واعمال الفكر وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة وأفضل في مجالها.

ومن الشبهات التي تثار حول المرأة في الاسلام قول النبي صلوات الله عليه عن النساء (انهن ناقصات عقل ودين) البخاري، ويجيب على هذا الشيخ شعراوي في محاضراته في الدوحة عام ١٣٩٦ (العقل بمعنى الجهاز الذي يعقل وهو المخ بما فيه من مخيلات وحافظات وذاكرة موجودة عند الرجل والمرأة- والعقل ايضا حصيلة تجارب وثقافة وهو

العقل المكتسب- والمرأة المسلمة مفروض عليها أن تعتزل المجتمع فخبرتها في هذه الناحية قليلة ولذلك كانت الآية الكريمة الآتية موضحة السبب: (واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى) البقرة/٢٨٢، فالضلالة هنا ضلالة اختصاص- ولذلك فان المرأة تقبل شهادتها في شئون النساء بدون شهادة الرجال كالرضاعة والولادة- ولو اقتحم الرجال ميادين النساء فلن يعرفوا فيها كسن الأطفال- والمعاملات من ميادين الرجال فاذا اقتحمتها النساء فهذا ضلالة- فالمرأة حين ترى شيئا في الخارج فانها لن تتغلغل في المسألة فقد يكون هنا شيء او كلمة تخدش الحياء فتصرف نظرها عنه- أما الرجل فمفطور على الحياة وليس له هذا التحفظ- فالشهادة من الأشياء التي تريد من الانسان أن يلتقط كل ما يمت للشيء بصلة والمرأة نظراً لوضعها في أنوثتها ونفسها ومجتمعها قد لا تتابع الشيء- وهذا ليس نقصا فيها- بل كمال في جهتها ليعينها في مهمتها في الحياة).

والمرأة تتعرض لمؤثرات ذاتية تستجيب لها على نحو معين من غير أن يكون لها ارادة في الاستجابة- والوظائف

العامة أحوج ما تكون الى استقرار القاضي وعدم تعرضه لمؤثرات خارجية أو ذاتية تخضعه حتما لأوضاع نفسية أو بدنية قد تكون متناقضة.

الميراث:

ومن الشبهات التي أثيرت حول المرأة في الاسلام- أن الاسلام لم يساوها بالرجل في الميراث لقد كانت المرأة في الجاهلية مجرد متاع يورث- لا شأن لها ولا وزن ولا ترث كما يرث الرجل لأنها لا تشترك في الدفاع عن حمى القبيلة- وكثيراً ما كان العربي في الجاهلية يضيق بولادة الأنثى حتى إن بعضهم كان يسارع الى وأدها: (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) النحل/٨٥/٥٩.

ولقد كانت المرأة في الجاهلية اذا تزوجت ثم مات عنها زوجها سارع أحد ابناء زوجها الى الزواج بها اذا أعجبته أو يمنعها من الزواج حتى تفتدي نفسها بمبلغ من المال- والى هذا يشير القرآن الكريم في قوله: (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما

آتيتموهن) النساء/١٩- كما لا يسمح لها بالتصرف في مالها دون اذن زوجها أو وليها..

ثم جاء الاسلام ورد اليها كرامتها فساواها بالانسانية في الرجل وحرم وأد البنات وفرض على أوليائهن تعليمهن وأوجب على الرجل الانفاق على المرأة ولو كان لها مال خاص- وكذلك الانفاق على الاسرة- ولذلك فانه لم يسو بين الرجل والمرأة في الميراث- لأن المرأة ليست مكلفة بشيء بالنسبة للأسرة فهي الكاسبة على هذا الوضع- وعدم التسوية بينهما يعتبر مؤشرا الى طريق الاحتفاظ باعتبارها البشري وبخصائصها في الأنوثة والزوجية والأمومة- أي بخصائصها كأنثى حتى لا تتحول الى رجل أو شبه رجل- ومساواتها بالرجل اقتصاديا واستقلالها يعرضها لأزمات نفسية فهو يضعف احساسها بالأنوثة كما يضعف احساسها بالأمومة ويجعل هناك تراخيا في العلاقات الزوجية.

الطلاق:

ومن الشبهات التي تثار حول الاسلام أنه أباح الطلاق فهو بذلك لا يحافظ على كيان الأسرة وأنه جعله في يد الرجل وفي هذا هضم لحقوق المرأة لعدم مساواتها بالرجل.

والاسلام دين واقعي فهو أولا قد أبعد عن الأسرة شبح

الطلاق لأن الاسرة قائمة على المودة والسكن والطلاق مدمر لكيان الاسرة- وقد جعله الله سبحانه وتعالى أبغض الحلال الى الله يقول الرسول الكريم: (أبغض الحلال الى الله الطلاق) وطلب من الرجل أن يصبر على زوجته حتى عند الكراهية يقول الله تعالى: (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) النساء/١٩- وحين تتأزم العلاقة بين الزوجين فان الاسلام يطلب من الرجل سعة الصدر والتعقل ويلزمه باتباع أساليب من شأنها أن تعيد للأسرة استقرارها، فالزوج عليه أولا أن يعظ زوجته وينصحها فان لم يفد ذلك فيمكنه أن يهجرها في المضجع فان لم يفد ذلك فيمكنه أن يضربها ضربا غير مبرح لكي تشعر المرأة التي تتصرف بعاطفتها مقدار ما يجره عليها تعنتها من ضرر على الأسرة- وحين لا يؤدي ذلك الى نتيجة يقوم حكم من أهله وحكم من أهلها بدراسة المشكلة من جميع نواحيها- ولها بعد ذلك أن يقررا دوام العشرة الزوجية أو استحالتها يقول الله تعالى: (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما) النساء/٣٥.

وحتى الطلاق لم يجعله نهائيا من أول طلقة- واشترط أن

يقع الطلاق في طهر وألا تخرج المرأة من بيت زوجها خلال العدة في الطلقتين الأولى والثانية فعسى أن تطمئن النفوس وتهدأ الاعصاب ويتذكر الزوجان ما بينهما من رباط فتعود المياه الى مجاريها- كل هذا من أجل الوحدة الصغيرة للمجتمع فان لم يجد ذلك كله فالطلقة الثالثة التي تمثل نهاية المطاف يقول الله تعالى: (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) البقرة/٢٢٩- ومنع الطلاق نهائيا ناحية مثالية قد تصلح فكرا ولكنها لا تصلح تطبيقا في المجتمعات البشرية التي نعيش فيها- ولقد مكث الناس في الغرب وفي الشرق غير الاسلامي فترات طويلة ينفصلون فيها عن زوجاتهم بغير طلاق ويمارس كل منهما حريته الجنسية عن غير طريق الزواج- كما راح جماعات من الناس يثبتون الزنى على أنفسهم حين كان هذا هو الاسلوب الوحيد في بعض المذاهب المسيحية للحصول على الطلاق- كما راح جماعات من الناس يعتنقون الاسلام لتطليق زوجاتهم فاذا تم لهم ذلك عادوا الى دينهم السابق- ولقد اصبح معروفا في المجتمعات البشرية أنه لا بد من اباحة الطلاق فأقرت المجتمعات الغربية الطلاق- بل توسعت فيه الى درجة هددت مجتمعاتها تهديدات مختلفة ولقد نشرت جريدة

الايكونوميست البريطانيــــة في عددهــا الصــادر في ١٩٧٨/٥/١٩ (لقد انتهى رئيس قسم الاسرة بالمحكمة العليا من اقتراح قانون بسيط للطلاق مثل استراليا يسمح بانهاء أي زواج بعد أن يكون الزوجان قد انفصلا لمدة عام - والجمعية القانونية ربما تصدر نداءها للإصلاح في الشهر القادم - حل واحد أوصت به لجنة فنية عام ١٩٧٢ بالنسبة للأسر ذات أحد الوالدين هو تكوين محاكم قادرة على علاج المشاكل المعقدة الناتجة عن الطلاق مثل الوصاية وكفالة الابناء وتسمى محاكم الاسرة وتتكون من قضاة متخصصين في شئون الاسرة- ولكن السويد خطت خطوة أبعد من ذلك فقد نقلت الطلاق من القاضي الى الزوجين معا، فاذا ما اتفق الزوجان على الطلاق فانه يتم بينهما دون حاجة الى حكم القاضي ويكفي تسجيله في السجل المدني. وهم يعتبرون ذلك خطوة على طريق الحضارة في تحرير المرأة الأوربية لأنه يتجنب تعقيد الاجراءات القضائية من جهة كما يتجنب الكشف عن اسرار الزوجية من جهة أخرى.

ولقد كان الطلاق حقا من حقوق الرجل لأن المرأة تحكمها العاطفة- وحين مكنت المرأة من حق الطلاق في

الغرب أصبح يحدث لأتفه الأسباب- وفي أمريكا تبلغ نسبة الطلاق ٤٨٪- وهناك اسباب عجيبة للطلاق مثل أن تطلب المرأة الطلاق لأن زوجها لم يحلق لحيته كل يوم أو لأنه لا يشركها في شئونه- ومع ذلك فلو اشترطت المرأة المسلمة أن تكون العصمة بيدها فان ذلك من حقها- ثم ان لها الحق في أن تخلع نفسها وتخرج من العلاقة الزوجية: (فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) البقرة ٢٢٩ ، وقد فعلت امرأة ثابت بن قيس ذلك على عهد الرسول صلوات الله عليه.

لقد كرم الاسلام المرأة تكريما لا نظير له في فلسفة من الفلسفات أو مجتمع من المجتمعات فالرسول الكريم يقول: (ما أكرم النساء الا كريم ولا أهانهن الا لئيم) وقد كانت آخر كلمة قالها الرسول الكريم وهو على فراش الموت: (استوصوا بالنساء خيرا) ويقول: (أكرم المؤمنين ايمانا أحسنهن خلقا وخياركم خياركم لنسائهم) ويقول: (استوصوا بالنساء خيرا فانهن خلقن من ضلع أعوج- وان أعوج ما في الضلع أعلاه فان أردت أن تقيمه كسرته وان تركته لم يزل أعوج) النسائي- وهو بذلك يريد أن يتحمل الرجل تصرفات النساء- ولقد كان النبي عليه السلام قدوة في ذلك.

ولذلك فانه من الخطأ أن يراد للمرأة أن تأخذ موقعا لم تهيأ له لأنهم أرادوا لها أن تتمرد على دينها في مجتمعنا الاسلامي تحت شعارات الحرية والمدنية والحضارة وهي عبارات براقة تخفي وراءها ما تخفي من متاعب وتخلخل في المجتمع الإسلامي، وسيؤدي ذلك الى أنها ستخرج متبرجة فتلهب الغرائز وسيؤدي ذلك الى انحراف المنحرفين وأنها ستشغل نفسها بالخارج وتترك أمر بيتها- واذا خرجت المرأة الى الشارع فانها ستترك وظيفتها الاساسية التي خلقت لها وسيؤدي ذلك الى انحراف المجتمع- وهذا ما يريد الغرب أن يصل اليه في المجتمع الاسلامي حتى يصل الى ما يريد.

خاتمة:

الاسلام يعتبر الشباب هم عدته التي ينشر بها رسالته ومن هنا فانه يعمل على تربيته التربية الكاملة المتكاملة من كل الزوايا بل ويهيء له البيئة الصالحة من قبل وجوده- ثم انه يكون متكيفا في المجتمع الذي يعيش فيه ومع نفسه ومع قيمه وأفكاره وشخصيته يؤثر اكثر مما يتأثر- ولكي يكون الشاب المسلم متوافقا بينه وبين نفسه لا بد وان يكون قادرا على أن يتعامل معها وأن يعرف كيف يسعد بها ويسيطر عليها- وفكرة المرء عن نفسه هي النواة الاساسية التي تقوم عليها شخصيته وهي العامل الاساسي في تكيفه الاجتماعي أيضا- والصورة الذهنية تؤثر بطريقة مباشرة على حياة الفرد وتحدد الأسلوب الذي يحقق له التكيف والمواءمة مع كل جانب من جوانب البيئة المادية والاجتماعية والنفسية بحيث يستطيع أن يؤدي رسالته التي خلقه الله تعالى من أجلها..

ويقصد بالبيئة كل المؤثرات والامكانات والقوى المحيطة بالشاب التي يمكنها أن تؤثر على جهوده للحصول على الاستقرار النفسي والبدني في بيئته. وهي تشمل البيئة الطبيعية كما تشمل البيئة الاجتماعية.

فالبيئة الطبيعية: تشمل كل ما يحيط بالفرد من مسكن او ملبس او طعام او غير ذلك مما يحيط بالفرد من اشياء مادية وطبيعية وكل ما يلزمه ويحتاج اليه من مواد وادوات تساعد على الحياة فهي تمثل جوانب هامة تؤثر على نمو الفرد وقدرته على التوافق ومقدار ما يبذله من جهد في سبيل ادائه لرسالته.

والبيئة الاجتماعية: تشمل المجتمع والعلاقة بين الافراد بعضهم مع بعض كما تشمل العادات والتقاليد والقوانين والنظم التي تنظم العلاقة بين الافراد بعضهم مع بعض- فالانسان يتفاعل مع المجتمع يأخذ منه ويعطيه- وقد أدت طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الافراد الى وجود نوع من الشعور الاجتماعي المشترك بين الافراد يتجلى في تضامن اعضاء الجماعة تجاه المهمات المشتركة والمسئوليات الاسلامية.

والتكيف يجب ان يكون عملية ايجابية مستمرة تواجه مطالب الحياة المستمرة لأن الحياة في تغيُّر مستمر وهي لذلك تتطلب من الفرد أن يكون مرنا والا انهار الانسان من كل جوانبه وبالتالي انهار المجتمع الذي يمثله- وكل ذلك في اطار القيم الاسلامية.

والتكيف اما شخصي واما اجتماعي فالتكيف الشخصي

معناه أن يكون الشاب راضيا عن نفسه وان تكون حياته خالية من التوترات والصراعات النفسية التي تقترن بمشاعر القلق والضيق والشعور بالذنب- ويساعد على ذلك أن يدرك الشاب ما زود به من امكانات بدون حط من قدرها أو زيادة فيها- وأن ينجح في تحقيق آماله طبقا لامكاناته وأن يكون راضيا عن هذا النجاح.

والتكيف السليم لا يتحقق الا اذا كانت حياة الشاب خالية من الاضطرابات النفسية والا اذا كان الفرد قادرا على مواجهة المشكلات بطريقة موضوعية ينعم فيها بحياة مستقرة هادئة- وهذا من خصائص الشخص الناضج السوي- والشخص الناضج هو الذي تتوافر فيه صفات أهمها أن يحسن استخدام وقت فراغه وأن يروح عن نفسه في ظل القيم الاسلامية وأن يحس بالسعادة في كل عمل يقوم به نحو نفسه ونحو مجتمعه ونحو ربه ثم هو الذي ينظر الى كل ما يحيط به نظرة موضوعية يخطط وينظم ويعمل فاذا وفق شكر الله تعالى واذا لم يوفق حمد الله تعالى وتمثل الآية الكريمة: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) البقرة/٢١٦.

والتكيف الاجتماعي هو قدرة الشاب على أن يعقد

صلات اجتماعية راضية مرضية مع من يعاشرونه او يعملون معه من الناس دون ان يشعر الفرد بحاجة ملحة الى السيطرة او العدوان على من يقترب منه او برغبة ملحة في اطرائهم له او في استدرار عطفهم عليه او طلب المعونة منهم بحيث يستطيع أن يؤدي رسالته معهم بالاسلوب الاسلامي.

للتكيف السليم مظاهر يراها الناس ويحس بها صاحبها منها الراحة النفسية بمعنى أن الشاب يستطيع حل المشكلات بطريقة يرضاها لنفسه ويقرها الاسلام وبذلك لا يحس بالتعب النفسي او القلق الزائد او عدم الاقبال على الحياة وهذا ما يجعله أقدر على الصمود حيال الأزمات والشدائد وضروب الاحباط المختلفة دون أن يختل ميزانه- ومنها الكفاية في العمل والانتاج اذ أن العمل له صلة وثيقة بالأهداف التي تكمن وراء السلوك الانساني- ويحرص الاسلام على ان يعيش كل فرد فيه سعيدا متكيفا مع نفسه ومع بيئته، والتعاليم الاسلامية تجنب الشاب الوقوع في الخطأ وبالتالي تخفف من حدة التوتر الذي يسببه له تصارع الدوافع والاتجاهات- والشاب المسلم الذي يتمسك بقيمه يتمسك في الوقت نفسه باطار يحدد اساليب سلوكه ويجد الشاب سندا قويا يلجأ اليه اذا ضاقت به الامور وشعوره

بهذا السند المتين يكون امرا باعثا على الاطمئنان النفسي والله تعالى يقول: (وننزل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين) الاسراء/٨٢، فالقرآن شفاء من القلق ومن الحيرة ومن الاضطراب ذلك لأن المسلم يحس بأن الله معه يرعاه فيحس بالراحة والاطمئنان والأمن ويبعد ذلك عنه اليأس والقنوط لأن اليأس والايمان لا يجتمعان في قلب مؤمن كما يقول النبي صلوات الله عليه- والمسلم اذا اراد شيئا في هذه الحياة فعليه أن يسأل الله من فضله (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله) النساء/٣٢.

والفرد بمجرد دخوله الاسلام عن اقتناع وفهم وتدبر فانه يكون قوي التكيف سريع الاستجابة لكل المواقف التي تتمشى مع الاسلام وتعاليمه- ومن ذلك ما حدث للذين يشربون الخمر حين نزلت الآية الكريمة: (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) ٩٠/ ٩١، فقالوا فور

سماعهم هذه الآيات الكريمة: انتهينا ربنا، وكسروا زقاق الخمر وأراقوا ما فيها على الأرض.

والاسلام يقوي التكيف لدى المسلمين بالاهتمام بالوسائل الدافعة المتمثلة في القدوة الحسنة والبيئة الصالحة والترغيب والملاينة قال الله تعالى لنبيه: (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) آل عمران/١٥٩.

وفي استخدام الوسائل المانعة كالتهديد او العقاب عند الضرورة، وقد ترتب على التكيف الذي حدث في المجتمع الاسلامي الاول أن دخل الناس في دين الله أفواجا، وقد استطاعت التربية الاسلامية بالمنهج الرباني أن تحرر نفوس من دخل الاسلام على الانقياد لهذه المشاعر القوية والانقياد لهذا السلوك وأن تزيح العقبات المختلفة التي تعوق تقدم الشباب او تكيفه مع نفسه أو مع مجتمعه.

جاء الاسلام ليربط القلوب بالله تعالى وليقيم موازين القيم الأخلاقية بميزان الله- وليخرج المسلمين الى مجال الأخلاق والتعامل مع الأصدقاء ومع الأعداء على السواء، ووصلت سعادة الأفراد والجماعات الى درجة تهفو اليها نفوس الناس في عصرنا الحاضر في الشرق وفي الغرب على السواء.

علي القاضي

فهرس